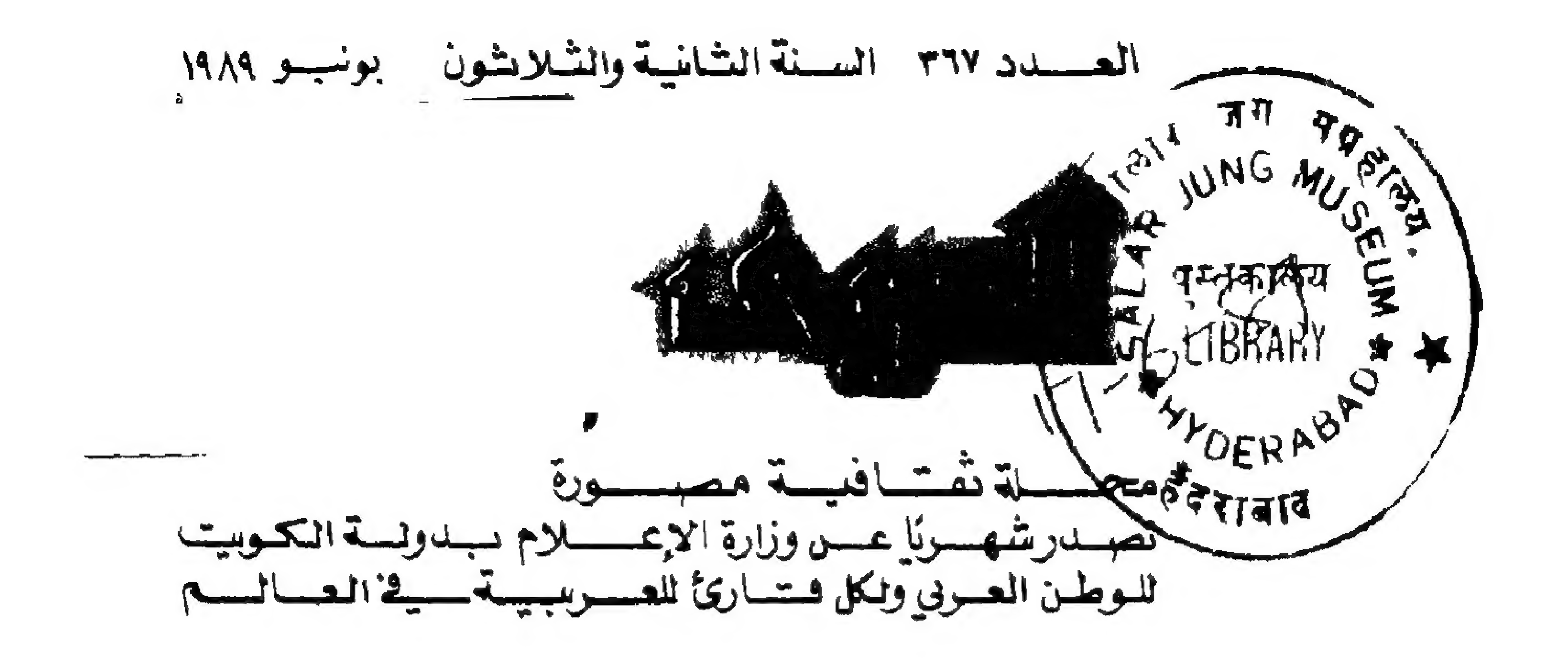


■ الأموال المهرّبة من بلاد الفقراء !

■ مِن غرائب "المكتوبْجي" !

العـــدد ٣٦٧ السـنة الثانيـة والثلاثون يونيـو ١٩٨٩



مجـلة ثقـافيـة مصـورة
تصدر شهريًا عن وزارة الإعلام بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

عنوان المجلة
العربي
ص ب ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 الكويت
تلفون ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٤٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقيا "العربي" الكويت
تلفون فاكسميلي ٢٤٢٤٣٧٥ - تلكس MITR 44041 KT
المراسلات باسم رئيس التحرير

AL - ARABI
Issue No. 367 June 1989 - P.O. Box : 748
Postal Code No. -13008 Kuwait.
A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information
State OF Kuwait.

الاعلانات يتفق عليها مع الإدارة - قسم الاعلانات

الاشتراكات ترسل الطلبات إلى: قسم الاشتراكات - الإعلام الخارجي
وزارة الإعلام - ص.ب: ١٩٣ الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقًا لما يلي:
الوطن العربي ٦ د.ك أو ٢٠ دولارًا باقي دول العالم ٨ د.ك أو ٣٠ دولارًا

ثمن النسخة

الكويت ٣٠٠ فلس	تونس ٥٠٠ مليم	سوريا ١٥ ليرة
العراق ٤٠٠ فلس	الجزائر ٥ دنانير	الامارات ٧ دراهم
الأردن ٢٥٠ فلسًا	السعودية ٦ ريالات	المغرب ٥ دراهم
البحرين ٤٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٤ ريالات	ليبيا ٥٠٠ درهم
اليمن الجنوبي ٣٠٠ فلس	قطر ٧ ريالات	أوروبا جنيه استرليني ونصف
مصر ٣٥ قرشًا	سلطنة عمان ٤٠٠ بيسة	فرنسا ٢٥ فرنكًا
السودان ٢٥ قرشًا	لبنان ٥٠ ليرة	أمريكا ٣ دولارات

العربي - العدد ٣٦٧ - يونيو ١٩٨٩ م

محتويات العدد

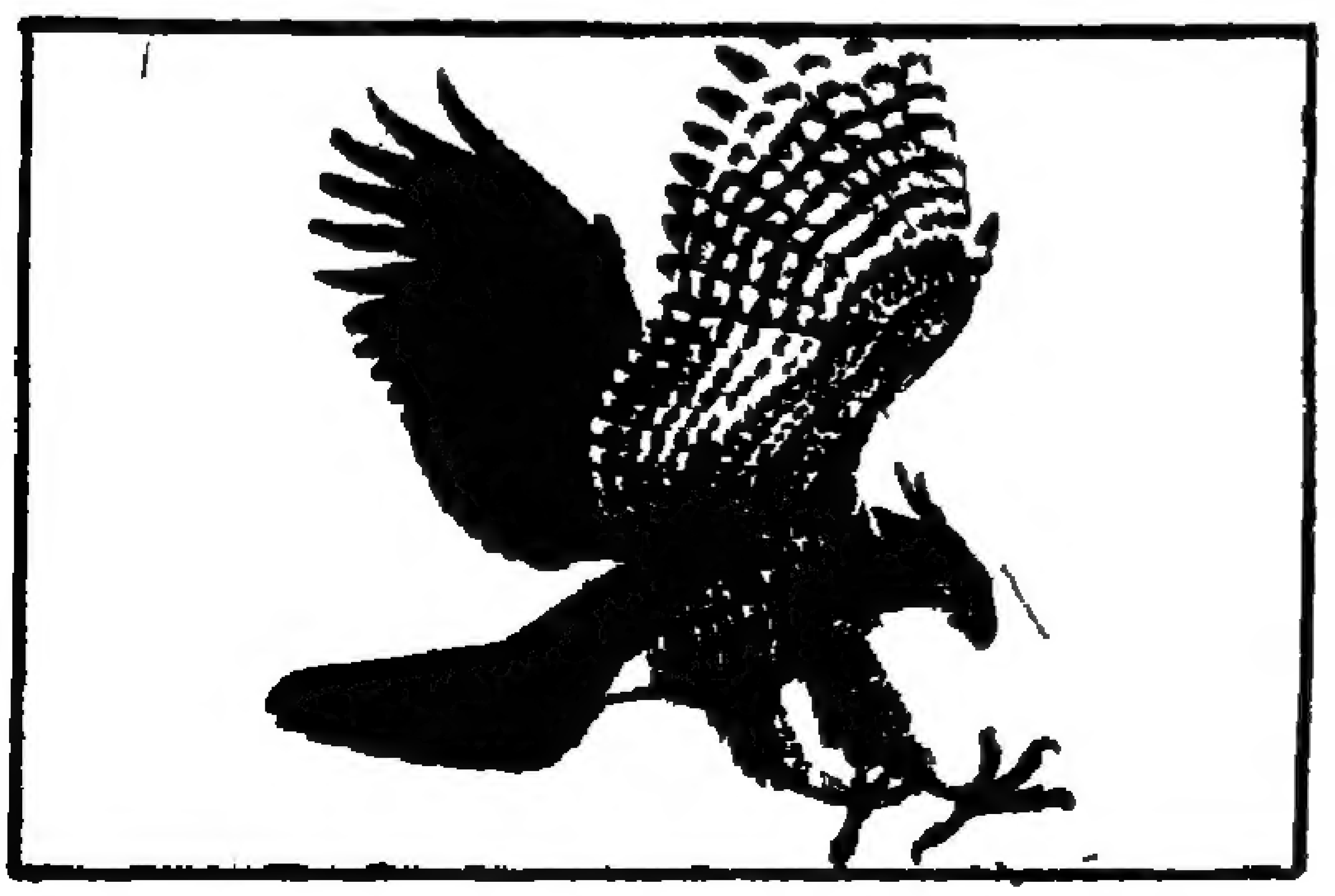
قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

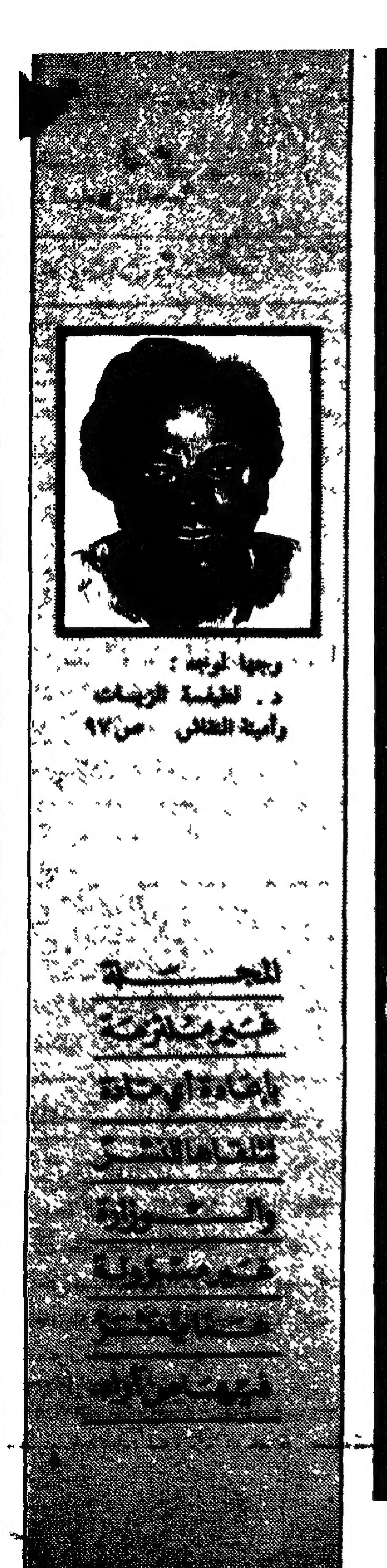
سياسة واقتصاد :

استطلاعات مصورة :

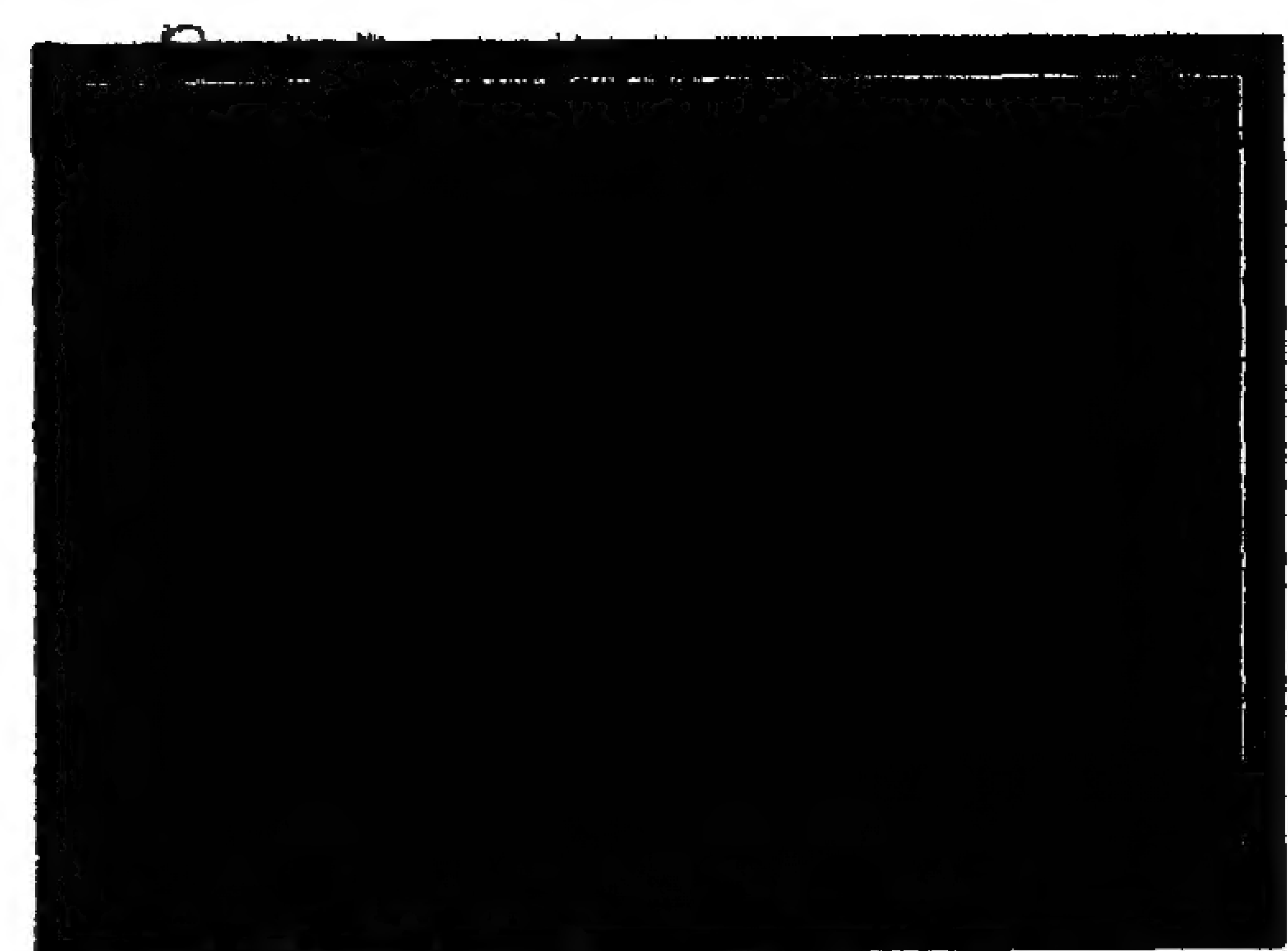
طب وعلوم :



● عن النسور والعقبان ... ص ١٥٦



وجها لوجه : د. لطيفة الزيات وأمية الثقافي ص٩٧



أدب وفنون :

منتدى العربي :

تاريخ وتراث واشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

(تابع الاستطلاع ص ١٣٢)

البيت العربي
مجلة الأسرة والمجتمع

زمن الحصار

من علامات الحصار التي طوقت العمل الثقافي العربي - مثله مثل أي نشاط إنساني آخر - لجوء كثير من المثقفين والكتاب الى تمجيد الماضي، دون تمحيص ونقد، والإقلال من الالتفات إلى الحاضر والمستقبل. ووعياً من «العربي» بهذا الأمر، أخذت على عاتقها مناقشة هموم الحاضر والمستقبل وقضاياهما دون إغفال لماضٍ نحن نتاجه. هذه المناقشة ليست نظرية فحسب، وإنما عملية تطبيقية، تمثلت في العناية بالنتاج الفكري لشخصيات مهمة، تعيش بيننا، والالتفات الى مبدعينا، وكتابنا، ومفكرينا، والاهتمام بنتاجاتهم عرضاً ونقداً ومتابعة وتعريفاً.

ولقد فقدنا في الفترة الأخيرة مجموعة من خيرة الكتاب الذين أثروا «العربي» وقراءها بإبداعاتهم النيرة، مثل الأساتذة : فتحي رضوان، نعمان عاشور، انجي أفلاطون، توفيق يوسف عواد، وكان بعض هؤلاء قد نشر آخر إنتاجه في «العربي». المبدع الأخير في القائمة توفيق يوسف عواد، من رواد كتابة القصة في الوطن العربي، فقدناه بطريقة مأساوية في لبنان، عندما سقطت قذيفة عمياء على المنزل الذي يقطن فيه، في هذه الحرب اللبنانية الشرسة الهوجاء التي آن لمدافعها أن تصمت. وفي هذا الاطار ننشر في هذا العدد بجانب حديث الشهر الذي كرسناه للحديث عن لبنان، موضوعا آخر عن أسرار الفتنة الطائفية في بلاد الشام في القرن الماضي، كتبه الدكتور أسعد الاسطواني.

ويشارك المبدعون العرب في وجبة هذا الشهر من «العربي» بانتاج متنوع غني، فيه الطريف والغريب، كموضوع «غرائب المكتوبجي» لشريف الراس، وفيه الجاد والمحزن في الوقت نفسه كموضوع د. رمزي زكي عن «الأموال المهربة من بلاد الفقراء»، وموضوع تجربة محمد علي التحديثية في مصر للدكتور أحمد حُلبي، ويكتب لنا الدكتور محمد رشاد الطوبي عن طبيعة النسور والعقبان.

ويصحبك هذا العدد باستطلاعي «العربي» الى مناقشة فكرتين مهمتين، من خلال زيارة المكان ومعالمه. فالأول في بريطانيا، حيث تحاول «العربي» الاقتراب من عالم المسلمين هناك، همومهم وحياتهم وتجمعاتهم وانتماءاتهم، لنتساءل معا : هل هم مواطنون أم غرباء؟ بينما يذهب بنا الاستطلاع الثاني الى البادية الأردنية، لنتابع السعي لاستجلاء تحضر البادية وملامح تطورها.

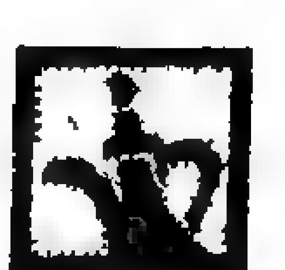
وأنت تقرأ هذا العدد عزيزي القارىء، ستحصد جهدا وزرعا، استغرق منا وقتا وأعصابا، لنعد لك عدداً جديدا، نرجو أن يكون قد حقق تطورا للأمام. مهما كان جهدنا، ومهما كانت أحزاننا على واقعنا المعاصر، وعلى المبدعين الذين يرحلون عنا. فالرحمة لهم، وإلى العدد □.

المحـــــــرر



بقلم الدكتور
محمد الرميحي

في لبنان المعذب :
علينا أن نقتلع شوكنا بأيدينا



لا أستطيع أن انسى وأنا أكتب هذا الحديث مجموعة من صور العذاب في لبنان ، من بينها صورة لاتبرح الذاكرة ، وأحسبها لن تبرح ذاكرتي فترة طويلة ، الصورة لطفلة لم تتجاوز السابعة من عمرها ، تضع رجلا فوق رجل ، وهي جالسة على سرير في مستشفى ، إحدى قدميها مقطوعة ، ومغلفة بشاش أبيض ، ظهرت عليه بقع دم حمراء ، والطفلة تبتسم بعناء ، وقد لاتعرف في هذه السن المبكرة معنى تلك العاهة الدائمة ، ولكنها ستبقى معها ما عاشت بعد ذلك . هذه الصورة من عشرات ، بل مئات الصور التي شاهدناها ونشاهدها كل يوم منقولة من لبنان المعذب ، وأينما نلتفت نجد خبرا أو مقالا عن لبنان ، ويضج اللبنانيون بالحيرة والألم ، وتسير الحرب الأهلية هناك بكل خصائصها وسوآتها ، كأن أحدا لايسمع ، وكأن أحدا لايرى .



* لبنان : بشرية معذبة

■ مازالت كثير منا لا يقرأ ، وقليل من القراء لدينا يفهمون جذور الأزمة اللبنانية !

في محاولة ايجاد مخارج لهذه المعضلة المستمرة ، وايجاد حلول منطقية لحرب أهلية غير منطقية ، تدخل عامها الخامس عشر ، يقف كثير من الرجال ذوي الخبرة والشأن بعيدين مترددين عن الولوج في هذا الخضم السياسي ، فللحرب ذيول وآلام ،لايمكن أن يتحملها بشر ، وقلوب العرب ـ كل العرب ـ تتقطع يوميا وهي تسمع وتشاهد مايحل بلبنان ، هذا البلد الذي كنا ننعته بطائر الفينيق الذي ينبعث من رماده منذ سنوات قليلة ، والذي كان كثير منا يحلم « بمرقد عنزة » على ثراه ، يتحول الى جحيم حرب ، وينتقل من واحة غناء وبلد ساحر ، الى ساحة دمار شرس ، لايوفر الطفل أو المرأة أو العجوز ، فالمواطن اللبناني اليوم ـ من رجل وامرأة وطفل ـ إما قتل ، واستراح ، أو أنه جريح أو معاق أو مهجر في وطنه ، أو هائم على وجهه في بقاع الأرض المترامية . بلد الفرص الاقتصادية المتاحة للثراء أصبح اقتصاده شبه منهار ، وبلد التعايش سقط في براثن الحقد الأعمى .

لقد تغير كل شيء في لبنان خلال الخمس عشرة سنة الماضية ، تغيرت التحالفات واختلفت وتناقضت ، وأطلقت عشرات المبادرات ، وفشلت أو أُفشلت ، ومات بعدها وعانى عشرات الألوف من اللبنانيين

■ إن فشلت الجهود العربية في لبنان تعرض الأمن العربي كله للخطر

وغيرهم ، والذي لم يتغير في لبنان حتى الساعة هو حقيقة واحدة ، ألا وهي استمرار الحرب الأهلية ، واستمرار معاناة المواطن العادي الذي دفع - ومايزال يدفع - ثمنا باهظا لهذه الحياة ، أو قل للمخاطرة بهذه الحياة ، إن كان في المخابىء ، أو في الطرقات وهو يركض لتأمين لقمة الخبز لعياله ، أو الموت البطيء في المنافي والمهاجر .

لقد دخل اللبنانيون التاريخ من أكثر من باب ، ولكن أبشع تلك الأبواب حربهم الأهلية هذه ، فقد قامت الحروب الأهلية التي عرفها التاريخ الحديث منذ الحرب الأهلية الامريكية في القرن الماضي ، مرورا بالحرب الأهلية الاسبانية ، والحرب الأهلية في روسيا بعد الثورة البلشفية ، وكذلك في الصين في منتصف هذا القرن ، وقامت حروب عديدة في العالم الثالث : في كوبا ونيكاراجوا والسلفادور في أمريكا الجنوبية ، وفي نيجيريا وزائير في افريقيا ، وباكستان وكمبوديا في آسيا ، وايرلندا الشمالية وقبرص في أوربا . وكل تلك الحروب لم تصل الى هذه الدرجة من الشقاء ، والشقاق الطائفي والعائلي والاقتصادي والاجتماعي والجغرافي والنفسي ، على مساحة صغيرة ، لاتتعدى ١٠٤٥٢كم٢ ، وفي مجتمع يضم فقط ثلاثة ملايين ونيف من البشر ، وعلى هذه الدرجة - أو كان على هذه الدرجة - من مظاهر التقدم المدني والازدهار الاقتصادي . وهذا الأمر يعود - حسب اعتقادنا - إلى عجز الانسان في لبنان عن التصدي الحقيقي لمشاكله وحلها الحل الأوفق .

الارادة العربية :

قضية في مثل هذا التعقيد تحتاج الى قلوب وعقول كبيرة لاحتوائها ، ومحاولة فتح قنوات سليمة وسلمية ، كي يتصاعد البخار قبل أن ينفجر القِدْر بما فيه وعلى من حوله . وهنا يجب أن نُذَكِّر - بكل العرفان - بالجهود العربية التي ما أن انزاح عنها خطر الأخطار ، وهو حرب الخليج ، وصمتت المدافع هناك حتى التفتت الى لبنان ، تتلمس مخرجا لمساعدة مواطنيه ، للخروج من هذا النفق الشرير الذي امتد على مساحة من الزمن . دخل منذ فترة سنته الخامسة عشرة . فمنذ مطلع هذا العام ، وبعد اجتماع وزراء الخارجية العرب في الثاني عشر من يناير المنصرم الذي تم فيه الاتفاق على تشكيل لجنة عربية سداسية ، أنيط بها الاتصال والاستماع ، ثم تقديم تقرير عن الحل الذي يمكن تطبيقه في لبنان للمساعدة على الوصول الى وفاق وطني لبناني ، وتحقيقا لهذا الغرض قامت هذه اللجنة بعقد اجتماعات عديدة ، واتصلت

بالرئاسات اللبنانية السياسية منها والروحية ، وبممثلي الأحزاب والفئات المختلفة* وقد قدر أن يكون رئيسها الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح ، نائب رئيس الوزراء ، وزير الخارجية الكويتي الذي أعطاها من خبرته وقدرته التفاوضية الكثير، وأفادها تصميمه كذلك للوصول بها الى أهداف ملموسة، مرتكزا على ماللدبلوماسية الكويتية ـ عبر السنوات الماضية ـ من تجارب ناجحة في معالجة عدد من الأزمات العربية والاقليمية، والوصول بها الى ساحل الأمان .

ولقد كان لتلك الأسباب المتمثلة بشخصية الرئيس وخبرته ، وتراث الدبلوماسية الكويتية القائمة على الاتزان والتعقل والحوار ، أكبر الأثر في التوكيد على أن الخلافات العربية ماهي إلا ضعف للعرب وقوة لأعدائهم ، وأن التضامن العربي هو المظلة الأكثر أمانا والأفضل سبيلا .

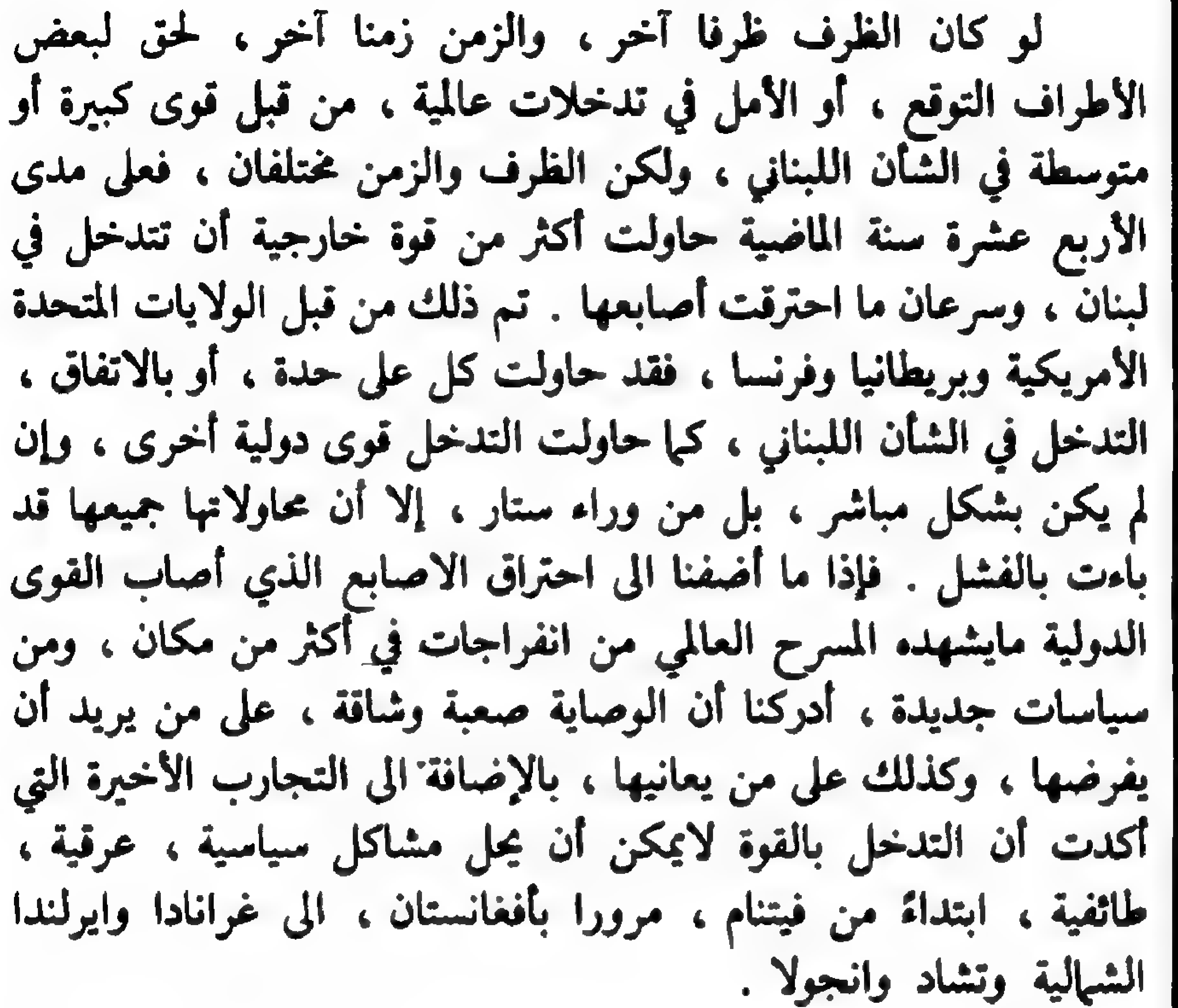
* الشيخ صباح الأحمد : فيا صنعه سراوه

وهكذا سار الشيخ صباح الأحمد في الأشهر القليلة الماضية للتقليل من الاعتراضات ، ومحاولة تنمية التوافقات ، وطرح الخيارات المناسبة للمصلحة العامة ، معتمدا على رصيد داخلي واقليمي وعربي وعالمي من الامكانيات والعلاقات ، حتى لم يعد لبناني معني بالأمر إلا وتوقع خيرا ، وهكذا كان ، فصدرت قرارات مجلس وزراء الخارجية العرب في ٢٨ ابريل الماضي ، مما أعاد الثقة لفتح طريق الوفاق اللبناني . وبدأت قرارات الجامعة العربية تأخذ طريقها الى التنفيذ في لبنان وهي خطوات

* اللجنة مكونة من الكويت (رئيسا) ، وعضوية كل من الإمارات وتونس والأردن والسودان والجزائر، وكذلك الأمين العام للجامعة العربية.

افتقدناها منذ زمن طويل . ومهما كان هذا الطريق طويلا ومليئا بالشوك ، فعلينا أن نقتلع شوكنا بأيدينا ، ولانتظر من أحد أن يفعل ذلك .





دروس جديدة في العلاقات الدولية :

لو كان الظرف ظرفا آخر ، والزمن زمنا آخر ، لحق لبعض الأطراف التوقع ، أو الأمل في تدخلات عالمية ، من قبل قوى كبيرة أو متوسطة في الشأن اللبناني ، ولكن الظرف والزمن مختلفان ، فعلى مدى الأربع عشرة سنة الماضية حاولت أكثر من قوة خارجية أن تتدخل في لبنان ، وسرعان ما احترقت أصابعها . تم ذلك من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا ، فقد حاولت كل على حدة ، أو بالاتفاق ، التدخل في الشأن اللبناني ، كما حاولت التدخل قوى دولية أخرى ، وإن لم يكن بشكل مباشر ، بل من وراء ستار ، إلا أن محاولاتها جميعها قد باءت بالفشل . فإذا ما أضفنا الى احتراق الاصابع الذي أصاب القوى الدولية مايشهده المسرح العالمي من انفراجات في أكثر من مكان ، ومن سياسات جديدة ، أدركنا أن الوصاية صعبة وشاقة ، على من يريد أن يفرضها ، وكذلك على من يعانيها ، بالإضافة الى التجارب الأخيرة التي أكدت أن التدخل بالقوة لايمكن أن يحل مشاكل سياسية ، عرقية ، طائفية ، ابتداءً من فيتنام ، مرورا بأفغانستان ، الى غرانادا وايرلندا الشمالية وتشاد وانجولا .



أضف الى ذلك الانفراجات التي سادت سماء الشرق الأوسط وغيره من مناطق التماس منذ فترة . ولعل أبرزها وقف الحرب العراقية الايرانية ، مروراً بالانسحاب السوفيتي من أفغانستان ، والتطورات الجارية على الساحة الفلسطينية بعد الانتفاضة المجيدة ، ونتائجها السياسية .

هذه الانفراجات ـ وبعضها ليس قليل النتائج والدروس ـ أشاعت جوا من التفاؤل العربي في انفراج أكبر ، على أصعدة كثيرة ، يمكنها أن تقودنا للعودة الى الأجواء الطبيعية ، وجزء من هذه الأجواء الطبيعية أن يقوم العرب بإحلال إرادتهم محل إرادات الآخرين ، وتقوم مؤسساتهم بدورها الفاعل المتوقع ، وهكذا كان . فمن خلال اللجنة السداسية المنبثقة عن الجامعة العربية ، بدأت الجهود المضنية لدراسة الوضع في لبنان ، وتقديم اقتراحات وحلول لتطويق الخلاف ، والبدء باتخاذ

■ إحلال إرادة العرب في حل مشاكلهم هو امتحان المرحلة

خطوات عملية في هذا المجال ، فلو تركت الأزمة اللبنانية تتفاعل دون هذا التدخل الحكيم ، لكان أمامنا طريقان ، لاثالث لهما ، يقودان الى النتيجة نفسها ، إما زيادة اقتتال اللبنانيين بشراسة أكبر ، يليها تدخل قوى اقليمية غير عربية ، من بينها « اسرائيل » ، أو يؤدي الاقتتال الى تدخل قوى كبرى ، لمساندة هذا الطرف اللبناني أو ذاك ، وتعريض المنطقة لدورة أخرى من التشابك العالمي ، وكلا الطريقين يؤديان الى تفاعل الصراعات ، وتطور الأزمات ، حتى تصيب بشرورها الأقربين والأبعدين من العرب ، مما يدخلنا في دوامة عدم الاستقرار من جديد .

لذلك فإن النتائج التي توصلت اليها اللجنة السداسية ، بجهد وإصرار من رجل سياسة له ميراث وثقل مثل صباح الأحمد ، قد فتحت آفاق الحلول ، على الرغم من العقبات والصعوبات الكأداء التي واجهت اللجنة ، مما يمكن أن يساعد على وقف هذا الاستنزاف من الموارد الاقتصادية والبشرية والمعنوية ، ويجنب المنطقة دورة أخرى من العنف والعنف المضاد ، فتدمير لبنان يعني تدميراً لصيغة تعايش في مجتمع تعددي ، لبنان مثاله ، لكنه ليس المثال الوحيد .

وفي السياسة الخارجية ـ كما استقر عليه علم السياسة ـ هناك حوافز وعقوبات . الحوافز هنا أن يذوق اللبنانيون ولبنان الرحمة والأمان ، والعقوبات أن يظل الاقتتال في لبنان سجالاً ينزف فيه لبنان وتنزف فيه الأمة العربية ويعرض الأمن القومي العربي للخطر الأكيد .

يبدأ بلبنان ولا ينتهي فيه !

الحوار هو أحد الأبواب الرئيسية الذي يمكن أن يذوق لبنان من خلاله الرحمة .

فوجوب التحاور عند الاختلاف أحد المحاور الرئيسية المطروحة في عالمنا المعاصر ، والمطلوبة بخاصة في وطننا العربي ، والحوار على الاختلاف يبدأ بلبنان ولا ينتهي فيه ، سواء كان هذا الاختلاف مذهبياً أو طائفياً أو غير ذلك . وسيظل التحاور عند الاختلاف هو إحدى القضايا التي يتوجب علينا جميعاً أن نواجهها في السنوات القليلة القادمة .

■ سقوط لبنان "الوطن" لا يعوضه أي شيء وتمزيقه لا يبرر تحت أي ظرف

إن سقوط لبنان « الوطن » لا يعوضه شيء ، ولا يُبرر تحت أي ظرف أن يقوم أبناء الوطن الواحد بتدمير وطنهم ، بسبب عطب في نظامه السياسي ، فتلك جاهلية كبرى ، وذلك هو نتاج التجربة اللبنانية التي

نرى أثرها في عيون جميع المشردين اللبنانيين الذين يقول لسان حالهم عن القوى الكبرى - بعد تجربة مريرة - « إن رضوا عنك ما أفادوك وإن غضبوا عليك ما أضروك » . ولم يبق إلا الخيار العربي والجهد العربي ، فكانت اللجنة السداسية التي كونت رأيا عربيا ضاغطا باتجاه تحريك الموضوع اللبناني . لقد قال لي أحد اللبنانيين الخبراء ، وهو أستاذ في العلوم السياسية ، راقب عمل اللجنة العربية عن كثب : إن صباح الأحمد يريد اختصار المراحل من أجل وفاق اللبنانيين ، فهو مرن ، منفتح ، طبيعي ، صادق ، وما الهجوم على اللجنة وعلى حركتها السريعة من بعض الأطراف إلا دليل على أن الدواء العربي الذي يقدمه رئيسها هو الدواء الناجع .

إن نجاح اللجنة السداسية نجاح للعمل العربي المشترك الموحد ، وقد كان فشلها - لا سمح الله - سيؤدي الى نتائج وخيمة ، ربما لا تقتصر على لبنان وحده ، لكنها ستؤثر حتما حتى على الانجازات السياسية التي تم تحقيقها على صعيد القضية الفلسطينية .

لقد حققت اللجنة السداسية هدفا مهما ، هو وضع الإشكال اللبناني على جدول الأعمال العربي ، ثم العالمي ، بعد أن كان الجميع ينظرون الى اقتتال الإخوة هناك نظرة لا مبالية باردة . وأعطت اللبنانيين أملا كبيرا في تحقيق الوفاق في الأيام القادمة ، والمطلوب الآن أن يقوم اللبنانيون بإعادة اكتشاف أنفسهم ، وعليهم قبل كل شيء أن يجروا عملية نقد ذاتي ، بدلا من توجيه النقد الى الآخرين ، أو نقد بعضهم بعضا .

المستجدات اللبنانية :

مفردات الأزمة اللبنانية - بتاريخها الحديث والقديم - موضوع معاد ، فمنذ الحرب الأهلية في منتصف القرن الماضي تقريبا (حرب ١٨٤٠ - ١٨٦٠) ، مرورا بالاستقلال والميثاق الوطني ولبنان الكبير ، وعطفا على التدخلات الفرنسية والبريطانية والامريكية و « الاسرائيلية » أخيرا ، وكذلك المداخلات الاقليمية ، كل ذلك مكتوب وموثق ، شبع من قرأ عن لبنان أو اهتم بتاريخه من متابعة تفاصيله ، إلا أن مستجدات الساحة اللبنانية هي الأهم والأكثر لفتا للأنظار ، وهذه المستجدات لا تبدأ - كما يعتقد بعضهم - بحادث « الباص » الأشهر في ابريل ١٩٧٥ ، فلقد فوجيء الكثيرون بهذا الحادث ، وما تلاه من تفجر لأزمة تداخلت فيها قوى كثيرة . ولكن بذور الأزمة كانت أقدم من ذلك .



■ افتقاد فضيلة الحوار بين القوى الاجتماعية يدفع بالأوطان الى الهاوية

صحيح أن الأسباب المباشرة لتفجر الحرب الأهلية كانت ذاك الحادث ، وصحيح أن هناك عوامل إقليمية (خارجية) ، ساعدت على هذا التفجر ، إلا أن الصحيح أيضا أن هناك عوامل داخلية ، لو لم تكن موجودة ، لما حدث ما حدث في لبنان ، أو على الأقل لما حدث بهذا العنف الشرس ، ولما استمر كل هذا الزمن الطويل . إن العوامل الداخلية الرئيسية التي أدت الى الانفجار تتمثل في قصور النظام السياسي اللبناني للتواؤم مع المستجدات الاجتماعية في لبنان ، في بلاد تتكون من سبع عشرة طائفة ،سبع منها رئيسية ، يتراوح تمثيلها النسبي بين ٢٩٪ الى ٤٪ من مجموع السكان (تقريبا) .

لقد كان قصور ذاك النظام السياسي عن احتواء المتغيرات والمستجدات ، والمواءمة بين القديم والجديد ، محط تحذير لكثير من العالمين ببواطن الأمور من الكتّاب ، ولقد كان كتّاب مثل : وجيه كوثراني ، ايليا حريق ، غسان سلامة ، مهدي عامل ، (د . حسن حمدان) ، وآخرين في قائمة طويلة ، لهم السبق في التحذير ، وكانت قراءاتهم لواقع ما كان عليه لبنان تدعوهم لدق ناقوس الخطر ، والتحذير من الانفجار القادم ، دون جدوى حقيقية . وما زال كثير منا لا يقرأ ، وقليل من القراء لدينا يفهمون . واحد من الذين كتبوا بتوسع عن هذا الموضوع هو مايكل هدسون ، أستاذ العلوم السياسية في جامعة جورج تاون في واشنطن الذي أصدر دراسة قبل عشر سنوات من الانفجار المروع تقريبا (١٩٦٨ م) ، وسماها (لبنان : الجمهورية الهشة) *

فقد لاحظ هدسون أن النظام السياسي في لبنان ينطوي على تعدد غير صحي من اصحاب الأدوار السياسية (أكثر من رأس)، في غياب الرأس القادر على السيطرة على النظام ككل، بمعنى غياب السلطة الشرعية التي تستطيع أن تفرض الرأي النهائي، إن قام خلاف حاد بين الاطراف المعنية فيه، بوسائل فعالة، وتكون قراراتها مقبولة لمعظم الفئات. لقد كان للبنان نظام متعدد الرؤوس، كما لاحظ الكاتب، وذكر ايضا أن النظام السياسي اللبناني كان في حالة ركود، ولا يستوعب التطورات الاقتصادية والاجتماعية الجارية والمشاهدة، ونبه الى خطورة هذا النوع من عدم التوازن، حيث تبرز قوى اجتماعية جديدة، لا تجد لها تعبيراً سياسياً مناسباً داخل النظام، والنتيجة المنطقية لوضع كهذا أن

* Michal Hudson, The Precarious Republic, Political Modernization in Lebanon, New York, 1968.

■ «أكلة الجبنة» الذين أجادوا التقاط الكستناء من النار بأصابع غيرهم

يتحول العمل السياسي الى مجموعات لا حصر لها من الضغوط، والضغوط المضادة، يؤدي استمرارها الى صراعات حادة تقود بعد ذلك للجوء الى القوة، وهكذا كان. ولم يكن مايكل هدسون وحده هو الذي توصل الى هذا التحليل، بل سبقه ولحقه بجانب من ذكرناهم آنفاً كتّاب مثل: حليم بركات، وعصام نعمان، وموريس الجميل، وفؤاد خوري، وآخرون من قائمة طويلة من الكتّاب والمثقفين اللبنانيين الذين لاحظوا تزايد ضعف حس المواطن اللبناني بالدولة، والهروب المتزايد من العمل السياسي الحديث في دولة مؤسسات، الى اللجوء لأحضان الطائفية والاقطاع السياسي. وحذروا بشدة من تجاهل الإصلاح السياسي والاجتماعي اكثر من اللازم، حتى لا تفوت الفرص!

هذا التلكؤ السياسي اللبناني، في ظل من ساهم الرئيس فؤاد شهاب (بأكلة الجبنة) من السياسيين التقليديين الذين أجادوا اخراج الكستناء من النار بأصابع الآخرين - كما يقول المثل الفرنسي - وفي ظل صيغة خاطئة للوفاق الوطني، كل ذلك قاد داخلياً الى هذا التفجر وهذا الاقتتال، وسيظل هذا القصور في النظام السياسي قائماً ماظلت فكرة سيطرة طائفة على بلد لا تأخذ في حسبانها مشاركة الطوائف الاخرى لها مشاركة حقيقية في السلطة والثروة ، أي أن فكرة العدالة الاجتماعية لا تنحصر في التوزيع (المادي) للثروة وإنما تمتد الى التوزيع (المعنوي) للسلطة ، أو بالأحرى مشاركة المواطنين على اختلافهم، لكونهم مواطنين لا غير في خيرات الوطن وفي إدارته .

ولكن المأزق الذي يواجهه اللبنانيون اليوم - بكل طوائفهم - هو حقيقة بسيطة ، مفادها أنه بعد كل هذا الاقتتال فإن الرصاص والقنابل والتفجيرات في النهاية لا تأتي بحل مرض، بل قد تأتي بحل قاهر، لكنه ليس مرضياً، وقد تقبله بعض الأطراف الآن اضطراراً، ثم ينقلب الأمر إلى ضده اذا توافرت ظروف أخرى ، وصفحات الحرب الاهلية اللبنانية، عندما تكتب بوعي، تشير الى النتيجة المنطقية الوحيدة، وهي أن هذا الشعب شعب واحد، وليس شعبين أو أكثر، ومصالحه واحدة، وان الوطن ضرورة، والطريق اليه هو الحوار، وإن قيل: إن تجربة التفاوض والتحاور لم تجد على الرغم من تكرارها، فالقول الأصح أنه حتى الحرب بالقصف المدفعي المتبادل لم تجد، على الرغم من تكرارها مرات كثيرة،



لذلك فالصبر في التحاور أفضل من الصبر على القنابل وتحطيم الوطن، فعلى اللبنانيين، بدلاً من لوم الآخرين، أن ينظروا في المرآة ليروا أنفسهم.

إدارة الأزمـــــة :

لا يبدو أن الخلاف ذو بون واسع بين فئات اللبنانيين اليوم، فخطوات الإصلاح السياسي، واستيعاب المستجدات الاجتماعية، وإكمال المؤسسات الشرعية، كانتخاب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس النواب وتعيين مجلس وزراء موحد، خطوات يبدو أن الجميع متفقون عليها من حيث المبدأ، ويكاد يجمع اللبنانيون على عدم العودة الى النظام القديم، فذلك يجب إصلاحه وتطويره، ولكن يبدو أن الخلاف هو على الاجابة عن سؤال (كيف، ومتى)، أي: كيف يحدث التطوير؟ ومتى؟

هناك بعض القلة من اللبنانيين الذين يرون أن النظام اللبناني السابق عادل ومعقول ولا داعي لتغييره، وهناك قلة أخرى، على الطرف الآخر، لا تطالب بتغيير النظام فحسب، بل بتغيير جوهر الصيغة أيضاً، إلا أن الأكثرية اللبنانية ترى أن التطوير مطلب ضروري للبنانيين، وقضية حتمية دون المساس بالصيغة، وبما أن الاختلاف على علة النظام واسع وشامل، فإن الاختلاف على وصف الدواء الناجع أيضاً واسع وشامل.

وتستوقفنا ثلاث محطات رئيسية في محاولات التطوير وحل الأزمة خلال الأربعة عشر عاما الماضية، وقد بحثت بالتفصيل بعض هذه المحطات في كتابات موسعة، لعل أشهرها ماكتبه غسان سلامة بهذا الخصوص. المحطة الأولى هي الوثيقة الدستورية سنة ١٩٧٦، وهي وثيقة تؤدي الى توافق الطوائف اللبنانية، فهي تكرس الرئاسات الثلاث: رئاسة الجمهورية لماروني، ورئاسة الوزراء لمسلم سني، ورئاسة مجلس النواب لمسلم شيعي، مع مناصفة في مقاعد مجلس النواب (الذي يتكون بنسبة ٦:٥ في النظام القديم لصالح المسيحيين) وكذلك انتخاب رئيس مجلس الوزراء من قبل المجلس النيابي، مع مجموعة من الخطوات الفرعية الأخرى التي تقود إلى إصلاح النظام.

■ في عقد التسعينيات مطلوب من العرب إيجاد حلول سلمية للتعددية الاجتماعية

المحطة الثانية في محاولات الوفاق الوطني اللبناني التي حدثت بعد ذلك بعشر سنوات تقريبا (١٩٨٥)، وقد سميت « الاتفاق الثلاثي » ووقّع عليه قادة ثلاث (ميليشيات) : الدروز، الشيعة، الموارنة، وقد مثل هذا الاتفاق الثلاثي طموحا أكبر من الوثيقة الدستورية، وهو في جوهره

يحاول أن يستبدل الصيغة الطائفية لصالح صيغة وطنية أكثر شمولا.

إلا أن كلا المحاولتين قد سقطتا، كل لأسباب مختلفة، والنتيجة المحزنة أنه بدءا من نهاية العام الماضي قد فرغت المؤسسات السياسية اللبنانية من رؤوس منتخبة شرعية، بدءا من رئيس الجمهورية، وانتهاء برئيس مجلس النواب - نظرا لاستيفائهما الفترة الشرعية الدستورية لانتخابهما - مروراً بوجود حكومتين، كل تدعي شرعيتها بشكل من الأشكال. وهكذا سقط لبنان في فراغ دستوري.

الفرصة الأخيرة:

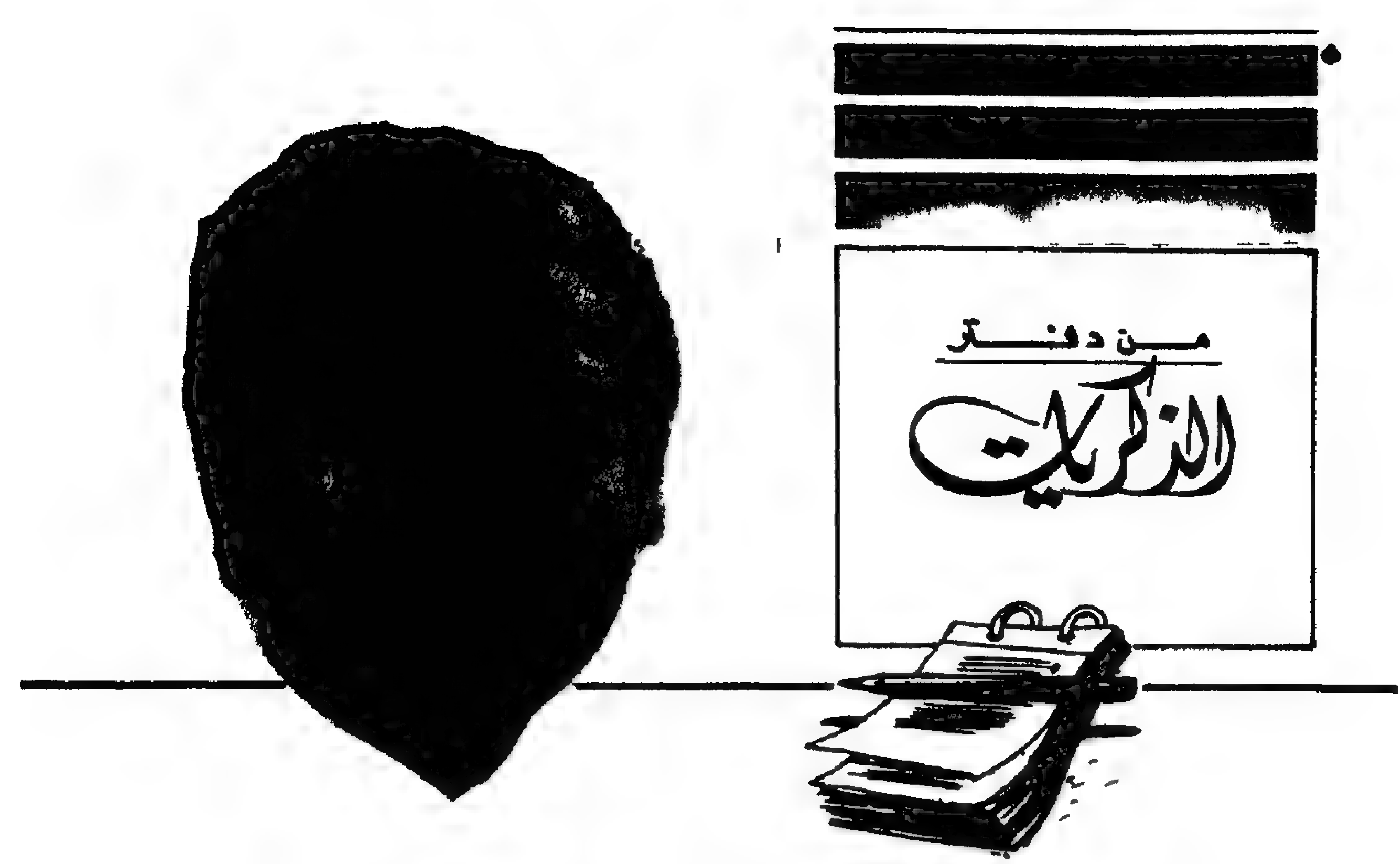
أما المحطة الأخيرة للاصلاح وحل الأزمة فهي الجهود المبذولة في الأشهر الأخيرة من قبل اللجنة السداسية التي ما زالت في طور الانضاج والإثمار.

إن مقاومة الحل الوفاقي في لبنان اليوم مقاومة متعددة الأطراف والأشكال، فهي ليست بالسلاح فقط، بل إن هناك نوعين بارزين منها على الأقل، تتقاطع بينهما الخطوط: الأولى تتمثل في أن الحرب الأهلية قد أصبحت نظاماً في لبنان، له كل خصائص النظام وآلياته، فمن ولد عند انفجارها أشرف اليوم على الخامسة عشر من عمره، ومن كان ذا عشر سنوات أصبح في ريعان شبابه، وقد خلقت تلك الحرب الأهلية قواعدها وأنظمتها، كما قاوم (نظام) الحرب الأهلية مقاوميه بالعنف تارة، وبالحيلة تارة، وبالسياسة تارة ثالثة، أما المقاومة الثانية للحل الوفاقي التي خلقتها الحرب الأهلية فهي مقاومة بعض النفوس والعقول في لبنان لتسوية سياسية.

ولكن بعد كشف أوراق هاتين (المقاومتين) واستنفادها، فإن على اللبنانيين والعرب الآخرين التعامل معهما من منطلق المصالح البعيدة لا الآنية والتي تحقق ملء الفراغ الدستوري والمصالحة الوطنية بين اللبنانيين. وذاك مطلب لبناني وعربي، وهو مطلب لو تعرفون كبير في ظل ظروف الحرب والنزاع، وهو مطلب كان الشغل الشاغل للجنة السداسية، فجاءت قراراتها مؤكدة وحاضة عليه.

بقي أن يدفع كل المخلصين هذه الخطوات إلى الأمام قبل أن تضيع الفرصة الأخيرة □

محمد الرميحي



(الحياة مجموعة من الخبرات المتنوعة ، وليس بالضرورة أن تتشابه وتتكرر ، إنما كثير من الخبرات منفردة تضيف معنى جديدا للحياة ، وتعطيها لذة التراكم ، وقد اختارت العربي مجموعة من المتميزين العرب ليروي كل بطريقته الخاصة بعضا من ذكرياته التي أصبحت دروسا في الحياة) .

جَدُّ حَسْنة.. وَأنا..!

بقلم : حميد سعيد*

بدأت منذ سني الصبا تكوين مكتبتي الخاصة ، وفي البدء اتخذت من صندوق خشبي من موروثات العائلة ، مكانا لها . وحين ضاق الصندوق بمقتنياتي من الكتب ، اتخذت من رفوف جدارية ـ تسمّى باللهجة العراقية « الدارجة » و « الرازونة » ـ مكانا لكتبي . وكان ذلك في بيت والدي بمدينة الحلة .

في أواخر الخمسينيات اقتنيت أول مكتبة خشبية ، كانت متوسطة الحجم ، استوعبت الجديد من كتبي ، حتى إذا ضاقت بها جمعت القديم منها والأقل أهمية في صناديق من الورق المقوّى .

منذ عام ١٩٦٤ ، حيث غادرت مدينة الحلة ، وإلى بدايات عام ١٩٦٩ ، حيث تزوّجت ، تنقّلت بين عدد من المدن العراقية ، وأقمت في بيوت الطلاب والشقق والفنادق .

وفي هذه السنوات ، عرفت العسر وعدم الاستقرار ، لكن لم أنقطع عن شراء الإصدارات الجديدة والاحتفاظ بها في المكتبة نفسها الموجودة في بيت العائلة بمدينة الحلة ، وبمرور الأيام كبرت المكتبة واغتنت وتميّزت بالتنوع .

* شاعر ، ورئيس تحرير صحيفة الثورة اليومية العراقية ، الأمين العام لاتحاد الكتاب والأدباء العرب

حين تزوّجت وفتحت بيتي في بغداد، طلبت مني والدتي ـ رحمها الله ـ أن تبقى المكتبة في مكانها، فاستجبت لطلبها، ولم آخذ منها إلا عددا قليلا من الكتب، أذكر منها «سيرة ابن هشام»، و«صحيح الامام مالك»، و«خطط المقريزي»، و«حماسة أبي تمام»، وديواني «المتنبي» و«جرير»، ورواية «الساعة الخامسة والعشرون»، وبعض دواوين الشعر العربي الحديث.

إن المكتبة التي أتحدث عنها، ما زالت في بيت والدي، على الرغم من أن شقيقا لي مختصا بالأدب الأندلسي، أنشأ مكتبته الخاصة في البيت نفسه، إلا أنه حرص أيضا على عدم تداخل المكتبتين.

ربما لأنني نشأت في بيت لا علاقة له بالكتاب، صار حرصي على الكتب لا حدود له، ولا أتردد عن أن أقول: إنه حرص الجشع والبخيل.

ويشهد الله أنني في سوى الكتاب على العكس تماما.

في أيام زواجي الأولى، بدأت بتكوين مكتبة جديدة، وكان من النادر أن أدخل البيت دون أن أحمل كتابا أو رزمة من الكتب.

في تلك الأيام كانت تعيش معنا طفلة يتيمة، في الثامنة من العمر، على قدر غير قليل من الذكاء، وهي من أسرة ريفية، تمت إلى زوجتي بصلة الرحم

كنت ألاحظ عليها الجفوة في علاقتها معي، على الرغم من كل ما أبديه تجاهها من محبة وعطف. وأحس بامتعاضها من كتبي ومكتبتي، بل ومن أصدقائي الذين أستقبلهم في غرفة المكتبة.

ولأنني لا أعرف التبضع، ولأنني كنت باستمرار أعتمد على عائلتي في إيجاد ما أحتاجه، فقد استمر هذا الوضع بعد الزواج، واعتمدت ثانية على والد زوجتي في جلب ما يحتاجه البيت من طعام أو غير ذلك من الأشياء.

في مساء صيف بغدادي، انتبهت إلى زوجتي وهي تتكتم على ضحكة كلما نظرت إلى الطفلة، فما كان لي إلا أن أسألها عما يضحكها، فقالت: إن «حسنة» ـ وهذا هو اسم الطفلة ـ تعتبرني سيئة الحظ بزواجي منك، وقد قالت لي: لماذا لم يرزقك الله زوجا مثل جدي الذي لا يأتي إلينا إلا ومعه خير وفير مما لذ وطاب؟ أما زوجك فلا يأتي إلا بالكتب والمجلات والصحف، ولا يفعل شيئا سوى تناوله الطعام، ثم ينصرف إلى كتبه وأوراقه.

يومئذ ضحكت إلى حد الضجيج، وقلت وأنا أواصل الضحك: والله إنها على حق، ولن أعترض لو أخذت بنصيحتها!!

مر زمن طويل على هذه الحادثة، فما تغيّرتُ، لكن يبدو لي أنها تركت في نفسي أثرا، فكلما اشتريت كتبا جديدة ـ سواء حين أكون في العراق أو خارجه، أتذكر رأي «حسنة» بي.

ولذلك، وحين يكون رصيدي من الكتب وفيرا، أشعر بالحرج، فأعمد إلى الاحتفاظ بها في صندوق السيارة، ثم أحمل منها رزمة صغيرة كلما دخلت إلى البيت.

إنها لمشكلة حقا، فلقد ضاق البيت وأهل البيت بها، أما أنا فقد ازددت بها شغفاً. □





● الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.

● قال أبوعمرو بن العلاء: خذ الخير من أهله، ودع الشر لأهله.

● أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه.

العلاقة بين الطبقات

«وجهة نظر إسلامية»

بقلم : الدكتور محمد عمارة

من الظواهر المصاحبة للتطور المجتمعي في القرون الثلاثة الأخيرة تعدد الطبقات الاجتماعية ، وتبلور مصالحها ، وتناقضاتها . ومع مرحلة الإحياء الإسلامي المعاصرة يجتهد المفكرون الإسلاميون لاستخلاص رؤ ية إسلامية للطبقات والعلاقات فيما بينها ، مغلبين ـ كما يرى كاتب المقال ـ نظرية التوازن في مقابل نظرية الصراع .

الإسلام : دين الجماعة ، أي الأمة ، تلك خصيصة من خصائص المنهج الإسلامي . وكون الأمة هي الجامعة الأساسية في المنظور الإسلامي لا يعني الإجحاف بحقوق « الفرد » ، ولا الإنكار لوجود « الطبقة » بالمعنى الاجتماعي ـ في إطار « الأمة » ، وإنما هي العلاقات التي أقامتها الوسطية الإسلامية الجامعة بين « الفرد » و« الطبقة » و« الأمة » على نحو فريد .

فالمسئولية ، في الإسلام في كثير من التكاليف ، وفي الحساب والجزاء عليها : مسئولية فردية ، نقل الإسلام بها هذا الفرد من وضع الذوبان الكامل في إطار القبيلة والعشيرة ، لكن هذا الإنسان الفرد هو مدني بالفطرة ، اجتماعي بالطبع ، يستحيل عليه أن يحيا فردا ، وفي حدود النزعة الفردية .

والتكاليف ، هو في الاسلام ،منها الفردي ـ فروض العين ـ ومنها الاجتماعي ـ فروض الكفاية ـ وهي جميعا ينتظمها نسق واحد ، هو نسق التكاليف الدينية ، والرباط بينها عضوي ، حتى ليستحيل على الفرد ـ بسبب من مدنيته واجتماعيته ـ أن ينهض بتكاليفه الفردية ـ فروض العين ـ إذا أصاب الخلل النظام الاجتماعي ، بتخلف الفروض الاجتماعية . فإذا انعدم الأمن في المجتمع أو عز فيه القوت ، فأنَّى للعابد أن يعبد الله ويؤدي فرائضه العينية ؟ . لقد قال الفقهاء : إن صلاة الخائف والجائع لا تصح ، لأن الحضور فيها ـ وهو شرط إقامتها ـ لا يتأتَّى إلا بالأمن الاجتماعي وتوافر الأقوات !

ولقد أصاب الإمام الغزالي عندما حدد الضرورات الاجتماعية التي يستحيل بدون توافرها إقامة الدين ، فقال : « إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا ، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليها إلا : بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات ، من الكسوة ، والمسكن ، والأقوات ، والأمن ، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق هذه المهمات الضرورية . إن نظام الدنيا شرط لنظام الدين » . (الاقتصاد في الاعتقاد) (ص ١٣٥) .

ولذلك ، كانت فروض الكفاية ـ الاجتماعية ـ في

المنهج الإسلامي آكد من فروض العين ـ الفردية ـ للارتباط العضوي بينهما في النسق التكليفي الواحد ، ولترتب التمكن من أداء فروض العين على تحقق فروض الكفاية . لكن تحقق الفروض الاجتماعية لا يغني عن ضرورة الفروض العينية ، لأن مكانة الأمة والجماعة في التصور الإسلامي لا تلغي دور الفرد ومكانته ، فالمسئولية والتكليف والحساب والجزاء فردي ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ـ في التكاليف الفردية ـ لكن البلوى الاجتماعية إذا عمت طالت من لا يد له فيها .

ولذلك دعانا الله الى اتقاء الفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا دون سواهم . ! إن النهوض بالمسئوليات والتكاليف الفردية هو السبيل الى إقامة التكاليف الاجتماعية ، كما أن إقامة التكاليف الاجتماعية هو الذي يهيء للفرد الوفاء بحقوق تكاليفه العينية . وهذا الترابط بينهما هو التعبير عن ارتباط الفرد بالأمة في منهج الإسلام .

الأمة كيان جامع

وفي ضوء هذه الحقيقة نقرأ صياغتها عند « الماوردي » (٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ) (٩٧٤ ـ ١٠٥٨م) عندما يقول : « . . واعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين :

أولهما : ما ينتظم به أمور جملتها . .

والثاني : ما يصلح به حال كل واحد من أهلها . . فهما شيئان لاصلاح لأحدهما إلا بصاحبه ، لأن من صلحت حاله ، مع فساد الدنيا ، واختلال أمورها ، لن يعدم أن يتعدى إليه فسادها ، ويقدح فيه اختلالها ، لأنه منها يستمد ، ولها يستعد . ومن فسدت حاله ، مع صلاح الدنيا ، وانتظام أمورها ، لم يجد لصلاحها لذة ، ولا لاستقامتها أثرا ، لأن الإنسان دنيا نفسه ، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له ، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه ، لأن نفسه أخص ، وحاله أمسّ ، فصار نظره الى ما يخصه مصروفا ، وفكره على ما يمسّه موقوفا . . » («أدب الدنيا والدين» ص ١٣٤ ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م) .

فالفرد هو نقطة البدء ، وهو بواسطة الأسرة والعشيرة ، يغدو لبنة في كيان الأمة . ولا مكان للفردية المغالية في المنهج الإسلامي لأن صلاح اللبنة موقوف على كونها جزءا من البناء الكبير .

والأمة في التصور الإسلامي ، ليست مجرد جمع « كميّ » يساوي عدد الأفراد فيها ، وإنما هي كيان جامع . له حالة « كيفية » جديدة تفوق كيفيات وقدرات أفرادها متفرقين . . إنها كيان متميز له ماليس للأفراد المتناثرين . . إن الخيوط المتفرقة ليست لها القوة المتحصلة منها ذاتها إذا هي اجتمعت . . وقطرات الماء المتفرقة لا تُحدث الري الذي تحدثه عند الاجتماع . . والأفراد المتفرقون ليست لهم حصافة الرأي ورجاحة العقل وكياسة النظر التي تتأتى لهم بشورى الاجتماع . . ولذلك لم يمنع جواز الضلال على كل فرد من أفراد الأمة ، أن تكون لهذه الأمة العصمة عند الاجتماع والإجماع . . ويشهد على هذه الحقيقة الموضوعية حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إن الله وعدني في أمتي وأجارهم من ثلاث : لا يعمهم بسنة ، ولا يستأصلهم عدو ، ولا يجمعهم على ضلالة » ـ رواه الدارمي ـ .

فللأمة ، في الإسلام ، مقام فريد ، يعلو بها عن مجرد الجمع العددي والتراكم « الكمّي » لما لدى أفرادها وآحادها .

ولقد أبصر « الماوردي » ـ وهو يتحدث عن مذاهب الأمم في « الشورى » كيف أن الحضارات التي مالت كفتها لحساب « الفرد » قد حبذت « الشورى الفردية » ، بينما حبذت الحضارات التي مالت كفتها لحساب المجموع « شورى الاجتماع » . . ثم أضاف الجديد التي تميزت به حضارة الاسلام وشوراه ، عندما جمعت بين الاثنين ـ الفرد والمجموع ـ فقال إن مذهب الاسلام في « الشورى » هو الجمع بين « شورى الفرد » و « شورى الاجتماع » . . فحيث تكون القضايا مما تحتاج الى الاجتهاد وإعمال الفكر واستنباط الأدلة ، تكون شورى الانفراد لأنها شورى الاجتهاد . . وحيث يكون المراد هو الكشف عن ثمرات الاجتهاد الفردي ، فإن الاجتماع والمواجهة ـ شورى الاجتماع ـ تكون هي السبيل القويم ـ (أدب الدنيا والدين) ـ ص ٢٩٣ ـ فالارتباط بين الفرد والمجموع

كان جمع الشورى الإسلامية بين نمطي شوراهما جميعا .

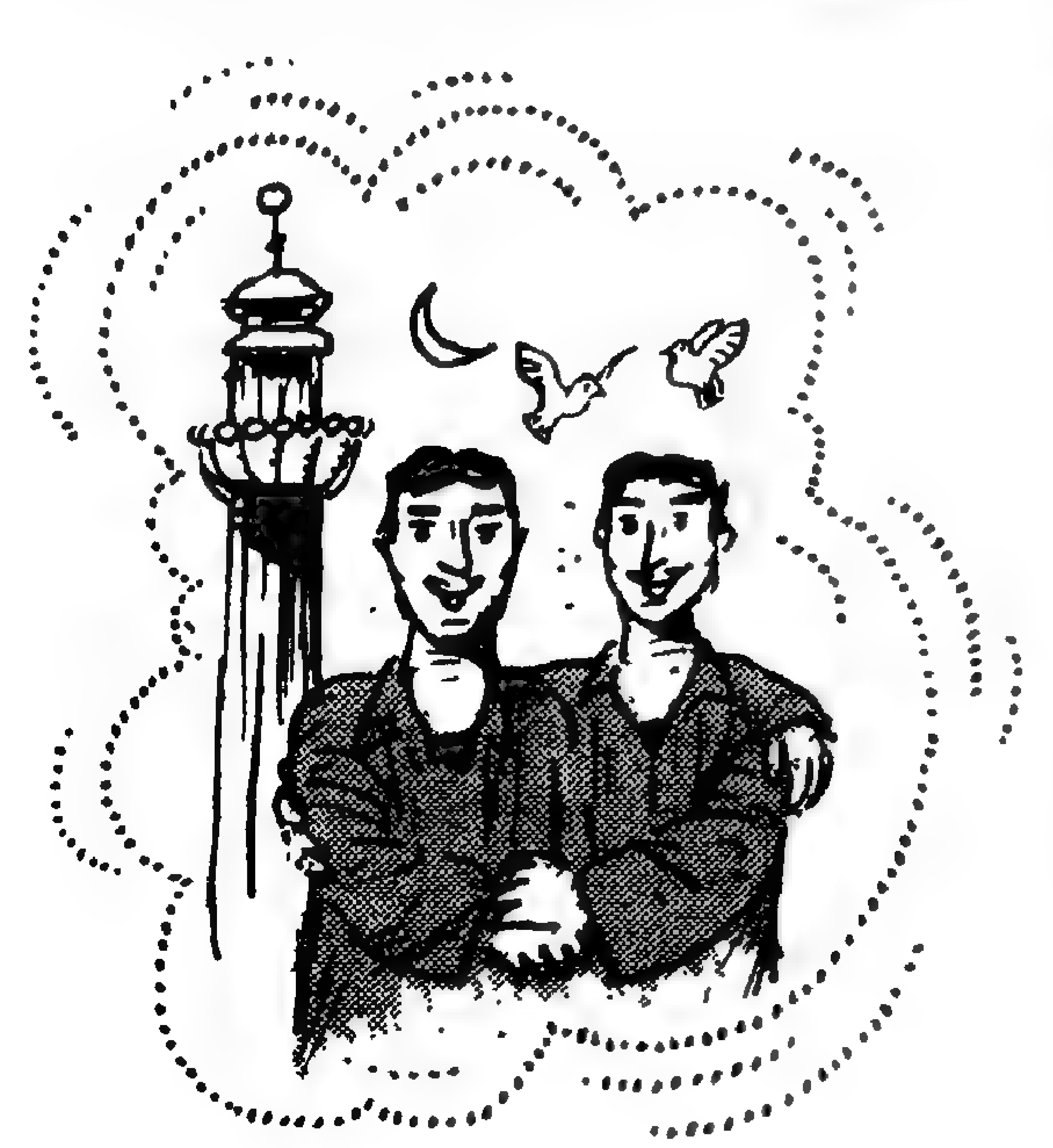
التوازن بين الطبقات

وكما أن دار الإسلام تتألف من أوطان وأقاليم يجمعها جامع الإسلام العقيدة والشريعة والحضارة .. فكذلك أمة الإسلام تتألف من الشعوب والقبائل التي تعارفت بالإسلام ، وعليه ، فغدت أمة الإسلام التي لا تمزق وحدتها التمايزات القومية والعرقية والبيئية ، لأنها تمايزات الواقع الذي لا يناقضه الإسلام ، وإنما يهذبه فينظمه في نسق العقيدة الواحدة والحضارة الواحدة .

وإذا كانت مكانة الفرد في المنهج الإسلامي قد شهدت بتميزها : المسئولية الفردية ، والتكاليف الفردية ـ وإذا كان القرآن الكريم قد أبرز مكانة الأمة (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) ـ الأنبياء : (٩٢) ـ .. (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ـ آل عمران : (١١٠) ـ (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) البقرة : (١٤٣) ـ فإن المنهج الإسلامي لا ينكر وجود « الطبقة » ولا التمايز الطبقي في إطار الأمة وفي داخلها ، فالتفاوت الاجتماعي ، بنظر الاسلام ، حقيقة من حقائق الواقع ، نابعة من تفاوت القدرات والجهد المبذول والذكاء الذي يستخرج الثمرات . والإسلام لا يقفز على حقائق الواقع ولا يتجاهلها ولا يعاديها ، ولكنه يهذبها ويضبطها كي تظل في إطار المشروع ، ونطاق « العدل » ـ الذي لا يعني المساواة ، وإنما يعني « التوازن » بين فرقاء متفاوتين .. التوازن ـ الوسط ـ العدل الذي ينكر الظلم ، ويقترب بالتفاوت الى حيث درجة التوازن ولحظة العدل ، التي يكون فيها التفاوت مؤسسا على ماهو مشروع وطبيعي من العوامل والأسباب .. (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) ـ النحل : (٧١) ـ فإذا تأسس التفاوت الاجتماعي والاقتصادي على ماهو مشروع من الأسباب ، وإذا أحدث هذا التفاوت تمايز الأمة الى طبقات اجتماعية متميزة ، فإن الإسلام لا يرى في وجود الطبقات إخلالا بالأمة كرابطة جامعة لها في منهجه المرتبة العالية ، ولكنه كما أقام علاقات الترابط بين الفرد وبين الأمة ، كذلك يهذب من حدود التفاوت الطبقي ، ويضبط جوحه ويرسم آفاقه ، على النحو الذى يجعل علاقات الطبقات الاجتماعية في لحظة التوازن ودرجته ومستواه .. لأن هذا التوازن الذي يجمع بروابط التساند الطبقات المتعددة ، هو العدل ـ الوسط ـ في منهج الاسلام .

ضوابط الصراع

أما إذا اختل هذا التوازن الاجتماعي بين الطبقات في أمة الإسلام ، فإن الخيوط الجامعة بين الطبقات تخلي مكانها لعوامل التناقض والصراع بين هذه الطبقات ـ وتلك هي الأخرى حقيقة موضوعية ، وواقع اجتماعي لا ينكره المنهج الإسلامي ولا يستنكره .. لكنه يضع ، لهذا الصراع ، الضوابط أيضا ، ويحدد له الغايات والآفاق .. فالهدف منه هو العودة بالعلاقات الطبقية الى درجة التوازن ولحظة العدل ـ الوسط .. وليس الهدف منه ـ كما هو في الحضارة الغربية ـ أن ينفي قطب القطب الآخر تماما ، وأن تلغى طبقة الطبقة النقيض كلية ، وتقتلعها من الوجود .. فهذا المفهوم للصراع الطبقي هو خصيصة غربية . فالبرجوازية سعت الى نفي الاقطاع ، والبروليتاريا سعت وتسعى الى نفي



البرجوازية . وما حديث « الشمولية ـ الشيوعية » عن المجتمع اللاطبقي إلا حديث عن المجتمع الذي تنفرد فيه طبقة واحدة بسلطات الفكر والحكم والمال ، لكنهم يكتشفون ـ وإن لم يعترفوا ـ أن التمايز الطبقي حقيقة موضوعية من حقائق التوازن الاجتماعي ـ أى العدل الاجتماعي ـ وضرورة من ضروراته . . فما ظنوه اقتلاعا للبرجوازية ، لم يكن أكثر من استبدال الطرف الذي يتمتع بامتيازاتها ، فبدلا من الملاك الرأسماليين ، حل « الحزب » و « التكنوقراط » أي « الدولة » التي امتلكت سلطات الفكر والحكم والمال بدلا من ملاكها السابقين . تغيرت الأسماء ، ولم تلغ الطبقية في المجتمع الذي ظنوه لاطبقيا !

لكن الإسلام ، الذي لا يقفز على الواقع ولا يتجاهل حقائقه ـ ومنها التمايز الطبقي النابع من التفاوت الاجتماعي . يجاهد لإبقاء هذا التفاوت في حدود الأسباب المشروعة ، ويعمل على ألا تتجاوز آفاقه لحظة التوازن التي هي درجة العدل ـ الوسط . . فإذا تجاوز هذه الآفاق ، واختل التوازن ، وحل الظلم الاجتماعي محل العدل . . فلا حرج في الإسلام أن يشهد المجتمع صراعا طبقيا ـ بل لقد رآه الإسلام سنة من سنن الله في المجتمعات ، تقود الظواهر الاجتماعية من درجة الخلل ولحظة الظلم الى درجة التوازن ولحظة العدل بين الطبقات . . (وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ الله ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ) البقرة : (٢٥١) . . (أُذِنَ للذينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيْرِ حَقٍ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كثيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصرُهُ ، إنَّ اللهَ لَقوِى عزيزٌ) ـ الحج : (٣٩ ـ ٤٠) « ومن أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد » ـ أخرجه الترمذى عن عبد الله بن عمرو عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

فهذا الدفع والصراع ـ الذي هو سنة من سنن الله في المجتمعات ، هو أداة العودة بالعلاقات ـ إذا هي خرجت من دائرة التمايز المشروع في الرابطة الجامعة الى دائرة التناقضات العدائية والممزقة لجامع الأمة وتضامنها ـ هو أداة العودة بالعلاقات الطبقية من إطار الخلل والظلم الى إطار التوازن والعدل ، لتظل الأمة هي الجامعة ، حاملة رسالة الإسلام ، العقيدة ، والشريعة والحضارة . وليست ـ كما في الحضارة الغربية ـ الطبقة هي حاملة الرسالة ، البرجوازية ـ ورسالتها « الليبرالية ـ الرأسمالية » ، والبروليتاريا ـ ورسالتها « الشمولية ـ الشيوعية » .

وظائف الطبقات ضرورة اجتماعية

هكذا أقام المنهج الإسلامي ، ويقيم العلاقة بين الفرد ، والطبقة ، وبين الطبقات ـ في إطار الأمة ، على النحو الذي يحقق فيه الكل ذاته ورسالته ، عندما يكون التوازن . والعدل ـ الوسط ـ هو ميدان الاجتماع والالتقاء ، فإذا اختل الأمر ، كان الدفع والصراع والجهاد ، لإعادة العلاقات الى صحتها ، ونفي عوامل المرض وجراثيمه منها . وليس لينفى طرف من الأطراف الطرف الآخر ، حالماً بالانفراد والاستغناء . إن الإجتماع والاشتراك ـ الأمة ـ التأليف ـ التساند بين الفرقاء المتميزين ـ هو العدل . . أما الانفراد ـ من الفرد أو من الطبقة ـ في السلطة السياسية أو بسلطان المال . فهو عين الظلم وذات الطغيان . . وصدق الله العظيم حين يقول (كَـلاَّ إِنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى ، أن رآهُ اسْتَغْنَى) العلق : (٦ ، ٧)

إن هناك حدا أدنى للعدل ، لابد وأن يتوافر للفرد : هو الإنصاف في القانون والحكم ، والإنصاف في أمور المعاش ، وفي كتاب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حول القضاء ـ الى أبي موسى الأشعري ، يقول : « وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في : الحكم والقسم (تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢٠٣) هذا هو الحد الأدنى من العدل للفرد الضعيف في منهج الإسلام .

وفي العهد الذى كتبه الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الى واليه على مصر ، « الأشتر النخعي » حديث عن التمايز الطبيعي والواقعي بين طبقات الأمة ، وعن واجب الدولة الإسلامية حيال هذا الواقع الطبقي ، وعن السبيل لإبقاء العلاقات الطبقية في درجة التوازن ولحظة العدل . . يقول

الإمام علي لواليه : « . . واعلم أن الرعية طبقات ، لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها : جنود الله . ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها : قضاة العدل . ومنها : عمال الإنصاف والرفق . ومنها : أهل الجزية والخراج ، من أهل الذمة ومسلمة الناس . ومنها : التجار ، وأهل الصناعات . ومنها الطبقة السفلى ، من ذوي الحاجة والمسكنة ـ أي العاجزون عن الكسب والتحصيل ـ فالجنود حصون الرعية ، وسُبل الأمن . . ثم لاقوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج . . ثم لاقوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب . . ولا قوام لهم جميعا إلا بالتجار وذوي الصناعات » . (نهج البلاغة ص ٣٣٧ ـ طبعة دار الشعب القاهرة) .

فالمطلوب لتحقيق العدل ، ليس الصراع الذي تنفي فيه طبقة بقية الطبقات بزعم أن العدل مرهون بالمجتمع اللاطبقي . . وإنما العدل المطلوب سبيله إقامة التوازن بين الطبقات التي تعد وظائفها ضرورات اجتماعية تحقق للمجتمع ثمرات من الكسب المادي والفكري ، والكسب الحافظ على المجتمع قدرته وحركته ومنعته . . لأن هذه الطبقات ـ كما يقول الإمام علي : ـ « لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض» .

ولعل هذا التساند الطبقي ، والإرتفاق الذي لا غنى عنه بين الطبقات ، لعله أن يكون التفسير الأدق لقول الله سبحانه وتعالى : (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الحياةِ الدُّنيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِياً ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَا يَجْمَعُونَ) ـ الزخرف ـ (٣٢) . . فالتمايز والتفاوت الطبقي ـ والمحدد بأنه درجات ـ هدفه ، وهذا هو المعنى المناسب لـ (سخريا) هو التساند والارتفاق ، وأن تكون كل طبقة هي للأخرى عماد . . وليس المراد سخرة الإستعباد والإذلال ـ التي هي عين الظلم الذي تنزه الله عن فعله وعن إرادته للناس . فالطبيعة وظواهرها قد سخرها الله للإنسان يرتفق بها ، ويستعين على عمارة الأرض وتزيينها . وكذلك التمايز الطبقي ، ضرورة للتساند والإرتفاق ، عندما تكون العلاقات الطبقية في لحظة التوازن ودرجة العدل ، لتكون الأمة ، بأدائها الاجتماعي ، كالفريق ، وكالجسد الواحد ، الذي وإن تكوّن من أعضاء متمايزة ، إلا أن العلاقات والروابط الصحية والصحيحة بين أعضائه المتعددة ، تحقق له أداءً موحدا لجسد واحد ، حتى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ! . .

المال مال الله

ولأن هذه هي « فلسفة الإسلام الاجتماعية » وجدنا القرآن الكريم يجعل « المال مال الله سبحانه وتعالى ، في ذات الوقت الذي يجعله مال الناس ، بحكم خلافتهم فيه عن الله . . فلقد قال خالقه وواهبه لخلفائه فيه : (وَأَنفِقُوا مِمَا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) ـ الحديد (٧) ، فجعل ملكية الرقبة ، الملكية الحقيقة له سبحانه ، وجعل للإنسان فيه ملكية المنفعة ، الملكية المجازية ، المحققة لمقاصد الاستخلاف في هذه الأموال ، وذلك حتى ينفتح الباب ، دائما وأبدا ، أمام حركة الدفع الاجتماعي وأنصار العدل الاجتماعي كي يعيدوا أوضاع الامتلاك والاختصاص والحيازة في الأموال الى درجة التوازن ولحظة العدل التي تنفي الخلل والظلم ، وتحقق مقاصد الاستخلاف . . فإذا غدا المال (دُولَةً بين الأغنياء) جاز ، بل وجب إعادة التوازن بين الفرقاء بتأسيس التفاوت بينهم على المشروع من الأسباب والحلال من الثمرات ، وفي نطاق المستخلفين وجدنا القرآن يضيف مصطلح المال الى ضمير الجمع في سبع وأربعين آية ، والى ضمير الفرد في سبع آيات فلا يتفرد جانب دون الآخر بحق الاستخلاف .

ولنتأمل صنيع عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، مع الصحابي بلال بن الحارث ، و« الإقطاع » الذي أقطعه إياه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لقد سأل بلال الرسول أن يُقطعه أرضا واسعة ، فأقطعها له ـ وكان ذلك سبيلا لإحياء الأرض الموات ، أو زراعة الأرض التي لا صاحب لها ، لكن بلالا حجز هذه الأرض دون أن يزرعها بحجة أنه صاحبها ، يفعل فيها ما يريد . . لكن عمر رأى أن ذلك إخلال بالتوازن والعدل الذي يجب أن

يحكم علاقات الملكية والحيازة في الأموال كي لا تكون دُولةً بين الأغنياء ، يحوزون أكثر مما يطيقون ويحتاجون ، بينما لا يجد الآخرون ما يحتاجون ، فأراد عمر العودة بهذه العلاقة - بين بلال والأرض - من درجة الخلل والظلم الى درجة التوازن والعدل ، وذلك بأن تقتصر حيازته على ما يطيق زراعته ، وأن يعطي الزائد لمن يحييه ويستثمره . . ولما جادل بلال في ذلك ، قسره عليه عمر ، بل وسنّ قانونا ينظم أمر هذه الإقطاعات ، ويضمن إعادة العلاقة بالأموال ، إذا هي اختلت - من درجة الظلم والخلل الى درجة العدل والاتزان .

لنتأمل صنيع عمر هذا من خلال كلمات الحوار الذي دار - عنيفا - بينه وبين بلال بن الحارث ، والذي بدأه عمر ، فقال لبلال :

« إنك استقطعت رسول الله أرضا طويلة عريضة ، فقطعها لك . وإن رسول الله لم يكن يمنع شيئا يسأله . وأنت لا تطيق ما في يدك ! فردّ بلال أجل !

فقال عمر : فانظر ما قويت عليه فأمسكه ، ومالم تقدر عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين .

فرفض بلال قائلا : ، لا . . لا أفعل ! هذا شيء أقطعنيه رسول الله !

فقال عمر : ، إن رسول الله لم يقطعك لتحتجزه عن الناس ، وإنما أقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمارته ، وردّ الباقي !

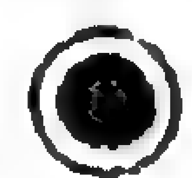
- لا أفعل !

- والله لتفعلن ! . . »

وأخذ عمر من بلال ما عجز عن عمارته فقسّمه بين الناس ، ثم خطب الناس فقال : « من أحيا أرضا ميتة فهي له ، ومن عطل أرضا ثلاث سنين لم يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له . . ! » (الخراج) ليحيى بن آدم - ص ٩١ ، ٩٣ طبعة القاهرة سنة ١٣٧٤هـ . و (الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام - ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

فنحن هنا أمام تطبيق خلّاق لفلسفة الإسلام في استخلاف الناس في الأموال عن الله ، ولتحديد آفاق ملكيتهم وحيازتهم لها بحدود عهد الاستخلاف . . وأمام تجسيد لمذهب الإسلام في الإقرار بالتمايز الاجتماعي والطبقي ، مع الحرص على أن تكون علاقات التمايز طبقيا عند لحظة التوازن والعدل - الوسط - فإذا حدث الخلل والظلم ، عاد المنهج الإسلامي بهذه العلاقات - كما صنع عمر مع بلال بن الحارث - الى درجة التوازن والعدل . . فهو لم يلغ حيازة بلال للأرض إلغاء كاملا ، وإنما وقف بها عند حدود التوازن العادل . . « خذ منها ما قدرت على عمارته ، وردّ الباقي إلينا نقسمه بين المسلمين » .

هنا تنشأ وتصح العلاقات بين الفرد . . والطبقة . . والأمة . . وتظل الوسطية الإسلامية الجامعة المعيار الذي يرشد هذه العلاقات ، ويضمن لها البقاء في درجة التوازن ولحظة العدل . . وصدق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا » . . □



كانت له «صفة» ولكنه «صرفها»:

● وقف الزوج أمام القاضي ليفصل في موضوع طلب الزوجة الطلاق، وأراد القاضي الإصلاح بين الزوجين قبل نظر الدعوى. فقال للزوجة: «لابد أن هناك صفة ما أحببتِها في زوجك من قبل حتى رضيت بالزواج منه؟» وأجابت الزوجة في هدوء:

نعم كانت صفة أعجبت بها ولكنه صرفها كلها .



شعر : يوسف طافش

أنا الآن أطفو على حلمِ الحلم
بين الغيابِ وبين الحضور
لهاثي يؤانسني
ذكريات من الرعبِ
تعلو وتهبطُ
ريحٌ تزمجرُ بين عظامي ولحمي
وحولي طنينٌ خفيٌّ
يجوبُ ضفافَ السكونْ
وددْتُ لو أني أغني
لأسمعَ أصداء صوتي
ولكنّ عرّافتي حذّرتني
لكي لا أموت :

[إذا انهار سقف السماءِ
وأخرجَتِ الأرضُ أوزارها
فاعتصم بالسكوت

لأنّ البلاد مُعبأةٌ بالطواويسِ
مُتخَمَةٌ بسياطِ المرابينَ
مُتخمةٌ بجنونِ الكلامِ
وقمحِ الجياع المُهرَّبِ
ما سوف يأتي يفوقُ الجنونْ
هناكَ على ضفةِ النهرِ
أو آخرِ التلّةِ المُبتغاةِ
سينزاحُ سرُّكَ عن سدرةِ الليلِ
فاعجنْ خلاياك بالصمتِ
كي لا تموتْ
هناك ستعرف سر السكوتْ]

* * *

أنا الآنَ في « أوسط » الجسر والحلمِ
صوتٌ عميق يراودني

من حدود السياج يشد ثيابي
يقول « اتّئدْ
ليس هذا أوان العبورْ
فجنيةُ النهرِ تدعو خطاك
إلى غامضِ الماءِ
كيف ركبتَ خيول الحماسةِ
هل كنت تدري
بأنك رهنُ الهروبْ ؟ »

نسيتُ التعاويذ
عرّافتي علمتني السكوت
فضيعتُ صوتي
كذلك هذا العبور النذيرْ
مراراً تناثر جسمي ثم اجتمعتُ
مراراً كبوتُ
صحوتُ على ظلمةٍ فانتحبتُ

وأغمضت عينيَّ حتى « الفجاءة »
هاأنذ وصلتُ إلى التلةِ المبتغاةِ
على مرفقيَّ زحفتُ
على ركبتيَّ
على رعشةِ الروحِ
أدميتُ وجهي
وجفَّ « الغضار » على شفتيَّ
لأعرفَ سرَّ السكوتْ
فلا شيءَ فوق الصخورِ
يلوحُ سوايَ
« كفزّاعةِ » الانتظارْ
وحيداً وصلتُ
وحيداً أعُدُّ ثواني السقوط
فياليتني قلتُها
ثم متُّ هناكَ
لكي لا أموتْ

« تعاظمت فى السنوات الأخيرة ظاهرة تهريب الثروات من البلدان النامية ومع ازدياد قيمة هذه الثروات وكبر حجمها : بدأ الاقتصاديون والسياسيون يدقون جرس الانذار لخطورة استمرار هذه الحالة .

عن هذه الظاهرة المرضية وأسبابها ومدلولاتها وتفسيرها يلقي هذا المقال أضواء كثيرة ويثير تساؤلات ويقدم إجابات » .



من بلاد الفقراء

بقلم : الدكتور رمزى زكي

كانت نظريات التنمية التقليدية التي سادت في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن ، تزعم أن البلاد النامية التى تتطلع نحو التقدم الاقتصادي والاجتماعي لايمكن أن تقيم تنميتها إلّا بالاعتماد على الموارد الأجنبية المنسابة من البلاد الرأسمالية الغنية ، نظرا لأن الادخار المحلي في هذه البلاد ضئيل متواضع ، ولا يكفي لتمويل برامج الاستثمار الطموحة .

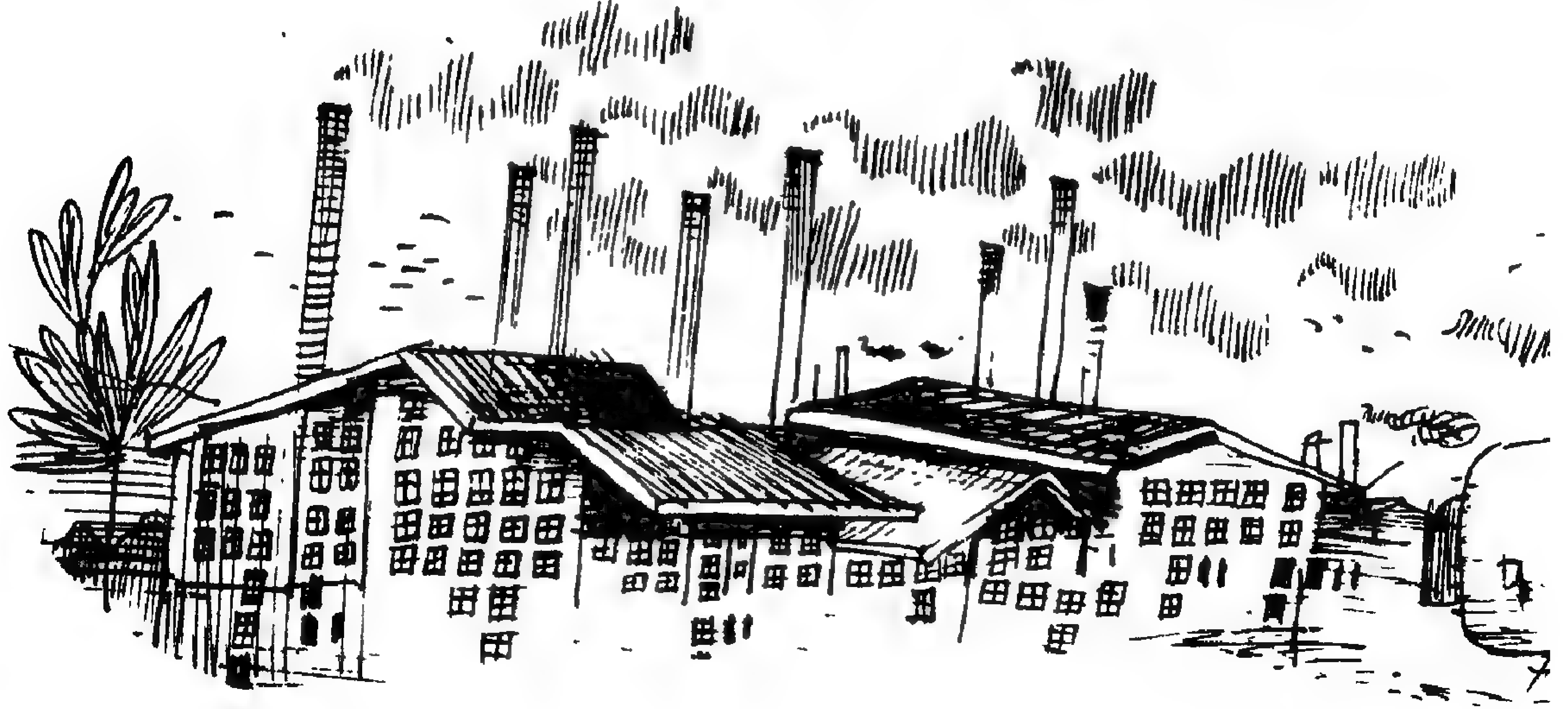
وزعمت هذه النظريات أيضا ، أن أي محاولة لزيادة حجم ومعدلات الادخار المحلية في تلك البلاد إنما تعني الهبوط بمستويات المعيشة نحو حافة العدم . فليس هناك ، في ظل مستوى المعيشة المنخفض للغالبية الساحقة من السكان ، أي فائض إضافي يمكن ادخاره ، فوق مايدخر فعلا . من هنا ، ليس هناك أي أمل لحل معضلة تمويل التنمية إلا باستقبال الموارد الأجنبية ، سواء في شكل قروض أو في شكل استثمارات أجنبية .

في ضوء هذه النظرة ، لم يكن مستغربا أن يعلن اقتصادى بارز ، مثل « بنيامين هيجنز » ، أنه مهما بذلت مجموعة البلاد النامية من جهود في مجال التنمية ، فإن تلك الجهود ستضيع أدراج الرياح ، مالم تعتمد على رأس المال الأجنبي .

ونظرا لطابع الرواج والسيطرة الشديدة التي تمتعت بها هذه النظريات في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد نجحت تلك النظريات في إشاعة هذا الوهم ، الذى وجد ترجمته الفعلية في تزايد اعتماد البلدان النامية على التمويل الأجنبي ، وهو الأمر الذي أفضى في النهاية إلى نشوء أزمة الديون الخارجية ، وتزايد التبعية الخارجية .

وللحق نقول : إن هذا الوهم كان قد تبدد تماما في ضوء التحليل المهم الذي قدمه الاقتصادي الأمريكي «بول باران» في كتابه الشهير «الاقتصاد السياسي للنمو» الذي صدر عام ١٩٥٧ ، فقد ميز «باران» بين ما يسمى الادخار المتحقق actual ، وبين الادخار الممكن potential . فالادخار المتحقق الذى هو عبارة عن الفرق بين الناتج المحلي الإجمالي الذي يتحقق في ظروف اقتصادية واجتماعية وتقنية معينة ، وبين الاستهلاك الجاري ، منخفض وضئيل ، ولاينازع أحد في ذلك . أما الادخار الممكن فهو عبارة عن الفرق بين الناتج المحلي الإجمالي الذي يمكن تحقيقه باستغلال الموارد المتاحة والممكنة أفضل استغلال ممكن ، وبين ما يعد استهلاكا ضروريا ورشيدا . والادخار الممكن بهذا المعنى يفوق بكثير حجم الادخار المتحقق . هذه التفرقة الاستراتيجية التي أجراها باران بين هذين النوعين من الادخار كشفت النقاب عن جوهر مشكلة تمويل التنمية ، مبينا أنها في التحليل الأخير ، مشكلة اجتماعية وسياسية ، وليست مشكلة مالية ، فالفرق بين هذين النوعين من الادخار يعكس مشكلة الفائض الاقتصادي الضائع أو الموارد المهدرة ، مثل الطاقات الانتاجية المعطلة ، والموارد البشرية غير المستخدمة (البطالة) واكتناز الأموال ، والاستهلاك الترفي ، والاستيراد الكمالي ، والإنفاق العام غير الرشيد ، فكل هذه الموارد تمثل ادخارا ممكنا . من هنا يكمن التحدي الرئيسي لحل مشكلة التمويل في تعبئة هذه الموارد المهدرة ، من خلال إجراءات اجتماعية وسياسية فاعلة ، تحول الادخار الممكن إلى ادخار فعلي . وإذا استطاعت البلاد النامية أن تفعل هذا فإن فجوة مواردها المحلية سوف تضيق كثيرا ، وحاجتها للتمويل الخارجي سوف تتضاءل على نحو محسوس .

كانت أفكار باران في الخمسينيات أشبه بالمصباح المنير الذي أنار ظلمات تحليل قضايا التخلف والنمو ، وكان من الممكن لها أن تكون سلاحا قويا في أيدي قادة حركات التحرر الوطني الذين راودتهم الآمال لتحقيق برامج إنمائية طموحة لتنمية القاعدة المادية للإنتاج ، ورفع مستوى المعيشة ، وعلاج مشكلات التركة الاستعمارية ومواريثها (الفقر والمرض والجهل) . ومع ذلك ، ظلت أفكار باران ـ للأسف ـ مهملة ، ولا يتحدث عنها ويدعو إليها إلا قلة من الاقتصاديين والمفكرين الطليعيين

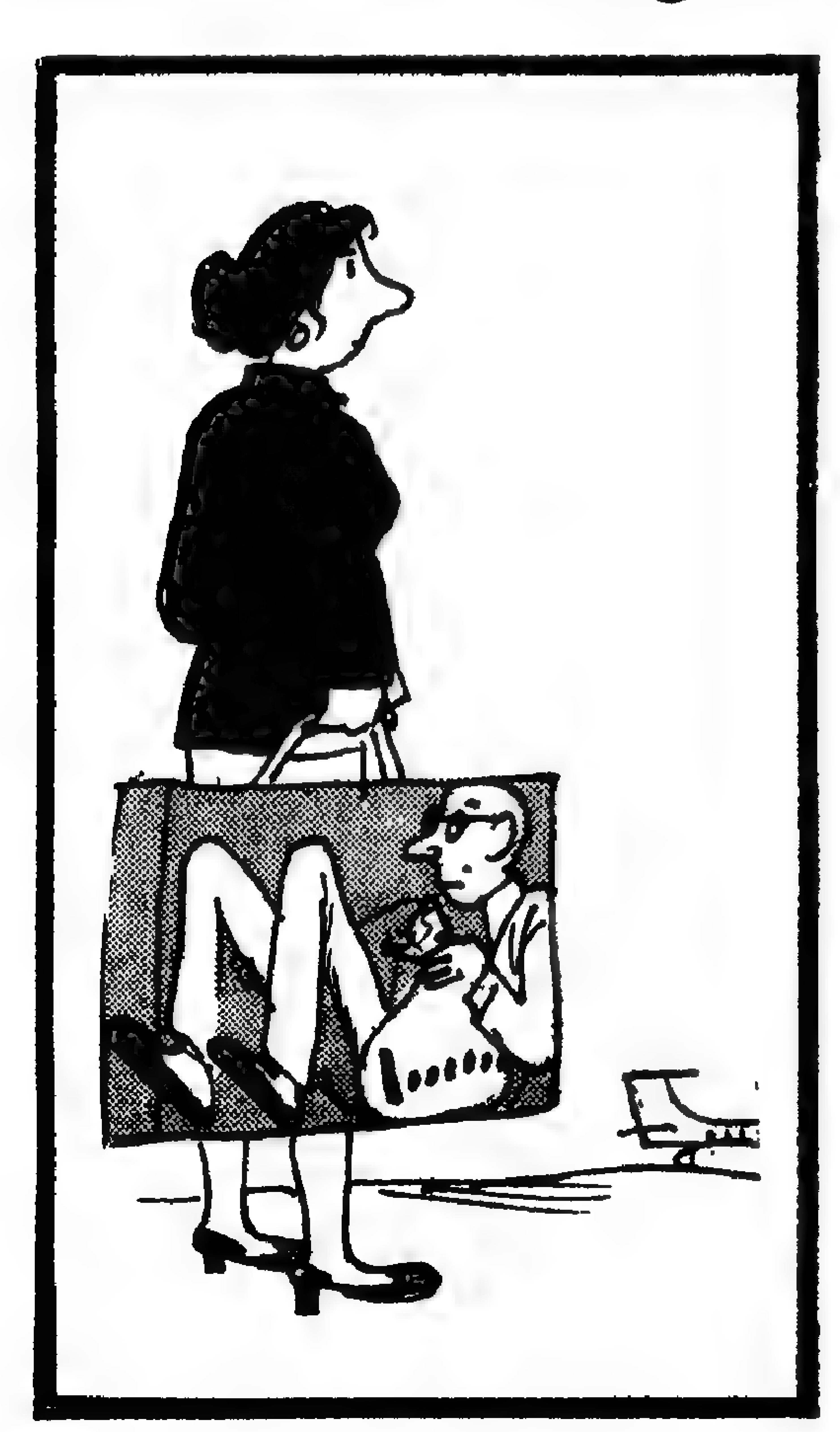


الذين اتخذوا موقف النقد الواعي لترسانة الفكر التنموي التقليدي الغربي الذي افتقر للكفاءة النظرية (في تفسير الواقع) ، وإلى الكفاءة التطبيقية (في تغيير الواقع) ، كما أثبتت أحداث ربع القرن الماضي .

مفارقة صارخة

وتجيء الضجة المثارة الآن حول الأموال الهاربة والمهربة من البلاد النامية المدينة ، لتزيد من القوة التفسيرية لنظرية بول باران ، حول مأزق التنمية في هذه البلاد عموما ، وحول معضلة تمويل هذه التنمية خصوصا . فعلى الرغم مما يشاع بأن هذه البلاد في حاجة ماسة إلى الأموال والقروض والمعونات الأجنبية ، إلا أن الإحصائيات والدراسات التي نشرت في السنوات الأخيرة قد كشفت عن مفارقة صارخة في هذه القضية ، فقد تبين أنه خرج من هذه البلاد كميات هائلة من الأموال التي تودع وتستثمر في الأسواق النقدية الخارجية بأسماء أفراد ينتمون إلى تلك البلاد . وهي أموال من الضخامة ، بحيث لو نسبت إلى مجموع الديون الخارجية للبلاد التي خرجت منها لشكلت نسبة كبيرة جدا ، قد تفوق ١٠٠٪ في بعض هذه البلاد ، كما أن خروجها في حد ذاته يؤثر سلبيا على موازين مدفوعات تلك البلاد ، حيث تزيد العجز الحادث فيها ، وتجعل البلد في حاجة للاقتراض ، لسد هذا العجز . ناهيك عن أن الاقتصاد المحلي الذي خرجت منه يحرم من عوائدها واستثمارها . ولما كان شطر كبير من هذه الأموال يودع بالمصارف الأجنبية بالخارج ، فإن تلك المصارف عادة ما تقوم بإعادة إقراضها للبلاد النامية الفقيرة . وكأن الأمر يعني ، في هذه الحالة ، أن البلد المدين يسمح بخروج الأموال منه ، ثم يعود فيقترض هذه الأموال من الخارج عبر وسيط ثالث ، بتكلفة باهظة . وهذا تناقض غريب ، يبعث على الأسى والحزن على الحالة التي وصلت إليها البلاد النامية في الآونة الراهنة .

وحينما طرحت قضية خروج الأموال من البلاد النامية للاستثمار بالخارج على بساط البحث في المنظمات الدولية ، مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ، وفي أبحاث الخبراء بالدول الرأسمالية الصناعية ، استخدم مصطلح « الأموال الهاربة » للدلالة على هذه الظاهرة . لكن كاتب هذه السطور يصر دائما على ضرورة التفرقة الواضحة بين الأموال الهاربة capital flight وبين الأموال المهربة للخارج smuggle ، نظرا لاختلاف الدلالة التي ينطوي عليها كلا المصطلحين ، ذلك أن المصطلح الأول يشير عادة إلى خروج رؤوس الأموال الخاصة الساخنة Hot



money من البلاد التي لاتوجد فيها رقابة على الصرف ، ويتمتع فيها المقيمون بحرية التحويل ، بحثا عن أفضل عائد وأفضل ضمان بالخارج ، وخروج الأموال الهاربة ـ بهذا المعنى ـ أمر مشروع ، ويتم بسماح الدولة والقوانين (مثال ذلك استثمار بعض مواطني دول الخليج لمدخراتهم في أسواق النقد الدولية) ، أما تهريب الأموال فنقصد به عملية خروج الأموال عن طريق القطاع الخاص والأفراد ، وإيداعها واستثمارها في الخارج ، على الرغم من حظر التحويل الذي تفرضه نظم الرقابة على الصرف . ومن ثم فإن كل مال خرج من الاقتصاد المحلي عن طريق غير رسمي ، وتحظره القوانين يعد تهريبا ، وهو أمر مجرم قانونا ، ويعاقب عليه مرتكبه . وهنا تجدر الإشارة إلى أن معظم الأموال التي خرجت من البلاد المدينة هي من النوع الثاني .

أموال مهربة وليست هاربة

هذه التفرقة المهمة التي نصر على إجرائها بين الأموال الهاربة ، والأموال المهربة مهمة جدا في تفسير الظاهرة ، واستخلاص السياسات المناسبة للتصدي لها ، فإذا كنا نتكلم عن الأموال الهاربة ـ بالمعنى السابق لهذا المصطلح ـ فإن تفسير تلك الظاهرة يعود إلى تفضيلات الأفراد المستثمرين الذين يقارنون بين العائد المتوقع في بلادهم والضمانات المحيطة بالاستثمار ، وبين العائد المحتمل فى الخارج وضماناته ، فإذا كانت نتيجة هذه المقارنة لصالح الاستثمار بالخارج خرجت الأموال ، والعكس صحيح . من هنا ثمة علاقة ارتباط واضحة بين المتغيرات الاقتصادية الداخلية ، مثل سعر الفائدة ،

ومعدل التضخم المحلي ، وسعر الصرف ، ومعدلات الضرائب على الدخول ، وبين خروج الأموال للخارج . ولهذا ، فإن عودة الأموال الهاربة إلى بلادها قد تتطلب التأثير في هذه المتغيرات ، أي زيادة سعر الفائدة ، ومكافحة التضخم ، وتعديل سعر الصرف ، وتخفيض الضرائب على الدخول وعلى رؤوس الأموال .

أما إذا كنا نتحدث عن الأموال المهربة ، فالأمر مختلف تماما ، فليس هناك أي علاقة بينها وبين المتغيرات الاقتصادية الداخلية سالفة الذكر ، وعلى الأخص حينما يكون الأمر متعلقا بالبلاد التي تتبع نظام الرقابة على الصرف ، ذلك أن إمعان النظر في المسألة ، يوضح لنا ، أن ظاهرة تهريب الأموال من هذه البلدان تعود إلى تفشي الرشوة والفساد الإداري ، وعمليات (السمسرة) غير المشروعة ، وإلى خراب الذمم ، وضعف أجهزة الدولة ، وعدم هيبتها ، واستغلال النفوذ والسلطة في تحقيق ثروات هائلة بشكل غير قانوني . ولهذا نحن نعتقد ، أن تلك الأموال والثروات المهربة للخارج التي تحققت بشكل غير مشروع ، لن يمكن اجتذابها مرة أخرى لبلادها ، حتى ولو قام المسئولون في هذه البلاد بفرش الطريق بالورود والمزايا والضمانات لأصحابها .

والسبب في ذلك غاية في البساطة ، وهو أن تلك الأموال تظل دوما في حالة ذعر وخوف لإيمان أصحابها بعدم مشروعيتها ، وبخروجهم على قوانين بلادهم . من هنا فإنها لن تعود مهما قامت حكومات تلك البلاد بتعديل سياستها والتأثير في المتغيرات الاقتصادية الداخلية .

ومهما يكن من أمر ، فإنه نظرا لطابع الحساسية السياسية والاجتماعية لظاهرة تهريب الأموال للخارج ، وما تكشف عنه من رخاوة في أجهزة الدولة ، ومن فساد وتسيب إداريين كبيرين ، فإن هناك ما يشبه الظلام الدامس حولها في البلاد المدينة ، وبخاصة ذات الوضع الحرج . وهذا أمر مفهوم لنا ، وبخاصة لأن عددا من كبار المسئولين في هذه الدول من المتورطين في هذه الظاهرة . والإحصائيات والدراسات المعروفة الآن عن هذه الظاهرة ـ على

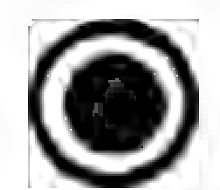
الرغم من ندرتها ومحدوديتها وعدم كمالها - قامت بنشرها المنظمات الاقتصادية الدولية ، وبعض المصارف الأجنبية ، لكي تضغط على الحكومات المدينة لتطبيق المزيد من السياسات « الليبرالية » ، حتى تعود هذه الأموال إلى بلادها .

المشكلة سياسية واجتماعية

ومن المفارقات المدهشة التي تدعو للعجب ، أن يعلم القارىء أن من بين الأسباب القوية التي سهلت ذيوع ظاهرة تهريب الأموال وانتشارها من البلدان الفقيرة المدينة ، هي تلك السياسات « الليبرالية » المفرطة التي فرضت على هذه البلدان من قبل تلك المنظمات ، وعلى الأخص من صندوق النقد الدولي . فمع إلغاء نظام الرقابة على الصرف ، وإلغاء القيود المفروضة على التحويلات الخارجية ، ومع تخفيض سعر الصرف للعملة المحلية واستمرار تدهور هذا السعر ، وفي ضوء تحرير التجارة الخارجية ، والمزايا والضمانات والحوافز السخية (التي تصل أحيانا إلى حد السفه) التي أعطيت للقطاع الخاص المحلي والأجنبي ، وفي ضوء تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تمخضت عن سياسات التكييف والتصحيح (الغلاء ، البطالة ، الركود الاقتصادي ، زيادة التفاوت في توزيع الدخل . .) أصبح المستثمرون من القطاع الخاص ، وأثرياء هذه البلدان ، يفضلون تهريب أموالهم ، واستثمارها بأسمائهم في الخارج ، مستغلين في ذلك جو السماح والانفتاح « والليبرالية » المفرطة التي توفرها سياسات صندوق النقد الدولي . من هنا لا عجب والحال هذه أن تلك الظاهرة أصبحت أمرا مألوفا ، وذات اتجاه متزايد في البلاد ذات المديونية الخارجية الثقيلة التي وقعت في فخ الدائنين وسياسات الصندوق .

ومرة أخرى نعود في النهاية إلى « بول باران » ، لنقول معه ، كما قلنا منذ أكثر من عشرين عاما مضت في كتابنا : مشكلة الادخار في البلاد النامية (القاهرة : ١٩٦٦) : إن مشكلة التمويل في البلاد النامية ليست مشكلة مالية ، وإنما هي مشكلة سياسية اجتماعية في المقام الأول .

وفي ضوء هذا المنطلق ، نعتقد أنه من الأفضل للبلاد النامية ألا تعلق الآمال على احتمالات عودة هذه الأموال ، فهذا أمر صعب المنال ، والأهم من ذلك هو العمل بكل حسم لوقف هذه الظاهرة ، من خلال تطبيق القوانين بصرامة ، وسد كل الثغرات التي ينفذ منها المال المهرب للخارج . بيد أن المطالبة بذلك ، إنما تعني في النهاية المطالبة بتوجه إنمائي جديد ، وبسياسات اقتصادية واجتماعية ، تختلف عما تطبقه حاليا هذه الدول ، ووضع شعار « طهارة اليد والسلوك » موضع التطبيق الحاسم . وهنا بيت القصيد في الموضوع كله . □





● ليس للذين يودعون أموالهم مصرف بورت مورسبي ، من سكان بابوا في غينيا الجديدة ، حسابات مرقمة ، فهم يتخذون لهم أسماء مستعارة من الأسماك والطيور وما شاكل ذلك ، ويصبح العميل معروفا لدى المصرف باسم « سمك المنشار » مثلا ، أو « الهدهد » ، ويحتفظ به سرا له .

يتابع الكاتب رصد تأثيرات « البيريسترويكا » على العلاقات الدولية واحتمالاتها المختلفة التي تبدأ من الاعتماد المتبادل بدلاً من المواجهة إلى استمرار التناقض بين المعسكرين .

مستقبل "البيريسترويكا" وتأثيرها على العلاقات الدولية والإقليمية

بقلم : أمين هويدي

لم تنل « فرقعة » من « الفرقعات » التي تحدث في الكوكب الذى نعيش فيه مثل ما نالت « البيريسترويكا » ، أو إعادة البناء ، من اهتمام ، فقد تناولها الساسة والباحثون والمعاهد المتخصصة بالبحث ومازالوا كذلك ليصلوا إلى تحديد ردود الفعل على كافة المستويات ، حتى تتفق الاستراتيجيات مع المتغيرات . إنهم جميعا يريدون أن يصلوا إلى الحقائق ، حتى « لا يكتفوا برؤية بعض الأشجار ، بل ليروا الغابة كلها » إن إعمال العقل للكشف عن المتغيرات المستقبلية أكثر فائدة وأهم من ترك الأمور للعبة الحظ ، حتى في الحروب التي حددت مسار التاريخ ، فاستخدام الحكمة كان ومازال أهم أضعافا مضاعفة من الشجاعة والإقدام ، كما أن الفكر المبدع الخلاق كان أفضل وأجدى في إحراز الانتصارات من السيف والمدفع .

وكالعادة ، فإن الآراء دائما ما تنقسم عند مواجهة الحدث الجديد فى تفسير حدوثه ، ومدى التغيرات الحقيقية التى يحدثها بعد إزالة البريق الخاطف الذي يصاحبه في أول الأمر ، ثم يكون الخلاف الأكبر في كيفية مواجهته لتطويعه لخدمة الأغراض المرجوة بين المتشددين، أي الصقور والمعتدلين ، أي الحمام .

بعضهم يرى أن « البيريسترويكا » موجهة أساسا إلى الداخل فى الاتحاد السوفيتي والجماعة الاشتراكية . الجبهة الداخلية هي ذات الأهمية الأولى والثانية والثالثة ، أما الجبهة الخارجية فهي غطاء لما يحدث في الداخل ، فالتغيير في الجبهة الخارجية طفيف ، إن لم يكن منعدما . كما يقول الواقع .

استراتيجية صحيحة . . وأساليب متغيرة

« فجورباتشوف » وهو يحاول تهدئة الحرب الباردة وسباق التسلح يقطع ـ وهو محق في ذلك على الأقل بالنسبة للمواجهة المباشرة بين القوتين العظميين ـ بأن مقولة « كارل فون كلاويزفيتز » في كتابه « في الحرب » « بأن الحرب هي استمرار للسياسة بطرق أخرى» قد سقطت إلى الأبد فى ظل التدمير النووي المتبادل بين القوتين العظميين ، هذه حقيقة لا جدال فيها ، ولكن هل يعد هذا تفكيراً جديداً في الصراع الدولى المعاصر ؟

لقد ورد ذلك في أدبيات الاستراتيجية العالمية الغربية والشرقية على حد سواء منذ الخمسينيات . فالمارشال ف . د . سوكولوفسكي في كتابه «حول الاستراتيجية العسكرية السوفيتية» كتب في أواخر الخمسينيات « بأن الإنجازات التي تمت في الاتحاد السوفيتي أوصلت الغرب إلى أن يختار بين الاستسلام الناجم عن استحالة استخدام الأسلحة النووية وبين الفناء في حالة استخدامها ، وجعلته يفكر في حل وسط عن طريق تقييد الحروب الذرية الشاملة لتصبح حروبا ذرية محدودة ، وأخذت القيادات العسكرية الأمريكية تتخبط بين الردع المرن ، والرد المتدرج ، والحروب الوقائية .

ولكن من يضمن أنها ستستمر مقيدة من الجانب الآخر ؟ إن الاستراتيجية السوفيتية المعاصرة تبنى على مفاهيم « انجلز ولينين » ، وهي مازالت صالحة حتى في العصر النووي ، فقد ركز لينين على أن الحرب جزء من كل ، وهذا الكل هو السياسة . والحرب إذن امتداد للسياسة بوسائل العنف ، والعنف هو مجرد عمل سياسي : ومعنى ذلك أن الحرب ليست مرادفة للسياسة ، وأن السياسة يمكنها استخدام وسائل أخرى غير العنف لتحقيق أهدافها دون اللجوء إلى الحرب» . ويستطرد قائلا : « يعادي الاتحاد السوفيتي كافة الحروب العدوانية ، ويقف إلى جوار كل نضال مقدس للشعوب المغلوبة على أمرها مع استبعاد الحروب النووية وسعيه الدائم لتحقيق التعايش السلمي بين النظامين الاجتماعيين المتناقضين . وهو يعلم أن هذا لا يوقف الصراع الطبقي ، ولكن يستمر بوسائل سلمية ودون استخدام العنف . إن الحل العلمي والتكنولوجي هو الحل المناسب لمواجهة التهديد الاستعماري » .

ثم لنقرأ ما كتبه « هرمان كاهن » في كتابه الذي صدر عام ١٩٦٠ : « بالرغم من أن القوة التدميرية أصبحت من الضخامة بحيث يستحيل استخدامها عمليا ، إلا أن سباق التسلح مازال مستمراً ، علماً بأن الخيار المعقول الوحيد أصبح اتباع استراتيجية الردع المحدود التي تؤدي فقط إلى القتل المتبادل وليس بالضرورة إلى الفناء المتبادل ، أو إلى نهاية الحضارة ، أو إلى نهاية التاريخ » .

وهذا التفكير يتطابق مع ما قاله « مالنكوف » من : « أن الحرب النووية سوف تؤدي إلى نهاية الحضارة ، ومن ثم لن تقدم الدول الرأسمالية على شن هجوم نووي ضدنا ، مما يتيح لنا تخفيض استثماراتنا في الصناعات الثقيلة والانتاج الحربي ، وتوجيه الفائض لانتاج مزيد من السلع الاستهلاكية » - كتب في هذا كثيرون منهم هنري كسينجر وليدل هارت وأندريه بوفر وغيرهم - وفي اعتقادي أن هذا ما يريده « جورباتشوف » .

إذن من ناحية الاسترخاء الدولي ، لم يأت جورباتشوف بجديد ، فالكثيرون قبله رددوا مايردده الآن ، كلهم تحدثوا عن أنه اذا كانت الاستراتيجية قبل العصر النووي تعني الاستخدام الماهر للقوة ، فقد أصبحت في ظل الرعب النووي فن التهديد باستخدام القوة دون استخدامها ، أو هي فن عدم المواجهة المباشرة بين القوتين العظميين ، أو فن ترجمة القوة إلى « دبلوماسية » . وبعبارة أخرى أصبحت الاستراتيجية النووية هي عبارة عن فن الردع . فالعالم وصل إلى حال من الاستقرار النووي في ظل مخزون نووي يدمرّ العالم مرتين أو أكثر ، فما فائدة تراكم المخزون بعد ذلك ؟

يعني الاستراتيجية الكونية في عهد « جورباتشوف » لم تتغير ، اذ ليس من السهل تغيير الاستراتيجيات الكونية للدول العظمى لسببين : الأول هو أن هذه الاستراتيجية تخدمها نظم اقتصادية وانتاجية وعقائدية معينة من الخطر تغييرها بطريقة فجائية وحادة ، إذ يتسبب عن ذلك خلل في توازن القوة العظمى . والسبب الثاني هو أن التغيير لا يتم بإرادة كاملة بل بإرادة ناقصة تخضع لاستراتيجية القوة المضادة ، كل ما حدث أن « موسكو » تريد فترة لالتقاط الأنفاس حتى مع تقديم بعض التنازلات في محور خارجي لتحقيق إعادة التوازن في المحور الداخلي تحت تأثير الضغوط الاقتصادية الناجمة من تزايد نفقات الدفاع ، وكذلك التقدم الهائل في وسائل المواصلات والأقمار الصناعية لإعادة تشكيل النظم من الخارج ، وكأن موسكو تريد أن « تفعلها بيدها لا بيد عمرو . . . » .

وهنا يبرز سؤال يحتاج إلى إجابة : ما هو الجديد الذي جعل الولايات المتحدة توافق على التوقيع على اتفاقية إزالة الصواريخ القصيرة والمتوسطة المدى في أوربا بعد سنين طويلة من المفاوضات الشاقة ؟ إنها تعلم تماما مقدار الاجهاد الاقتصادي الذي تعاني منه موسكو من جراء سباق التسلح ، وكان الأحرى بها أن تستمر في السباق الذي هو سباق استراتيجي في الظاهر لكنه سباق استراتيجي اقتصادي في حقيقة الأمر ، حتى تفجر الاتحاد السوفيتي من الداخل . ولكن هناك سببان لذلك : السبب الأول أن هناك خطأ في الصراع بين القوتين العظميين لا يجوز تجاوزه منعا من إجبار الطرف الآخر على اتخاذ إجراءات يائسة ، والسبب الثاني أن الولايات المتحدة أيضا ، وصلت إلى حالة إجهاد اقتصادي أخلّت بمصداقيتها ، حتى بين حلفائها تحت ضغط القروض الهائلة التي تقترضها ، والعجز في ميزان المدفوعات وزيادة البطالة وهبوط سعر الدولار . إن القوتين وصلتا إلى ما نسميه بحالة « الاجهاد المتبادل » نتيجة لتضخم ميزانيات الدفاع .

وهناك سبب آخر لتوقيع الولايات المتحدة على الاتفاق ، إذ أنه لم يشمل القوة النووية البريطانية أو الفرنسية ، وعلى ذلك فأوربا مازالت تعيش تحت مظلة نووية من الصواريخ متوسطة وقصيرة المدى ، بريطانية وفرنسية الصنع ، علاوة على مظلة نووية من الصواريخ عابرة القارات .

حتى وجهة النظر السوفيتية في الصراعات الإقليمية مازالت تتحرك في إطارها المعروف تقريبا ، فوجهة النظر السوفيتية بخصوص الصراع العربي « الاسرائيلي » هي نفسها لم تتغير تقريبا ، ولم يدخل عليها « خبرة تحديثية » كما يعتقد البعض ، فموسكو تؤكد دائما ـ ومازالت ـ على بقاء « اسرائيل » كدولة ذات سيادة داخل حدود ١٩٦٧ مع إجراء تعديلات مقبولة من الطرفين ، وكانت لها علاقات مع « اسرائيل » قبل عام ١٩٦٧ ، وهما في سبيلها لإعادتها لو وافقت « إسرائيل » على عقد المؤتمر الدولي ، وتؤمن بأن حل القضية ليس عن طريق الحرب ، وهي لم تمانع في الماضي ولا هي تمانع في الحاضر من هجرة اليهود السوفييت إلى « إسرائيل » ، وهي تقف الآن كما وقفت من قبل إلى جانب العرب وهم يطالبون برد أراضيهم بعد حرب ١٩٦٧ ، وبأن يكون للفلسطينيين دولة ، ثم نجدها قد التزمت ، ومازالت تمد العرب بالأسلحة في حدود سياستها . وهذه وجهة نظر !!

الاعتماد المتبادل لا المواجهة

وجهة نظر أخرى ترى عكس السابقة تماما ، فهناك تحولات عالمية كبيرة تحدث من حولنا « والبيريسترويكا » تتجاوب معها : فقد حل التعاون محل المواجهة في التعاملات الدولية ، وينادي « جورباتشوف » بالاعتماد المتبادل والتكامل ، ثم تغير مفهوم السيادة الوطنية في ظل تداخل المصالح وتشابكها .

والكوكب الذي نعيش فيه يغلفه غلاف جوي واحد ، لا يعترف بتجزئة العالم إلى كتل وتحالفات وأنظمة ، فلا يستقيم تواجد كوكب منقسم في ظل غلاف جوي واحد ، تسكنه مجموعات من البشرية تتهددها (أخطار وكوارث بيئية رهيبة ، لا يمكنها مواجهتها بجهود منفردة وراء خطوط فاصلة) . فالحدود السياسية للدول لم يكن لها جدوى في منع اشعاعات « تشيرنوبيل » من تخطيها مئات الأميال ، وزلزال أرمينيا كان حافزا للعالم أن يتخطى حدوده السياسية الفاصلة لتقديم المساعدات إلى الضحايا ، بغض النظر عن جنسيتهم وعقيدتهم ، وبذلك أصبحت قضايا « الايكولوجيا » تسبق قضايا « الايديولوجيا » ، وأصبحت حماية الجنس البشري من أخطار التقنية المدنية والعسكرية لها الأسبقية على الصراع الطبقي بحكم النص الذي أورده « جورباتشوف » في « بيريسترويكيته » .

والعالم يواجه بأخطار التلوث ، والجفاف ، وديون العالم الثالث ، وندرة بعض الموارد الطبيعية وبالموارد غير قابلة التجدد مثل النفط ، وهذه قضايا تجعل الجنس البشري غرضا واحدا للتهديدات المتزايدة . ثم مثل هذه القضايا هي في حقيقتها ملك للأجيال القادمة لا يجوز لنا ـ نحن أبناء هذا الجيل ـ أن نتجاهلها كما أن من واجبنا الحفاظ على تراث « الأرض » للأجيال التي تلينا .

ولا بد لعالمنا من أن يطور مفهوم السيادة التي نشأت أصلاً لمواجهة التبعية ، وعدم التكافؤ بين

الدول في القوة والثروة . لكن إذا أخذنا بمبدأ الاعتماد المتبادل والتعاون والأمن الجماعي فإن السيادة الكاملة والتمسك بها تتعارض وهذه الاتجاهات . ولذلك فإن التنازل عن جزء من السيادة الوطنية أو الإقليمية لصالح السيادة العالمية أصبح ضمانا لمواجهة الكوارث العالمية التي لا تميز بين دولة وأخرى ولا بين إقليم وآخر ولا بين عقيدة وأخرى . فالسيادة ليست مبدأ سرمديا ميتافيزيقيا . وعلينا أن نبحث عن بدائل أرقى للعلاقات الدولية .

ولاشك أن لوجهة النظر هذه مبرراتها ووجاهتها ، لكنها نظرة رومانسية ، صحيح أنها تعبر تماما عما ورد في « البيريسترويكا » من مبادىء ، ولكنها مبادىء تدخل في عالم « اليوتوبيا » ، وتتجاهل طبيعة الأشياء ، وتناقضات النفس البشرية التي خلقت معها . فنوازع الخير والشر موجودة بين الناس بمن فيهم أصحاب القرار ، وتناقض المصالح لا يمكن القضاء عليه إلا في ظل عالم تزول منه الطبقية والتسلط .

ثم كيف يكون هناك اعتماد متبادل بين الصياد والفريسة ؟ أي اعتماد متبادل هذا بين الدول الفقيرة من الجنوب والدول الغنية في الشمال ؟ في ظل تبادل ينقصه التوازن بين المواد الخام رخيصة السعر والمواد المصنعة غالية السعر ؟ أي اعتماد متبادل هذا بين الدول الدائنة والدول المدينة التي تنهكها المشاكل والتهديدات ؟ الإنسان يصنع مشاكله لنفسه وبنفسه !!

آلاف الناس الذين يموتون جوعا نتيجة الجفاف والتصحر في الوقت الذي يلقى فيه الفائض من الحبوب من الدول الغنية في البحر للمحافظة على أسعارها المرتفعة ، ولتصبح مواد استراتيجية ، ونحن نتشدق بالمبادىء والشعارات . الدول الفقيرة وفي مواجهة ظروفها الصعبة وبحالتها المتأخرة تحاول أن تخترق حاجز الفقر دون أمل أو جدوى بعد أن أغرقتها الديون ، وفتتتها الصراعات ، وأهلكتها نوازع السيطرة التي تهددها من خارج حدودها . ما هو الضمان في ظل تآكل المنظمات الدولية الإقليمية ، وفي ظل إدارة الأزمات بواسطة الدول العظمى وليس حلها؟ كيف نتحدث عن حلول للصراعات الإقليمية متناسين الحقوق التاريخية لشعوب احتلت أراضيها التي ورثتها عن الأجداد ؟ .

إن النظرة الرومانسية لا يمكن أن تتصدى للوحوش التي تملأ الغابة التي نعيش فيها ، والتي يسودها قانون « البقاء للأقوى » ، وعلينا ألا نسير في الغابة إلا ومعنا كلبنا الأمين وهو قوتنا الجماعية .

استمرار التناقضات بين النظامين

أما وجهة النظر الثالثة ، فسأنقلها عن «ياسوهيرو ناكاسوني» رئيس الوزراء الياباني ألقاها في محاضرة في معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية في أكاديمية العلوم بموسكو في ٨٨/٧/٢١ وأهم نقاط رأيه الذي يعتمد في كثير من جوانبه على الفكر الشرقي المستمد من تعاليم « بوذا » و « كونفوشيوس » يقول : « من ينظر إلى العلاقات الدولية خلال الأربعين سنة الماضية يجد أنها عبارة عن حلقات من المواجهة والتعاون والتوتر والاسترخاء ، وعلى ذلك فإن نظرتنا إلى الفكر الجديد « لجورباتشوف » في « البيريسترويكا » « والجلاسنوست » لا بد وأن تكون ايجابية ، وعلينا ألا ننسى أن الغرض الأساسي لهذا الفكر الجديد هو إعادة بناء الاتحاد السوفيتي كدولة اشتراكية قوية ، ولا يجوز أن نركن إلى وهم أن التناقضات في العلاقات بين النظم الاشتراكية والديمقراطيات الليبرالية سوف تنتهي بسهولة ، فالمنافسة التاريخية سوف تستمر طالما ظل الخلاف الرئيسي بين النظامين قائما . فالعقائد الاشتراكية مسموح بها في الديمقراطيات الليبرالية بينما ترفض النظم الاشتراكية العقيدة الديمقراطية الحرة . الأحزاب الاشتراكية تمارس حقوقها في النظم الديمقراطية بينما لايمكن للأحزاب الديمقراطية أن تمارس هذه الحقوق في النظم الاشتراكية علاوة على أن الديمقراطية في النظم السياسية التي تعتنقها ليست مجرد وسيلة لتحقيق غاية ولكنها إحدى القيم الرئيسية التي يتم تطبيقها لأغراضها السامية . ولذلك فإن متابعة ما يجري بخصوص الإصلاحات السوفيتية التي نادى بها « جورباتشوف » أمر واجب . ما مدى تطبيق التعددية الاشتراكية ونتائج ذلك على حرية الفكر

والعقيدة للأفراد ، أو حرية عقد الاجتماعات لذوي الأفكار المتعددة ؟

ما مدى تطبيق الأفكار التي تبلورت في المؤتمر الأخير للحزب الشيوعي عن فصل السلطات بين الحزب والسوفيتيات أو اتجاهات السيطرة داخل الحزب ؟ وما انعكاس ذلك على السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي وعلى الأخص في مجال تخفيض السلاح والصراعات الإقليمية والعلاقات الثنائية ؟ ومن المؤمل أن تترافق التغيرات المنتظرة مع روح القرن الواحد والعشرين . . » .

ويتحدث « ناكاسوني » عن احتمالات المستقبل في العلاقة بين الغرب والشرق ، فيحصرها في ثلاثة احتمالات : الأول بقاء العلاقات على صورتها الحالية ، والثاني هو استغلال النتائج التي تحققت وتعميقها لجني ثمار أكثر ، والثالث هو تخلي الكتلة الشرقية عن السياسة الستالينية ، وتخلي الكتلة الغربية عن سياسة الاحتواء ، واقامة نظام عالمي قائم على التطبيع وعلى قيم ومبادىء جديدة . والاحتمال الأكثر توقعا عند « ناكاسوني » هو الاحتمال الثاني مع خلق قوة دافعة واستمرارية لتحقيق الاحتمال الثالث على أساس التعاون والاعتماد المتبادل في كل الميادين بالنسبة للجميع .

وعن تأثير « البيريسترويكا » على الصراعات الإقليمية يركز « ناكاسوني » بطبيعة الحال على آسيا فيرجع المشاكل القائمة للخلافات السياسية في المنطقة أساساً ، ولا بد من تقييم « الأفكار الجديدة » على ضوء حل مشاكل المناطق الشمالية بين اليابان والاتحاد السوفيتي وعلى استرخاء والأوضاع بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية ، وعلى القدرة على ايجاد حل سياسي للمشكلة الكمبودية .

وجهة نظر رابعة ، يتحدث عنها السير « ميشيل هوارد »*: فجوورباتشوف شأنه شأن الساسة العظام مثل بسمارك وروزفلت » ، لديه بُعد النظر الذي يؤمن بضرورة التغيير والمهارة والعزيمة على استغلال ذلك في تحقيق أغراضه ، فالساسة لا يكتفون برد الفعل بالنسبة للمتغيرات ، ولكن لابد أن يكون لديهم تصور لشكل العالم الذي يريدونه ، ثم تحريك الأمور في هذا الاتجاه ، وبالنسبة لانعكاسات هذه المتغيرات التي ينادي بها الزعيم السوفيتي فإنها قد تضع أمامنا نماذج واحتمالات أربعة » .

النموذج أ : تحلل الاتحاد السوفيتي نتيجة لإضعاف قبضة الحزب ، ولرغبة الجمهوريات الإسلامية في الاستقلال أو انتشار الحركة القومية في أوربا الشرقية إلى البلطيق وأوكرانيا .

النموذج ب : استمرار الاتحاد السوفيتي في حالة التطور الداخلي والاسترخاء الخارجي مع تنمية اتجاه تعاون الدول .

٣٠النموذج ج : استمرار المواجهة ، تدهور الموقف الاقتصادي مع استمرار سباق التسلح ، وهو الموقف الذي يريد جورباتشوف تفاديه ، ولكن ربما تفقده الظروف الضاغطة القدرة على ذلك .

النموذج د : استمرار السعي للسيطرة على العالم ، وهو حلم مازال يسيطر على موسكو ، ويشكل في الوقت نفسه كابوسا بالنسبة للولايات المتحدة .

إن أخطر الاحتمالات هو الاحتمال « أ » ، إذ لا يمكن تصور أن قيادة جديدة لن تنبعث للسيطرة على الموقف بالقمع الذي عرفه العالم أيام لينين وستالين خاصة ، إذا حاولت الولايات المتحدة أن تستغل الموقف لصالحها كالمعتاد . إن هذا الاحتمال سيدفع العالم إلى موقف مواجهة خطيرة تجعل العقلاء لا يتمنون حدوثه .

أما الاحتمال « ب » فهو الأنسب بالنسبة للاتجاهات المعتدلة ولكنه يخلق مشاكل حقيقية بالنسبة للغرب : إذ يجعل استمرار السيطرة السوفيتية على شرق أوربا أمرا مقبولا . ثم ما الذي

---

* استاذ التاريخ الحديث في جامعة اكسفورد ومدير معهد الدراسات الاستراتيجية وقد قدم رأيه في مؤتمر عقد بين ٢٧ ـ ١٩٨٨/٩/٣٠ بعنوان « الناتو في العقد الخامس » ونشر البحث في مجلة Survival عدد نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٨ بعنوان « تحدي جورباتشوف والدفاع عن الغرب » The Gorbachev Challenge and The Defence of the West

يحدث بالنسبة لحلف الأطلنطي ؟ هل تبقى الحاجة إليه قائمة والاتحاد السوفيتي على هذا القدر من التعاون والصداقة ؟ ألا ننظر إلى بقاء القوات الأمريكية في أوربا على أنه أمر غير مرغوب فيه بل معطل لانسحاب القوات السوفيتية من شرق أوربا ؟ ألا يدفع ذلك الولايات المتحدة لكي تتعامل مباشرة مع القوة العظمى الأخرى دون التورط في أوربا ومشاكلها ؟ ثم هل يبقى في ظل روح التعاون هذه مانع من حصول الاتحاد السوفيتي على مركز المشاركة في العالم الثالث ؟ وباختصار ألا يكون « جورباتشوف » باتباع هذا الحل ، قد حقق بالوسائل السلمية ما فشل في تحقيقه من سبقوه باستخدام المواجهة والقوة ؟ لقد قلنا له شروطنا بخصوص تخفيض الأسلحة النووية من أوربا ، وقلنا له ، اترك افغانستان وخفض قواتك من أوربا ، وبضرورة التفتيش على مواقع الصواريخ ، ونفذ كل ذلك . ويزداد الأمر سوءا بالنسبة للغرب ، ان الرجل يعني وينفذ ما يقول ، فهو متأكد أن الغرب لن يشن عليه الحرب ، ولذلك فهو يوفر من نفقات الدفاع لرفع مستوى المعيشة ، إن تخفيض القوات في صالحه ، ولكن تخفيض قوات الغرب يسبب لدوله مشاكل لا يمكن مواجهتها ، أولها زيادة البطالة ، فماذا نفعل مع هذا الرجل ؟

أما الاحتمال « ج » فهو استمرار الوضع الذي كان سائدا قبل « جورباتشوف » ، وهو وضع المواجهة وسباق التسلح الذي يحاول الرجل أن يفلت منه ، ولكن قد تستجد ظروف ضاغطة تمنعه من ذلك . الغرب يرحب بآراء « جورباتشوف » في العلن ، ولكن هل هو حقيقة يرغب في أن يقوم بتنفيذ إصلاحاته ؟ فاستمرار التهديد السوفيتي يزيد من تضامن دول حلف الأطلنطي ، ويخفف من نسبة البطالة ، ويستنزف القدرة الاقتصادية للاتحاد السوفيتي في سباق تسلح غير متعادل . ولكن إلى جانب هذه المزايا هناك عيوب من استمرار وضع المواجهة ، بالنسبة للغرب فهو يزيد من أعبائه الاقتصادية نتيجة لسباق التسلح ، ولعمق الخلاف بين دوله ، لمطالبة الولايات المتحدة في إلحاح بزيادة نسبة نفقات الدفاع لتخفف من أعبائها الدفاعية . وألمانيا الغربية تجد صعوبة في استمرار تجنيد قوة بشرية هي في حاجة إليها لزيادة الانتاج ثم زيادة معارضة الرأي العام .

أما الاحتمال « د » فلا يحتاج إلى تعليق لدرجة أن الحكومات تفضل مخاطر الحل « ج » ليس فقط للشكوك والمخاوف التي يثيرها الحل « ب » ، ولكن من خوفهم لتطور الموقف إلى الحل « د » ، لأن تجاوب الغرب مع الحل « ب » يحتاج إلى جسارة في مقابلة إجراءات « جورباتشوف » باجراءات مماثلة ، على الرغم من المخاطر المحتملة على أساس اعتبار خطواته على أنها فرص للإنتاج مرة أخرى ، وليس على أساس أنها تحديات يجب مواجهتها بطرق أخرى .

وجهة نظر رابعة في موضوع مثير ، وسوف يثير كثيرا من التساؤلات والاحتمالات . بقيت نقطة أخيرة . ألا نحتاج نحن العرب وسط كل هذه الفرقعات التي تدور من حولنا إلى « بيريسترويكا » عربية يصحبها « جلاسنوست » عربي ؟ أعتقد ذلك . □





- عركتهم المواقع ، وعجمت عودهم الحروب .
- خابت آمالي ، وتمزقت مطامعي ، وطارت مع الرياح أحلامي .
- تناثرت الدموع من عينيها ، كما يتناثر اللؤلؤ من عقد انفصم سمطه .
- إنه عظيم الأنفة ، قوي الشكيمة ، مخاطر في حب وطنه .
- إنه حازم حذر ، لا يضع قدمه إلا حيث ترى عيناه .



قصة للكاتب البلغاري ديميتر ياروموف

ترجمة : سهيل أيوب

كان سكان الطابق الأرضي غرباء ، لكنهم هادئون ، يدفعون الأجور في أوانها وكانوا يخاطبون الشيخ قائلين

- البيت بيتك ، ومن أجل هذا نسدد لك الأجرة

فتغمر الفرحة قلب شيتان لما يظهرون من احترام ، ويعطي ابنه النقود ، فهو في غنى عنها

ويرجع الابن النقود سراً إلى المالكين الحقيقيين في الطابق الأرضي كان قد استأجر الطابق العلوي ، ودأب على مخاطبة والده قائلاً

- ابقَ معي في المدينة فأنت في بيتك الذي تملكه ، أليس كذلك ؟

أقام الشيخ في الطابق العلوي لم تكن ثمة فسحة في المكان وما أن تبادر كنّته وابنه إلى عملهما حتى

يتسلق إلى العلية ويقعد بجانب النافذة الصغيرة القريبة من السقف، ينفذ منها بصره ناحية الجنوب. كان يلوي عنقه في بعض الأحيان خارج تلك النافذة وينظر يمنة ويسرة، فيلمح في الأسفل سقوف المدينة وذلك الامتداد الأبيض لنهر توندجا. وكان الناس يلوحون مصطبغين باللون الأصفر على طول النهر، وضباب الخريف يهوّم فوق رؤوسهم.

ويذكر كروستيو شيتان الأصياف القليلة الأخيرة. تمتلىء باحته في الصباح بالضجيج. تتصايح الديكة أول الأمر، وبعد ذلك ينهض شيتان نفسه على قدميه. وبعد فترة من وقت، حين تزدهر السماء بأسرها، يستيقظ الحمام تحت أفاريز البيت، ويطلق الاوز بربرته وهو يتهادى في مشيته ناحية السد. ويقبع الخنزير عند قضبان زريبته، وتقعقع الدلاء، وشيتان متجه بها إلى الزريبة لإطعامها. وبينما يقبع الخنزير يأخذ الكلب بشد سلسلته وينبح. ويبدأ الحمام ينقر بمنقاره وهو يرسّل هديله إلى أوان الظهيرة.

حين ينبلج الصباح تتفجر حركة واضطراب صاخبان، تمد الديكة رؤوسها، وترفع أصواتها إلى السماء، محطمة السكون المخيم على القرية، وتتجمع طيور الحمام صافقة بأجنحتها، عائدة إلى السطوح مرة أخرى.

المطر آت، فيهذب الشيخ سيره إلى المستشرف، ويمدُّ بصره إلى «غيرين دير»، حيث تترامى حقوله.

إن مجلس القرية يطالب ببيته، لأن هذا البيت قديم حسن الترتيب والعناية. أعلن رئيس المجلس أنهم سيحولون البيت إلى متحف، وشدد عليه أولاده للقبول بذلك، فقاوم فترة من زمن، لكنه حين قال بينيو، ولده الأصغر، إنه سيملك في المدينة بيتاً خاصاً به استسلم الشيخ ونفض عنه عناده.

ذات يوم أحد من شهر أيار (مايو) عجّت باحة كروستيو شيتان بالناس. ألقى أولاده الثلاثة الخنزير على الأرض وذبحوه، وبين الهرج والمرج والصيحات عمدت كناثنه إلى القبض على الديكة والاوز، وشرعن يذبحنها على خشبة التهريم. ملأت الحيوانات المذبوحة الباحة ناثرة الدماء في كل مكان. وعندما أسلمت أرواحها انسحبت الكنائن إلى ثلاثة أمكنة مختلفة من الباحة، وقد حملت كل منهن نصيبها من الذبائح لنتف ريشها. وبعد ذلك امتلأ الفضاء بالريش ورائحة ما تطاله النار. وتسلق الصغار إلى السطح لاصطياد طيور الحمام، فأمسكوا بعضها، وبقي بعضها الآخر هنالك مسترسلاً في هديله. وظل الشيخ من المستشرف يحلّق ببصره تجاه «غيرين دير».

حين انتهى تقطيع كل شيء وتم حزمه، جمع الأولاد الثلاثة زوجاتهم وصغارهم ورحلوا. وبقي الشيخ وحيداً لتصفية حساباته مع مجلس القرية والانضمام من بعد إلى ولده الاصغر في المدينة.

وبينما كان يطل من النافذة الصغيرة في العلية استرجع في مخيلته ذلك النهار مائة مرة من غير أن يلحظ أن الأيام غدت الآن قصيرة، فالعربات التي تجتاز الطريق تتحرك بسرعة أكثر، وبوق ثكنات الجيش يرتفع صداه في وقت متأخر من العشية، وتعود الحافلة (الباص) من بيفاكا - قريته الأم - بعد أن يبسط الليل رداءه الأغدف. كان الوقت ما يزال معتماً حين تردد صوت بائع الحليب باكر الصباح. يتريث طويلاً على الدوام أمام البيت لمعرفته أن شيتان جاء من إحدى قرى توندجا السفلى.

كان ينادي:

- مرحباً، يا جار! كيف تسير الحياة؟ صارت مألوفة لديك؟

فيرد عليه شيتان قائلاً:

- لست أدري. وأنت، كيف أمورك؟

ذات يوم توقف بائع الحليب في طريق عودته أمام باب البيت مرة أخرى. صاح:

- مرحباً، يا جار. أين أنت؟ أريد أن أسمعك خيراً.

فخرج شيتان إليه:

- ما الخبر؟

- انظر، يا جار. هل هذا البيت بيتك؟

أجاب شيتان : ـ أنّى لي أن أعرف ! أفترض أنه ينبغي أن يكون يبقى .

ـ حسن . إنه ليس بيتك ، يا جار . أظنني سمعتك البارحة تخاطب الجيران في الطابق الأرضي في قليل من الحدة . كفّ عن ذلك لأنهم أصحاب البيت . ولدك بينيو يقوم ببناء بيت ، لكنه لم يتمه . كذب عليك كي لا ينهشك القلق . والآن ، لا تخبره أنك عارف بخدعته الصغيرة ، لأنه قد يقلق .

قال شيتان في صوت هزيل مرتعش :

ـ لقد عرفت .

هجر النافذة الصغيرة في العلية ، ولن يعود إليها أوان العصر . وحين آب ولده من عمله ألفاه متخذا مجلسه في المطهى عندوجب الظهر .

قال شيتان :

ـ أحسبني سأذهب إلى القرية فترة من زمن . أريد رؤية رفاقي القدامى وجيراني .

كانت السماء ملبدة بالسحب ، والظلمة تنتشر مسرعة . استنشق شيتان الهواء الرطب ودلف إلى الباحة . حين كان يئوب من الحقول في مثل هذه الأمسيات الماطرة يدور حول البيت ومخزن التبن عَجِل الخطا . ويضع كل شيء في أمان . ويبعث التبن حيث انتشر على أرض الدراسة رائحة قوية ، فيحس شيتان بموجة من نشاط طري في ساعديه وتفرق الدجاجات ، وتشخر الأبقار والخيول ، وتترجّع في كل مكان أصوات أولاده وكنائنه .

دلف في الأونة إلى الباحة وسرّح البصر حواليه . هذه طيور الحمام تصفق بأجنحتها مرة أخرى بين حين وحين ، وتحوم فوق البيت . والسور قد جدّد حديثاً ، وتم إصلاح زريبة الخنزير ، واستبدل باب البيت . وألصقت أواني الفخار على أعمدة السور . وجثم ديك على هذا السور أمام البيت لم يكد شيتان يقترب منه حتى لحظ أنه مصنوع من الخزف دعاية للمتحف . وكانت المدحاة الخشبية في منتصف أرض الدراسة . جرّها إلى تحت مظلة مخزن التبن ، كما جر العربة ذات العجلتين إلى تحت المظلة ايضاً . وأصابته أولى قطرات المطر وهو يجمع مدمات العشب .

عجل كروستيو شيتان عبر الباحة خطواته ورقي السلم الخشبي المصرصر ، فأيقظ البيت من هجعته . لم يشعل النور في الخارج ، واجتاز الشرفة في أناة مرهفا سمعه إلى صدى قدميه .

كان للغرفة الكبيرة ـ حيث اعتادت بناته النوم ـ باب جديد له قفل جديد . أخرج الشيخ المفاتيح ، وخطا فوق العتبة المرتفعة ثم تراجع فجأة ، لقد اهتز الباب على مفصلاته مصدراً صوتاً غير مألوف لديه .

شم الشيخ رائحة غريبة ، فخرج من الغرفة ، وألقى نظرة جديدة على الباحة كمن يريد أن يبعث فيها الحياة مرة أخرى ، حتى وصرير عجلات العربات خلال موسم الحصاد ، ورائحة التبن المدروس القوية ، وضحكات بناته ، وشتائم أبنائه ، وأغنيات الديوك في عيد القديس إلياس ، وضجيج الأغنام ، والكلاب ، والأبقار ، والحمير ، والخيول ، والخنازير .

وطيور الحمام وحدها تصفق بأجنحتها فوق البيت ، والمطر كاد يهطل ، والليل لم يخيم على الشرفة . ومن احدى الزوايا نظرت إلى شيتان شزراً دميةٌ كبيرة محشوة بالقش تلبس قبعة من الفرو على رأسها .

« حسن ، حسن ، حسن ، يا شيتان ، لقد صنعوا رجلاً يملأ مكانك ، فأنت في سبيلك إلى الرحيل عن هذا العالم . ألم يخطر لك في بال كميات الثلوج التي هطلت عليك ، وكميات الأمطار التي بللتك ! وهذا الرجل يستريح الآن على منبذتك ؟ ألقِ به من الشرفة ، وليبلله المطر أيضا . انظر ، المطر آت من « غيرين دير » ، من هذه الناحية » .

ألقى شيتان الدمية ، ورجع ناحية منبذته ، وتراخت ساقاه تحته ، تاركاً يديه تسقطان متراخيتين على ركبتيه .

هطل المطر في عذوبة على الباحة ، فقطعت طيور الحمام هديلها ، وشرعت قرميدات السطح تهمهم في رقة . وأظلم الليل ، وراحت الهضبة فوق « غيرين دير » تذوب وتتلاشى في الظلمة المتوانية . وكان شيتان يطيل النظر إلى تلك الناحية ، وعيناه تغرورقان بالنداوة شيئاً فشيئاً . □

عندما يُطالع القارىء منا كلمة « المكتوبجي » فربما يتجه تفكيره إلى أنها تعني الشيء المكتوب ، ولكنها في الحقيقة كانت تطلق في القرن التاسع عشر وما قبله على رقيب المطبوعات ، ولذلك كان المفكرون والحالمون بالحرية يسمونه « شرطي الفكر » وكم كان لهذا « المكتوبجي » من نوادر !

غرائب "المكتوبجي"



بقلم : شريف الراس

يبدو أن العرب كانوا قبل مائة سنة ، مبتلين بظاهرة استبدادية مؤلمة ، سماها الناس « مقص رقيب المطبوعات » ، وسماها عرب ذلك الزمان « المكتوبجي » ، حسب منطوق اللغة الرسمية للسلطنة العثمانية التي كانت تحكم معظم أقطار وطننا العربي .

ويبدو أنه كان للمكتوبجي (أو شرطي الفكر في رأي الشعراء الحالمين بالحرية دائما) مواقف عجيبة ومدهشة وغير معقولة إلى حد دفع الكاتب الشامي سليم سركيس لأن يؤلف عنها كتابا كاملا ، أصدره في بيروت عام ١٨٩٦ بعنوان « غرائب المكتوبجي » . وفي هذا الكتاب نقرأ أن [محرر الجريدة لا يجوز له أن يذكر كلمة (جمهور) في كتاباته ، بل يجب أن يقول « الشعب » أو « القوم » ، وفي الاعلانات يقال عادة « نعلن لحضرة الجمهور » فيحذفها « المكتوبجي » ويضع محلها

« نعلن لحضرة القوم » . وذلك خوفا من انشغال أفكار الناس بالجمهورية والميل إليها] .

ومن « فرمانات المكتوبجي » أي أوامره المخيفة التي كان يوجهها للكتاب والصحفيين ، حظر استعمال كلمة « جلالة » ، فهذه الكلمة موقوفة حصرا على السلطان العثماني المقيم في قصر يلدز بالآستانة (استانبول) ، فإذا قال صحفي « جلالة امبراطور روسيا » ، مثلا ، فإن مقص الرقيب يحذفها .

كلمات لها معنى !

وأعجب من هذا أن مقص الرقيب كان يتجاوز حدود الكلمة المطبوعة ، حتى يصل إلى ألسنة المطربين . فعندما زار السلطان عبدالحميد مصر في أواخر القرن الماضي ، وأراد خديوي مصر تكريمه بجلسة طرب يحييها المطرب الشهير عبده الحامولي سئل الحامولي « ماذا ستغني » ؟ فقال : سأغني دور :

غـاب عــن عــيــني مــرادي
وانهمــل دمــعــي صــبــيــب

فأمره « المكتوبجي » أن ينسى كلمة « مرادي » ويضع مكانها كلمة « حبيبي » ، حتى لا ينزعج السلطان من سماع كلمة « مرادي » ، إذ يتذكر بأنه إنما تولى السلطة على إثر عزل شقيقه مراد الذي لم يهنأ بالجلوس على كرسي العرش أكثر من ثلاثة أشهر ، ثم سجن بعدها داخل قصره في استانبول إلى أن مات سنة ١٩٠٦ .

وكان « المكتوبجي » يحذف كلمة « الحركة » أينما وردت في الأخبار أو التعليقات ، لأنها - في نظره - تعني « الثورة » .

وعندما نشرت جريدة الأحوال البيروتية خبر قدوم الوجيه البقاعي « الياس الباشا » من زحلة إلى بيروت ، تدخل « المكتوبجي » فغير اسمه في الجريدة « الياس الباشة » لئلا يظن الناس بأنه يحمل رتبة الباشوية .

ومن حسن حظ هذا الوجيه الزحلي الياس بك الباشا أن « المكتوبجي » الذي أمر بتغيير اسمه لم يكن من عشاق أكلة « الباجة » الشهية ، وإلا لسماه « الياس بك الباجة » ، فيصبح اسمه بالعربي الفصيح : الياس بك كرشة الحروف ورأسه وكراعيه مطبوخة .

وهذه الحكاية العجيبة تذكرني بواقعة طريفة ، بطلها صديق لنا من آل الدّبّيك ، (أي الماهر في الدبكة أو الذي يدبك كثيرا لأسباب لم يدرسها علماء النفس بعد) . أراد أن يمازح مدير الأحوال المدنية في بلدته الصغيرة ، فرفع عليه دعوى قضائية يطالبه فيها بأن يعيد الأمور إلى نصابها ، فيمحو من سجلات النفوس اسم « الدّبّيك » ، ويكتب مكانها « الدّب بيك » ، (على وزن الدب أفندي والدب باشا) ، لأن هذا هو الاسم الأصلي للعائلة قبل أن يصيبه التحوير والتحريف . وعندما قرأ القاضي صحيفة الدعوى ضحك ونصح صاحبنا بأن يتخلى عنها ، لأن كلمة « الدبيك » تظل أجمل وأخف وطأة من « الدب بيك » ، إذ كيف يكون الدب بيكا ؟!

شوقي والمويلحي

فإذا رجعنا إلى صحف ما قبل تسعين سنة ، فإننا نقرأ في جريدة المؤيد ، الصادرة يوم ١٩٠٠/٢/١١ مقالا يثير في قلوبنا - نحن عرب اليوم - الشفقة على ما كان الصحفيون والقراء يعانونه من استبداد « المكتوبجي » في ذلك الزمن ، فقد كان ذلك المقال بعنوان « المطبوعات في دار الخلافة » ، وخلاصته أن الجرائد تئن أنين الداء العضال بعلة الرقيب وتسلطه العجيب .

وهذا الأنين من أوجاع « الداء العضال » نسمعه حتى من أمير الشعراء أحمد شوقي الذي شكر الله تعالى على الفرحة بترحيل « مكتوبجي » بغيض وقال :

لَنَا رَقِيبٌ كَانَ مَا أَثْقَلَهْ
الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي رَحَّلَهْ
لَوِ ابْتَلَى اللهُ بِهِ عَاشِقاً
مَاتَ بِهِ ، لا بِالجَوَى وَالوَلَهْ
لَوْ دَامَ لِلصُّحْفِ وَدَامَتْ لَهُ
لَمْ تَنْجُ مِنْهُ الصُّحُفُ المُنْزَلَهْ
إِذَا رَأَى البَاطِلَ خَالَى بِهِ
وَإِنْ بَدَا الحَقُّ لَهُ أَبْطَلَهْ

عن الحق الذي يبطله شرطي الفكر يخبرنا الأديب العربي الكبير ابراهيم المويلحي في مقالة منشورة بجريدة « المقطم » قبل ما يقارب مائة سنة (أن عالما أرمنيا ألف قاموسا بالتركية والأرمنية ، وعرض الكتاب على الحكومة ابتغاء الإذن بطبعه . فلما وجد رجال الحكومة في القاموس - كما يوجد في غيره - كلمة « السيف » مترجما بالتركية والأرمنية أمروا بمحو هذه اللفظة ، وقالوا : لا يجوز أن تكون في قاموس أرمني كلمة « سيف ») .

ويخبرنا هذا الكاتب الكبير الذي عاش عشر سنوات في قصر السلطان بالأستانة ، بوصفه واحدا من رجال البلاط المقربين ، أن (القارىء منهم يقرأ الكتاب المطبوع في الأستانة نفسها بإذن الحكومة مرارا ، فيجد فيه جملة ، فيكتب تلك الجملة ويبني عليها خراب الدولة ، فتصدر الأوامر بجمع الكتاب من الأقطار وإحراقه) .

ومن الطريف أن ابراهيم المويلحي الذي يستنكر جريمة « الجمع والاحراق » راح هو وكتابه الثمين « ما هنالك ؟ » ضحية النار نفسها . يقول حفيده ابراهيم المويلحي في مقالة نشرها بمجلة الرسالة (إبريل - نيسان - ١٩٣٨) :

« ولما كان إبراهيم بك مشغوفا بالتحرير أخذ ينشر في « المقطم » من وقت إلى آخر مقالته الانتقادية فيما رآه في الأستانة العليّة مدة إقامته فيها بعنوان « ما هنالك ؟ » ثم جمعها وطبعها كتابا سنة ١٨٩٦ ميلادية ، فبعث السلطان عبدالحميد يأمره بإرسال جميع النسخ التي في حيازته إلى « المابين » (أي قصر السلطان في الأستانة) ، فخضع ابراهيم لأمر جلالته ، وأرسلها جميعا إليه ، ما عدا بضع نسخ كان قد وزعها على عائلته وأصدقائه . لذلك يندر وجوده » .

ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب الطريف والمشوق والثمين بعث إلى الحياة من جديد ، بعد تسعين سنة من إعدامه ، إذ أصدره عبدالرحمن شلش في القاهرة عام ١٩٨٦ مصورا « بالأوفست » ، مع دراسة تاريخية كتبها أحمد حسين الطماوي ، ومقدمة للدكتور علي شلش .

ومنذ الصفحة الأولى ، أو من المقالة الأولى فيه ، يحمل ابراهيم المويلحي (١٨٤٥ - ١٩٠٦) حملة شعواء على « المكتوبجيين » ويصفهم بأنهم لا يخدمون مصلحة السلطان وإنما هم « قوم استؤجروا عليه لسقوط مروءتهم وفساد مزاجهم » ، ويقول : « اللهم نستغيث برحمتك أن تبعد عن جلالة السلطان هؤلاء الأشرار الذين لو اجتمع منهم عشرة على أنظم سلطنة في العالم لخربوها في بضعة أيام » .

حيوان يلدز

ويذكر المويلحي بعد ذلك حوادث عديدة ، وغريبة جدا تؤكد أن أصغر « مكتوبجي » قادر على تدمير حياة أي إنسان في الدولة ، مهما علت رتبته ، وهذا ما حدث لمنيف باشا ناظر المعارف (أي وزير التربية والتعليم) ، عندما (ألف كتابا مدرسيا ، واتفق أن ورد في الكتاب ذكر (الحباحب) ، وهو حشرة يضيء ذنبها في الليل كالنجم ، فعبر عنه منيف باشا (بحيوان يلديز) ، ومعنى يلديز النجم ، فطار الجواسيس إلى السراي السلطانية ، وقدموا التقارير السرية بأن منيف باشا يعرض بجلالة السلطان في قوله عن « الحباحب » أنه « حيوان يلديز » على سبيل التورية . فعزل الباشا في الحال ، وبقي في نحوسة نجمه خمس سنوات مغضوبا عليه لهذه الكلمة التي ما خطر على باله غير معناها الحقيقي) .

وعلى الرغم من أنك إذا التقيت واحدا من هؤلاء « المكتوبجيين » (وخاطبته فيما خرج عن أشغال السراي وجدته عاميا عريقا في العامية ، أميّاً ، وإن كان يخط بعض الحروف ، فهي لا تؤدي معنى ، وربما اجتمع على سطر يكتبه ثلاثة أو أربعة من الكتاب ، فلا يكشفون قصده إلا بالحدس والتخمين) . وإن هذا الأمي الجاهل قادر على تحطيم أكبر عالم في البلاد ، كما حدث لحسن فهمي باشا عندما ألف كتابا في حقوق الدول ، (أي الحقوق الدولية) ، (أعجب به العارفون ، وطبع في سائر الأقطار ، وقرأه المؤلف بنفسه مرارا على طلبة مكتب الحقوق (أي كلية الحقوق) ، وقدم منه نسخة لجلالة السلطان لتوضع في المكتبة السلطانية ، وتكلمت الجرائد التركية والافرنجية والعربية عنه ، ورسمت نظارة المعارف درسه في

مكتب الحقوق مع بقية الكتب التي اختارتها للدرس فيه ، فقام جاسوس من تلك النظارة يدعو بالويل على حسن فهمي باشا ، ويتهمه بالغش لذات السلطان) ، لورود عبارة حقوقية في الكتاب ، فسرها على هواه . (وكتب الجاسوس تقريرا لجلالة السلطان بهذا فجاءه الطلب إلى السراي ، وقوبل بالاحسان والالطاف ، وصدرت الارادة السنية في الحال بجمع الكتاب وإحراقه ، وأن لا يُذكر في مكتب الحقوق اسمه ، وأن يرسل كتاب توبيخ إلى حسن فهمي باشا ، وللإحسان على الجاسوس بالرتبة الأولى من الصنف الأول ، وبمائة وخمسين ليرة . وقد قال الجاسوس بعد خروجه من السراي لصاحب له : عليّ بعد تقريران لأصل إلى رتبة الوزارة) .

بعد هذه (النماذج) المذهلة يصبح من السهل فهم موقف هذا الثائر العربي ابراهيم المويلحي وحملته الشعواء على رجال « شرطة الفكر » الذين يصفهم بأنهم « أشربوا في قلوبهم التجسس » في زمن كان الأدباء ورجال الفكر فيه قد بلغوا حالة من القهر والذل والفقر ، جعلت هذا الكاتب يصف حالة إنسان بأنه « وقف أمام الآغا أذل من وقفة مؤلف يطلب من المعارف إذنا بطبع كتابه » .

ويمضي المويلحي في كتابه الجميل « ما هنالك ؟ » قُدُماً ، فيقارع « المكتوبجيين » الحجة بالحجة ، فاذا قالوا: إنه لا يجوز أن تنشر في الصحف أي أخبار محلية عن التخلف أو الانحراف أو سوء الأحوال المعيشية (لأن من الحزم تعظيم الدولة في عين عدوها حتى يقع في روعه أنها قوية عزيزة منيعة الجانب ، فييأس منها وينقطع طمعه فيها) فإنه يرد عليهم بأن هذه الحجة غش للدولة وتدليس بها ، أولا : لأن عدوها متنبه يقظ متأمل ، فهو أبصر بمغامزها وأخبر بدخائلها ، بل مطلع منها على ما لم نحط به خبرا . وثانيا : لأنه إذا كان عدوها بحيث يجهل دخائلها وهي بادية للعيان فأهون به عدوا . وثالثا : لأنه إذا خيف على الدولة عاقبة التنبيه كان الخوف عليها من التمادي على الخلل أشد ، فإنه أعجل من العدو سيرا ، وأسرع بطشا ، وأسوأ تأثيرا .

وإذا قال « المكتوبجيون » : إن تنبيه الدولة إنما هو فضيحة من غير جدوى ، رد عليهم المويلحي بأن الفضيحة لو كان في اتقائها خير لتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولما كان الدين النصيحة ، ولما قال الفاروق رضي الله عنه : من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه . ومع كل ذلك فأي عورة مستورة منا حتى نتقي الفضيحة من كشفها ؟!

وما لنا فيما نكتبه عن البلاد العثمانية هو أننا نريد تنبيه الأمة إلى ذاتها لتنقذ نفسها من سوء المظالم ومن التمزق والتشتت الذي لا بد أن يلحقها إن هي بقيت على حالتها الحاضرة ، ولأجل أن تصير لها حكومة صالحة الإرادة ، منظمة الأحوال ، كبقية الأمم . وينحصر غرضنا (نحن الكتاب المختنقين بكابوس المكتوبجية الخانق) في إعلان ما يخفيه عنها الظلمة من سوء أحوالها ، وإرشادها إلى المطالبة بحقوقها ، كما يكون الدواء بجانب الداء . ومن حقوقها أن تطالب بالإصلاح وتنفيذ القانون الأساسي وإعادة مجلس المبعوثين ، وتشكيل وزارة متصرفة مسؤولة أمام الأمة والتفسيح لحرية الأفكار كما هو موجود في أي دولة من دول أوربا . وهذا النظام وحده هو الكفيل الكافل لتحسين حال الأمة العثمانية ، وحفظها من التفريق والتمزيق ، وببركته تصير قادرة على صد كل طامع فيها . وأمامنا اليوم شاهد عدل من الحرب بين الصين واليابان كيف أن أمة صغيرة تغلب أمة عظيمة هي عشرة أمثالها ، بفضل هذا النظام .

وأخيرا ، فإنني أستعير من مقدمة كتاب « ما هنالك ؟ » ، التي كتبها الدكتور علي شلش ، قوله : إن الخلافة العثمانية في السنوات التي عاشها المويلحي في عاصمتها (١٨٨٥ - ١٨٩٥) كان محكوما عليها بالسقوط . فكل ما يرويه المويلحي في فصول الكتاب دليل السقوط الوشيك . وهذا ما حدث بالفعل ، مما لم يشهده المويلحي في حياته . □

● أفضل الناس من تواضع عن رفعة ، وعفا عن قدرة ، وأنصف عن قوة .
(عبدالملك بن مروان)

مـن القـلـب

اعتقاد خاطيء

● قال الجراح الكبير لمساعده الشاب : قل لي : كيف كانت العملية الجراحية ؟ أرجو أن تكون ناجحة .

فشحبت ملامح الشاب وتمتم : هل قلت : إنها عملية جراحية ؟ اعتقدت أنها عملية تشريح .

هل تعرف ؟

● كان انجليزيان يتبادلان رواية النكات ، فقال أحدهما : اسمع يا عزيزي ، هل تعرف نكتة الدليل السياحي الفرنسي الذي كان يدل السياح على جمجمتين لجان دارك قائلا : إن الأولى كانت لها وهي فتاة صغيرة ، والثانية وهي امرأة فاتنة ؟

فأجابه الآخر : كلا يا عزيزي ، اروها لي .

صحيح ولكن :

● الأول : أنا أعشق مدينة لندن ، وأدين لهذه المدينة بأهدأ ساعات حياتي وأجلها .

الثاني : ولكنك لم تزر لندن .

الأول : صحيح ، أنا لم أزرها ، لكن زوجتي تقضي فيها شهرا كاملا كل سنة .



في الصميم

● صحيح أنني تحدثت كثيرا في ذلك المساء مع أناس مزعجين ، وذلك خشية أن أضطر إلى الاستماع .

« ريفارول »

● إذا أنت توقفت عن ترديد الأكاذيب عني ، أعدك بألا أقول الحقيقة عنك أبدا

« ماري ديماريه »

● إن أسوأ ما في الأكاذيب والإشاعات التي تنشرها حولك الصحف ، هي أنها غالبا ما تكون حقائق لا تقبل الشك أو الجدال .

« جان أنوي »

قاموس الظرفاء

رب العمل : هو الشخص الذي يتأخر عن الوصول إلى العمل عندما تبكر أنت بالوصول ، ويبكر بالوصول عندما تتأخر .

سائق سيارة الأجرة : هو ذلك الشخص الذي يتقاضى أجرا مقابل نقل الناس من راحة المنزل إلى تعب العمل .

الصديق المخلص : هو الشخص الذي يعرف حقيقتك ولا يصارحك بها .

ضحكات عربية

كريم

قال ابن حسان : كان عندنا رجل مقل ، وكان له أخ مكثر ، وكان مفرط البخل شديد الفخر . فقال له يوما أخوه : ويحك ، أنا فقير معيل ، وأنت غني خفيف الظهر ، لاتعينني على الزمان ، ولا تؤاسيني ببعض مالك ، ولا تتفرج لي عن شيء ، والله ما رأيت قط ولا سمعت بأبخل منك .

فأجابه : ويحك ، ليس الأمر كما تظن ، ولا المال كما تحتسب ، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك خمسمائة ألف درهم . يا هؤلاء ! أفرجل يهب في ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال له بخيل ؟

ضحكات عالمية

الوحيد

● قال الشاعر الفرنسي كاتول منديس مهاجما الكاتب المسرحي فكتوريان صاردو : إنه لا يستحق هذا النجاح .

فرد عليه أحدهم : أعتقد أنك تتحامل عليه ، فإن الجمهور يحب مسرحياته كثيرا .

فقال كاتول : الجمهور ؟ إنه الوحيد الذي يحبه .

الصلعة

لصديقنا في رأسِهِ صحراءُ
جفَّت فلا عشبٌ بها أو ماءُ
وكأنها الميدانُ مِنْ بَعدِ الوَغَى
فني الجميعُ فما به أحياءُ
تزداد مَامَرَّ الزمانُ مساحةً
وصديقُنا من كبرها يستاءُ
ولقد سمعناه يقولُ ودمعهُ
يجري فَيُعمي مقلتيه بكاءُ
كم من دواً للشعر قد جربته
يومًا فراحَ سُدى وظلَّ الدّاءُ
يا حسرتي ذَهَبَ الشباب وكان لي
فيه مآثر جمّةٌ غراءُ
أما الحسانُ الفاتناتُ فليس لي
مع صلعتي في وصلهن رجاءُ
قلنا له : مهلا فلم هَذا البُكا
واسمعْ ففي هذا الكلام عَزَاءُ
أوليس للإنسان في إحرازها
شرفٌ ويملك مثلَها العلماءُ
فأجاب : لا شرفٌ أريدُ ولا عُلا
أفما لديكم غير ذاك دواءُ ؟

« كان من أهم سمات الحضارة العربية الإسلامية قدرة المجتمع العربي على التسامح والتآخي ، هذه القدرة التي جمعت بين فئات المواطنين دون تمييز أو تفريق ، وعندما بدأت الأطماع الأوربية تجتاح الوطن العربي ، امتدت الأصابع لتشعل نار الفتنة وتلعب على وتر التفرقة ، وهذه وقائع أحداث واحدة من الفتن التي يسجلها تاريخ الوطن ، وما أشبه الليلة بالبارحة . »

من تاريخ الوطن العربي

أسرار الفتنة الطائفية

وبزوغ الوعي القومي في الشام

بقلم : الدكتور أسعد الأسطواني*

في مطلع القرن التاسع عشر كان الممثلون الرئيسيون على مسرح الأحداث في الشرق العربي هم : الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا ، وكانت الدول الأوربية تنتهج سياسات متنافسة ومتناقضة حول ما هو معروف بالمسألة الشرقية التي ولدت بالحقيقة من تضارب المصالح بين هذه الدول عندما بدأ الاقتصاد العالمي يدخل في طور الرأسمالية الصناعية .

المسألة الشرقية :

وكانت السّمة البارزة للقرن التاسع عشر هي التصنيع السريع لدول أوربا الغربية وانتشار الاستعمار الغربي في سائر أرجاء العالم . وكان نقصان المواد الضرورية لمعيشة بريطانيا سببا في اقتناصها المستعمرات المختلفة عبر البحار لتصريف انتاجها الصناعي،فكان ذلك يحتم عليها أن تسعى لبسط نفوذها في المشرق العربي لحماية طرق مواصلاتها نحو فارس والشرق الأقصى فأنشأت أسطولا بحريا معادلا في قوته جميع الأساطيل الأخرى المنافسة . وكانت بريطانيا حريصة كل الحرص على أن لا يكون لأي دولة أخرى كفرنسا وروسيا أي نفوذ على طرق مواصلاتها الى الهند .

وكان التنافس شديدا بشكل خاص بين الدولتين الاستعماريتين - فرنسا وبريطانيا - على اقتسام النفوذ السياسي والاقتصادي في أرجاء الامبراطورية العثمانية ولم يكن هذا الأمر مطروحا إبان قوة هذه الامبراطورية في العصور السالفة عندما كانت تشكل تهديداً خطيراً على الشعوب الأوربية الذين كانوا يعدون الأتراك مادة غريبة في جسم أوربا من الجوانب اللغوية والعرقية والدينية . ولقد وضعت الخطط الواسعة

* باحث وكاتب من القُطر العربي السوري

للقضاء على هذه الامبراطورية وباءت كلها بالفشل أثناء احتفاظها بقوتها .

ولكن في أواخر القرن الثامن عشر ، عندما أصيب العثمانيون بالضعف لم يعد الأوروبيون يكترثون من أجل القضاء على الدولة العثمانية لأنها أصبحت أحد الأطراف في لعبة التوازن الدولي . ومن هنا برزت المسألة الشرقية وأصبحت وظيفتها التي تقوم بها هي تنظيم توازن القوى بين الدول الأوروبية الأربع إضافة الى الدولة العثمانية .

حادثان خطيران

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر وقع حادثان خطيران كادا أن يطيحا بتوازن القوى ، وكان الحادث الأول احتلال القائد الفرنسي نابليون بونابرت لمصر ومباشرته غزو بلاد الشام ما بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٠١ . وقد شكل هذا الأمر تهديدا واضحا لقوة بريطانيا في الهند ، ولسلامة الامبراطورية العثمانية ، مما أدى الى تدخل بريطانيا العسكري وهزيمة نابليون برا وبحرا وتكريسها كدولة تصون استقلال هذه الامبراطورية وسلامة أراضيها .

وأما الحادث الآخر فهو تعاظم قوة محمد علي باشا في مصر . وكان ابنه ابراهيم باشا يهدف لانشاء دولة عربية قوية وهو الذى قال : « لقد صيّرتني شمس مصر عربيا » وعندما وصل إلى مدينة « أضنة » في أقصى شمال بلاد الشام كتب الى أبيه محمد علي باشا : « لقد توقفت في المدينة التي تنتهي فيها اللغة العربية » . وإذا كانت تجربة تلك الدولة العربية قصيرة في عمر الزمن إلا أنها أشعرت المستعمرين الأوروبيين بخطورة اندفاع المصريين نحو المشرق العربي فأبعدوهم زهاء قرن كامل وراحوا يخططون منذ ذلك الحين لزرع دولة يهودية في قلب الأمة العربية .

وبعد انسحاب المصريين من بلاد الشام شجعت مصالح الدول الأوروبية وتدخلاتها على إضعاف الدولة العثمانية فازداد نفوذ الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين لهذه الدول وراحت البضائع الأوروبية تغزو أسواق بلاد الشام عبر الوكلاء التجاريين المحليين الذين كان أغلبهم من الطوائف المسيحية .

الإصلاحات

ومما لاشك فيه أن حدوث الثورة الصناعية في أوربا أدى الى بروز علاقات عالمية جديدة حتمت على الدولة العثمانية السعي للحاق بأوربا . وكان أول عمل هام لها في هذا السبيل هو تحديث الجيش . وهكذا تم القضاء على نظام الانكشارية في عام ١٨٢٦ ، وكان يضم طوائف شتى من الجنود المرتزقة وحل محلها بعدئذ فرق من الجيش النظامي وفق الأساليب العسكرية الغربية .

وكان من نتائج وجود المصريين في بلاد الشام حدوث عدد من الاصلاحات الهامة . فأنشئت المدارس الحديثة ، وطبقت المساواة التامة بين المسلمين والمسيحيين . وقد شمل الإصلاح أيضا الادارة والقضاء ، وفتحت البلاد للمؤثرات الأوربية . ومع تبوء السلطان عبد المجيد الأول العرش العثماني في عام ١٨٣٩ صدر أول مرسوم للاصلاحات نتيجة للضغوط الأجنبية ، وكردّ فعل للإصلاحات التي أجراها ابراهيم باشا في بلاد الشام . وقد تلاه أيضا مرسوم آخر في عام ١٨٥٦ تم فيه الوعد بالمساواة بين المواطنين مهما كانت ديانتهم والتأكيد على مضمون المرسوم السابق . وكان الأمر البارز في هذه الاصلاحات أن الدولة أخذت بنظام الحكم المركزي ، فشددت قبضتها على الولايات العربية القريبة التي أصبحت مرتبطة مباشرة بالعاصمة استانبول .

ولتنفيذ سياسة القبضة الحديدية كان لابد للفئة الحاكمة في عاصمة الامبراطورية العثمانية ، أن تلعب على حبل التناقضات بين الطوائف المختلفة أسوة بالدول الأجنبية الأخرى

التي توازعت هذه الطوائف ، فاتخذ الفرنسيون جانب الموارنة فيما برز البريطانيون بمظهر المدافع عن الدروز ، فظهر الخلاف الدرزي الماروني على أشده في جبل لبنان ، فيما راحت الدولة العثمانية تستغل الأزمات الاقتصادية التي أصابت الحرفيين المسلمين في دمشق لتأجيج النعرات الطائفية بين المسيحيين والمسلمين .

الخلاف الماروني الدرزي في جبل لبنان

ولقد شكل الوجود المصري في بلاد الشام ضربة شديدة لبريطانيا التي راحت تسعى لجمع الأضداد ، فاستطاعت في نهاية الأمر تأليب الموارنة والدروز والشيعة على حكم الأمير بشير الشهابي الثاني وحليفه ابراهيم باشا . وهكذا اجتمع المتمردون في بداية صيف عام ١٨٤٠ ضد الحليفين اللذين استطاعا القضاء على التمرد .

ولكن في شهر سبتمبر (ايلول) من العام نفسه قصفت البوارج الأوربية مدينة بيروت بالمدافع ، ونزلت قوات بريطانية ونمساوية في مدينة جونية حيث انضمت إليها عصابات الثوار التي خرجت من مخابئها . وما أن دخل شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٨٤٠ حتى كان القائد المصرى الكبير يسحب قواته من البلاد ، وبعد أيام غادر الأمير بشير الثاني لبنان على ظهر بارجة بريطانية منفيا الى مالطة .

وما أن تسلم خلفه الأمير بشير الثالث زمام الأمور حتى عاد الزعماء الدروز الذين أجبروا على ترك البلاد في أواخر الحكم المصرى ، وبدءوا يطالبون بالحقوق والأراضي التي خسروها في العهد السابق . ولم ير الأمير الجديد بدًا من معارضة مطالب الزعماء الدروز ، فأدّى ذلك الى تفاقم العداوة بين الطرفين ، وفي أوائل عام ١٨٤١ توالت الحوادث بين الدروز والموارنة في منطقة دير القمر ، وانتصر فيها الموارنة فأضمر الدروز الانتقام .

وتدخل العثمانيون للتوسط في ظاهر الأمر ، ولكنهم راحوا يوسعون الخلاف بين الطائفتين ، ففي الوقت الذى كانوا يسعون فيه لإقناع المسيحيين بفوائد حكمهم المباشر كانوا يشجعون الدروز على نهب قُراهم وممتلكاتهم . وبعد ذلك أجبروا الأمير بشير الثالث على مغادرة البلاد ، وتمكنوا من بسط سلطتهم المباشرة على جميع أراضي لبنان ، ومن ثم نصبت الدولة العثمانية عمر باشا النمساوى حاكما على الجبل . وكان قناصل الدول الكبرى يشكلون مؤتمرا صغيرا دائما في بيروت ، فلم يرق لهم الحكم العثماني المباشر فبدءوا يتدخلون في كل أمر فلم يجد عمر باشا بدًا من الاستعانة بالموارنة ضد الدروز ، فاعتقل زعماءهم الذين ثاروا عليه واستطاع هزيمتهم بعد أن ضمن حياد الموارنة ، فتدخلت الدول العظمى ، وبعد مداولات عديدة صدر القرار بتقسيم جبل لبنان الى منطقتين ، احداهما في الشمال ويتولى شؤونها قائمقام ماروني ، والأخرى في الجنوب يتولاها قائمقام درزى ، على أن تكون الكلمة الأخيرة في القضايا الهامة لوالي صيدا (الذي كان يشرف على مدينة بيروت آنذاك) وأصبح طريق بيروت دمشق حدا فاصلا بين القائمقاميتين .

وهكذا عاش الجبل في جو من الهدوء النسبي حتى عام ١٨٦٠ ، فأتاح ذلك بروز التناقضات الطبقية بين الفلاحين الموارنة ومشايخهم وأمرائهم من الملاّكين الكبار . ولقد وجد الاقطاعيون الموارنة بعد أن طردهم فلاّحوهم في كسروان في يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٥٩ ملجأ لدى الاقطاعيين الدروز الذين خشوا من ثورة مماثلة عليهم من قبل فلاّحيهم فراحوا يستعيدون الذكريات القديمة المؤلمة ويؤججون النعرات الطائفية من الفلاحين بين كلا الطرفين ، فانقلب الصراع الطبقي الى صراع طائفي . وما أن جاء ربيع عام ١٨٦٠ حتى كان الطرفان يتبجحان باستعدادهما للقتال الذى اندلع فجأة من خلال علة أحداث طائفية في زحلة ودمشق .

وقبل الحوادث ، كانت أنباء الفتنة الطائفية في لبنان قد وصلت الى استانبول ، وشاعت أخبارها في البلدان الأوروبية ، فأراد السلطان عبد المجيد استباق ردود الفعل وتلافي ذيولها بسرعة قبل تدخل الدول الأجنبية ، فأرسل فرقة من الجيش مع وزير خارجيته فؤاد باشا مزوداً بصلاحيات واسعة . وعندما وصل الوزير الى بيروت أمر باعتقال والي صيدا خورشيد باشا ووالي دمشق أحمد باشا ، وتم اعدامهما بعد محاكمة سريعة .

تم انتقل فؤاد باشا الى دمشق وأمر بالقاء القبض على عدد كبير من الناس واعدام ١١١ شخصاً من المتهمين ، كما تم اعتقال أعضاء مجلس الولاية وعدد آخر من أعيان دمشق وعلمائها ونفيهم الى قبرص وتركيا ، على الرغم من أن المحاكمات لم تثبت اشتراكهم أو ضلوعهم في الحوادث ، مما يشير بوضوح الى أن الدولة العثمانية هدفت أيضا الى تلقين الدمشقيين درسا بليغا مفاده أن لا تطمحوا الى أي حكم مستقل وذاتي في المستقبل ، (وتوجد وقائع عديدة تشير الى الظلم الذى عاناه أبناء دمشق على أيدى الحكام الأتراك لا مجال لذكرها هنا) .

التمسك بالهوية العربية

وهنا لابد لنا أن نتساءل : هل كانت لدى أهالي دمشق طموحات وطنية وعربية ؟ كان أعيان دمشق في المدينة القديمة يشعرون بقدرتهم على التصرف المستقل عبر نظام اقتصادى واجتماعي متماسك ألفوه منذ قرون طويلة .

وكانت صدمتهم من تطبيق الاصلاحات شديدة ، لأنها اقترنت بتغلغل الأجنبي عبر قنصلياته ووكلائه التجاريين . فلقد احتكر أبناء الطوائف غير الاسلامية تجارة بلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكانوا واسطة نفوذ الرأسمالية الأوروبية في الشرق العربي . وكانت العائلات التي اغتنت أكثر من سواها هي العائلات المسيحية التي ارتبطت بشكل كامل بالسوق التجارية الأوروبية ، وبالمقابل تأثرت الحرف والصناعات المحلية في المدن الشامية ، خاصة مدينة دمشق ، من منافسة البضائع الأوروبية فتوقفت أعمالها مما دفع بأصحابها الى الفقر والافلاس والى اثارة الحقد والنقمة والبغضاء عندهم .

وكان الأعيان ، من الأشراف وأبناء الأسر الدينية العريقة ، يقومون بدور الوسيط بين الحكام والمحكومين . وكان يعيش معهم في المدينة الحرفيون والباعة الذين اعتادوا على نمط واحد من الحياة ، فلم يحاولوا تحسين وتطوير إنتاجهم ليواكب جودة وتقدم البضائع الغربية . وكانت الحرفة هي التي تضمن استمرار التقاليد العامة وتقاليد الأحياء الخاصة التي يخضع لها الحرفيون في علاقاتهم الاجتماعية والعائلية ، وكانوا بشكل أو بآخر تحت رعاية السلطة الدينية القديمة . وعندما هزت الصناعات الغربية أركان المجتمع القائم خسرت دمشق منافذها التقليدية ، بل انها خسرت نفسها وكل ما يمت الى وجودها الذاتي بصلة،فالعدو داهمها في عقر دارها . وكان رفض الغرب هو الرد الأول عبر رفض وكلائه التجاريين . ولقد كان ذلك في رأى الأعيان والعلماء الحرفيين دفاعا عن الوجود والنفوذ ولقمة العيش .

ومن جهة أخرى امتزج الفكر الديني بالنزعة الوطنية لدى أبناء دمشق ايذانا برغبتهم في التحرر من حكام استانبول . وكانوا عبر التمسك بالمواقع والدفاع عن المصالح يبحثون عن هويتهم العربية الشاردة ولسان حالهم يقول : نحن لسنا أتراكا ، نحن عرب ، وإن كنا عثمانيين ! ولقد رفضوا التبعية للأجنبي ، أي أجنبي ، سواء كان بريطانيا أو فرنسيا أو تركيا ، فمنذ مطلع القرن التاسع عشر ساهموا في صد الغزو الفرنسي عن بلاد الشام ، وحطموا جميع القنصليات الأجنبية في عام ١٨٦٠ . وقد ثاروا على والي دمشق التركي محمد سليم باشا في عام ١٨٣١ ، وقتلوه

هو وجميع أعوانه ، ولم تتناسب تلك الثورة بعنفها وقوتها مع مطلبهم المتواضع بالغاء ضريبة عقارية وجدوها مجحفة بحقهم .

وكانت الأنباء تبشر بقرب مجيء ابراهيم باشا المصري فاستقبلوه بترحاب كبير في عام ١٨٣٢ . وكان استقبال الدمشقيين للأمير عبد القادر الجزائري الذي اختار مدينة دمشق لسكناه في عام ١٨٥٥ بالغا حد الروعة . فلقد عبّروا بذلك عن نزعتهم العربية العميقة أمام البطلين العربيين الكبيرين فشعروا إزاءهما بالعزة والكرامة مقابل إحساسهم الدائم بالقهر والإذلال أمام الأتراك .

بزوغ الفكر القومي العربي

وكان من النتائج السريعة للأحداث الطائفية ، أن تنبه عرب بلاد الشام من مسلمين ومسيحيين الى ما يحاك لهم في الظلام لمنع التقائهم على أساس رابطة العروبة ، فجاءت الخطوات الأولى في هذا السبيل من العرب المسيحيين الذين تبلور لديهم شعور عربي أصيل بدا على مستوى تذوق اللغة العربية ، وعلى مستوى السعي لتحقيق نوع من التضامن يتخطى الحدود الطائفية ، وضمن مفهوم جديد يهدف الى تنمية الحس القومي العربي واجراء نهضة شاملة في جميع نواحي الحياة .

وفي هذا السياق نذكر عددا من المثقفين والمتعلمين من أمثال أحمد فارس الشدياق وناصيف وابراهيم اليازجي وبطرس وسليم البستاني وأديب اسحق وفرنسيس فتح الله مرّاش وغيرهم كثيرون .

ومن أهم ما تم على أيديهم أو أيدي بعضهم نشوء الجمعية العلمية السورية في بيروت في عام ١٨٤٩ (وكانت كلمة سورية تشمل في معناها لبنان وفلسطين وسورية الحالية) ، وظهور تيار ثقافي يمكن أن نصفه بالتيار الوطني العلماني الذي يعتمد المبدأ الوطني وينبذ الطائفية ويتميز بإحياء اللغة العربية وجعلها أداة طيّعة لاستيعاب العلوم والمفاهيم الحديثة ونشرها في البلاد .

وكان السيد بطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) أول من ألف في الخمسينيات دائرة معارف عربية تبدى اهتماما ملحوظا باللغة العربية ، كما راح ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦) يلقي في الجمعية العلمية السورية في عام ١٨٦٨ قصيدته المشهورة :

تنبهوا واستيقظوا أيها العرب
فلقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

وكانت القصيدة مشبعة بروح التمرد ، وقد دعا السوريين فيها الى الوحدة لإسقاط الحكم التركي :

لنطلبن بحد السيف مأربنا
ولن يخيب لنا في جنبه أرب

ولعل لأحمد فارس الشدياق (١٨٠١ ـ ١٨٨٧) المولود في لبنان ولفرنسيس فتح الله مرّاش (١٨٣٦ ـ ١٨٧٣) المولود في حلب ، وأديب اسحق (١٨٥٦ ـ ١٨٨٥) المولود في دمشق ، الفضل الأول في التنبيه الى الفرق الشاسع بين الظلم في الوطن الذي ينتمون إليه والحرية السياسية التي يتمتع بها الغربيون . أما فيما يتعلق بالأمة فإن النزعة القومية العربية واضحة في كتاباتهم وأشعارهم ، وقد تألم هؤلاء الثلاثة للنزعات الطائفية التي مزقت بلاد الشام ما بين عامي (١٨٤١ ، ١٨٦٠) فاستحال عليهم الشعور بأن الدين هو الرابطة الوحيدة ، فراحوا ينادون بالرابطة العربية .

ولم تكن فكرة العروبة من وحي أو من صنع العرب المسيحيين وحدهم ، فلقد كان الشعور بالانتماء العربي موجودا قبل الاسلام ، وكان واضحا إبان اندفاعات الاسلام الأولى عندما قام العرب الأوائل بانشاء الدولة العربية الاسلامية من الأندلس حتى تخوم الهند . والجدير بالذكر أن الاسلام لم يحارب المبدأ القومي ولم ينظر العلماء المسلمون الى فكرة الأمة العربية على أنها شيء غريب منافس للدين أو مناقض له ، وذلك اقتداء

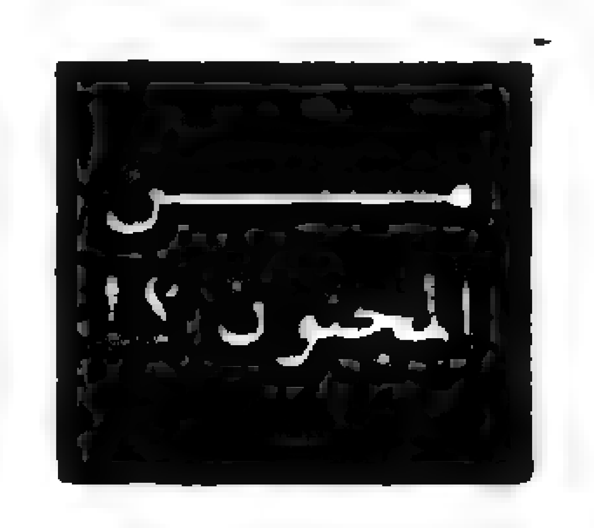
بقول الرسول العربي عليه السلام : « أيها العرب ، الرب واحد والأب واحد ، وإن الدين واحد . وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وانما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي »

وهكذا نمت فكرة الأمة العربية مع نمو فكرة الاسلام ، بل انها وقفت في القرن التاسع عشر أيام الفكرة العثمانية ؛ تناظرها وتناقشها وتتصدى لها وتطالب بحقها منها ، ثم تعدها مغتصبة للخلافة الاسلامية ، وخاصة عندما شرعت النزعة الطورانية التركية تكشر عن أنيابها في أواخر القرن التاسع عشر . . حتى الحرب العالمية الأولى في القرن العشرين ساعية الى تتريك الولايات العربية القريبة من عاصمة الدولة العثمانية كبلاد الشام والعراق .

وكان السيد عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢) والسيد محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥) من بين أئمة الاسلام في زمانيهما، ومع ذلك أعلنا صراحة تفضيل العرب المسلمين على الأتراك المسلمين ، فلقد كان موقفهما وقولهما بأن العرب هم مادة الاسلام وهم أحق بالخلافة من الأتراك ، يفصح عن إيمان أصيل بحق العرب في تنظيم حياتهم سياسيا على أساس وجود الأمة العربية . وفي كتاب « طبائع الاستبداد » وجّه عبد الرحمن الكواكبي كلامه الى الناطقين بالضاد من العرب المسيحيين قائلا : « ياقوم أدعوكم الى تناسي الأحقاد والإساءات وما جناه الأباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدى المثيرين (يشير الكواكبي الى موقف الدول الأوروبية في تشجيع واثارة هذه الأحقاد) يا هؤلاء : نحن ندبر شؤوننا ، نتفاهم بالفصحى ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء ، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرة فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي : فلتحيا الأمة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء اعزاء ، أدعوكم وأخص منكم النجباء فلنبصر ولنتبصر فيما آل إليه المصير . . » .

وقد تابع السيد نجيب عازورى العربي الماروني أفكار الكواكبي ورضا وأعطاها تعبيرا أوضح وأكثر تحديدا في كتابه الذى نشره بالفرنسية سنة ١٩٠٥ « يقظة الأمة العربية » ، حيث انطلق في نظرته من واقع العرب عند الفتح الاسلامي ، وبأن سياسة العرب هي سياسة التحرير لا القهر ، بينما « الأتراك يضطهدون المسلمين العرب أكثر من اضطهادهم المسيحيين إلا أنهم يحرضون أولئك على هؤلاء » . وكان يتحدى دوما الأتراك بقوله بأن « النبي عربي والقرآن عربي ولغة السماء عربية » ، ويتبنى نجيب العازورى فكرة خلافة عربية روحية يشمل سلطانها الديني العالم الاسلامي كله ، وتكون لها سلطة زمنية في الحجاز ، والى جانب الخلافة الروحية تقوم امبراطورية عربية تمتد من وادى دجلة والفرات الى السويس ومن البحر الأبيض المتوسط الى بحر عُمان ، تحكمها ملكية دستورية حرة وسلطان عربي . □





● اشترى الإمام الشافعي رضي الله عنه جارية فلما كان الليل أقبل على الدرس ، والجارية تنتظره ، فلم يلتفت إليها ، فذهبت إلى النخاس ، وقالت : حبستموني مع مجنون . فبلغ ذلك الشافعي فقال : من عرف قدر العلم وضيعه أو توانى في تحصيله حتى فاته فهو المجنون .



تجربة محمد علي التحديثية

بقلم الدكتور : أحمد عُلبي

لسنا مسرفين إنْ قلنا إن محمد علي هو المؤسس الحقيقي والباني الفعلي لمصر الحديثة ثم لا غرابة أن يلتفت محمد علي أول الأمر الى الجيش ، فهذا الجيش أمسى بالياً ، ولهذا سَهُل على بونابرت القضاء عليه والدولة الحديثة ، المتطلعة ، لا يستقيم لها الأمر من غير جيش منظّم . وأدرك محمد علي تقدّم الأوروبيين في هذا الميدان ، لذا طَمَحَ الى أن يبني جيشا مصريا عصريا على النمط الأوروبي ، فاستعان بأساتذة إيطاليين وفرنسيين لتنظيم الجيش كما شيّد محمد علي أسطولا حربيا وأسطولا تجاريا بعد ذلك ، وما يستتبع من ترسانات وأحواض ولهذا كله لم يكن غريبا أن تكون الطغمة العسكرية إحدى ركائز النظام الجديد . إن الاستعانة بالعناصر الأجنبية أملت الحاجة الى مدرسة الألسن . ثم إن التطور الذي عصف بمصر ، وقد التفتت شطر الغرب ، دعاها الى إرسال البعوث الى أوروبا ابتداء

دولـة حديثـة . وإلا فما معنى أن ينشىء محمـد علي ديوان المدارس ، وأن يؤسس المدارس الكبرى على أنواعها ، ويأتي لها بـالأسـاتـذة من إيطاليـا وفرنسـا وانكلترا ؟ ولهذا نـظم محمـد عـلي الادارة ، وقـد « مصّرها » بواسطة بيـروقراطيـة منتقاة تعـوّل على الكفاءات ، واستعان بالأقباط في هذا السبيل . ثم إن الدولة ليست جيشا وجهازا حكوميا فقط ، إنما مشاريع ومؤسسات وتخطيط للمستقبل وهذا مـا نهض به محمد علي عندمـا حكم مصر حكـما قارب نصف قرن ، فأتاح له هذا الزمن ، مع ما عرف عنه من حس « برغماتي » يحتاجه أي حاكم حقيقي ، أن يحقق الكثير من مـطامحـه في البنـاء الاقتصـادي ، بـالاضافـة الى ما تقـدم من البناء الثقـافي ، المتمثل بـالتعليم العـالي عـلى أوسـع نـطاق ، وبـاعـداد « الكوادر » العلمية الكفوءة والمتفوقة وهكذا وجدنا محمد علي يصب اهتمامه على الأرض ، ومصر بلد زراعي في المقام الأول ، فيعنى بالتوسع في مشروعات الري ويطور أساليبه ، وذلك لزيادة المساحة الصالحة

ثمـرات هذه الحركة على دولاب [illegible] الكتب المترجمة . وإن الذين يحتجون على محمد علي تركيته ، عليهم أن يتذكروا أن محمد علي هو الذي أحيا العربية في مصر وكرسها لغة رسمية وثقافية ، وبلغ به الأمر أنه فرض الأزياء العربية على من يعملون في خدمته من الافرنج كما ألزمهم بتعلم العربية . ثم إن محمـد علي أول من استقـل بمصر عن الـدولـة العثمانية وإن الحملة التي أرسلهـا الى سوريـا ، وقادها ابنه ابراهيم باشا ، وكاد أن يهدد بها الأستانة نفسها ، هذه الحملة التي أرعبت أوروبا ، فسارعت الى نجدة « الرجل المريض » المتمثل بتركيـا ، ذات دلالة تاريخية بالغة . كان محمد علي يستشرف الأفق العربي ، ونخال أن جمال عبد النـاصر في عصـرنا لم يكن ينـأى بالأسـاس عن نفس الاستشراف .

مصر « تتأورب »

كانت مصر « تتأورب » ، فأعضاء البعوث عادوا اليها بروح جديدة ، كما أن الأوروبيين قصدوا مصر

أصلاً على طريق الهند . وخال اسماعيل أن الجُبّة تصنع الراهب ، فقد سفح الأموال ، من غير وعي أو تحوّط ، في مظاهر أوروبية كثيرة غير مجدية ، وطلبا للزينة والبذخ والترف ، فكان أن أودى بمصر الى الافلاس المالي . فأصبح التدخل الأجنبي ، لادارة شؤون مصر عبر الدائنين الأوروبيين ، جِهَارا نهارا ، مما استفزّ الحركة القومية التي نهضت رافعة الشعار الغالي : مصر للمصريين . وحمل الأدب أصداء هذا النهوض الوطني كما أن أبناء الفلاحين المصريين قد شرعوا يدخلون الجيش ، ووصل بعضهم الى المناصب الكبرى ، فوقف أحمد عرابي على رأس الوطنيين الوقفة الشهيرة في ساحة عابدين ، مناوئين الضباط الأتراك والجراكسة ، وذلك في عهد الخديوي توفيق الذي خلف اسماعيل عقب إقالته سنة ١٨٧٩ . فاستعان توفيق بالانكليز ليقضي على وثبة الجيش ، مما أفضى الى الاحتلال الذي ظل جاثما على صدر مصر منذ سنة ١٨٨٢ حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ .

رد فعل طبيعي حيال مظاهر تتبدى « عجيبة » لمن كان متخلفا عن ركبها . والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ، المعاصر للحملة الفرنسية على مصر ، يعبر في كتاباته أوفى تعبير عن دهشة الانسان الشرقي المتخلف أمام الحياة الغربية والتقدم الغربي وجاء محمد علي فانتقل من حيز الدهشة الى حيز الاقتباس العملي والأخذ الناشط فكان الجيش العصري ، وكانت البعوث ، وكانت مدرسة الألسن ، وكانت الترجمة للعلوم العملية التي تساعد على تنشئة الاختصاصيين وعلى القيام بالمشاريع التطويرية التي تبدل التركيب التحتي للمجتمع . أما ترجمة الآداب فتأتي دائما في مرحلة تالية ، لأنها تتصل بالحياة الروحية والترف الثقافي . ومع ذلك يبقى هناك فارق ذو شأن بين المرحلتين العباسية والنهضوية . فقد تأثر العرب في زمنهم العباسي بغيرهم ، وكانوا أقوياء سياسيا ويديرون شؤون امبراطورية عظمى . في حين أن عرب النهضة قد أناخ عليهم العثمانيون قرونا ، فأفقدوهم مناعتهم التراثية ، وضؤل العلم بينهم كثيرا ، وغدوا في الواقع عالة على التاريخ لا حَمَلَة

له . ومن هنا ندرك كيف أن الثقافة الغربية اكتسحتهم في هذه المرحلة الحديثة ، فهم بلا سلاح فكري ، وبلا استقلال سياسي ، وكيانهم الاجتماعي انحدر نحو الجمود ، بحيث ان العملية التطويرية في أبسط تجلياتها تحتاج عندهم الى إذن وفتوى .

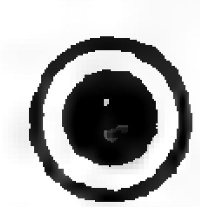
ويتضح هذا التخلف ، الراسخ الجذور ، من تجربة محمد علي وما قوبلت به من مقاومة ، ناتجة أساساً من غربة أصحابها عن التطور في أبسط مفاهيمه . نعرف مثلاً أن محمد علي أسس المدارس العليا ، ومن أقدمها وأجلها وأشهرها المدرسة الطبية المصرية في أبي زعبل والمستشفى الملحق بها ، وذلك سنة ١٨٢٦ ، وتم نقلها بعد ذلك إلى قصر العيني سنة ١٨٣٧ . والمدرسة والمستشفى اقترن اسمهما بالدكتور كلوت بك ، وهو فرنسي أسسهما وأشرف عليهما ودرّس فيهما الجراحة . وكان الأساتذة الأطباء الذين تولوا التدريس من الفرنسيين ، أما الذين عملوا في الجيش المصري فكانوا من الفرنسيين والإيطاليين وبعد مضي عشر سنوات ، على تأسيس هذا المركز العلمي ، تخرج منه أربعمائة وعشرون طبيباً وصيدلياً . ولا بأس أن نذكر ههنا أن الأمير بشير الشهابي الكبير الذي كانت تربطه بمحمد علي علاقة تحالفية ، أوفد بعثة لبنانية إلى قصر العيني لدراسة الطب ثم إن الذين قاموا بنقل العلوم الحديثة إلى العربية ، أو عمدوا إلى التلخيص ، أو التأليف فيها ، كانوا من تلاميذ المدرسة الطبية المصرية وذلك أن لغة التدريس المعتمدة في هذه المدرسة كانت العربية ، لكن في بداية العمل كان يصحب الأستاذ الفرنسي ترجمان ، لأن محمد علي رغب في العمل فوراً ، فلم ينتظر حتى يتعلم الطلاب الفرنسية ، أو حتى يتعلم الأساتذة العربية ، أو حتى يتم نقل الكتب اللازمة إلى العربية وهؤلاء التراجمة الذين توسطوا بين الأساتذة والطلاب ، كانوا من اللبنانيين والمغاربة والأرمن وكان الناس البسطاء يستهولون أن يغدو المصري طبيباً ، ولكن الدكتور كلوت بك أفلح في أن يجعله كذلك ، معولاً على جهده الطليعي ، وعلى دعم محمد علي القوي لمسعاه . وهذه المدرسة الطبية المصرية كانت الأولى في الشرق العربي ، وتبعتها بعد أربعين سنة تقريباً الكلية السورية الانجيلية في بيروت (أي الجامعة الأمريكية) . ولكن الدكتور كلوت بك واجهته المصاعب ، فلا تدريس للطب من غير تشريح ، والقوم يأبون هذا . فتم في البداية تشريح الكلاب ، ثم عمدوا إلى تشريح جثث الأقباط وجثث العبيد .

ولجأوا إلى المدافن المهجورة يستعينون بالجماجم والعظام منها . وتم لهم أخيرا الاذن بتشريح من يتوفون لديهم في مستشفى قصر العيني . وفي عهد محمد علي وفدت الأوبئة على مصر ، غير مرة ، لا سيا الطاعون والكوليرا ، وكانت تترك ضحايا بعشرات الآلاف . وحاول الدكتور كلوت بك إقناع الناس والجند باللقاح الواقي ، ولكنهم خافوا ورفضوا . فكان أن لقح كلوت بك نفسه ، خلال حفلة جامعة دُعي اليها الأطباء والصيادلة والأعيان وكبار الموظفين ، وذلك ليقنعهم جميعا بجدوى التلقيح . وأضاف محمد علي سنة ١٨٤٢ إلى مدارسه الكبرى فرعا طبيا للنساء لتخريج القوابل ، وهيأ لهذا الغرض مستشفى خاصا . ولكن المصريات لم يعجبهن هذا الجديد الطارىء ، فكان أن استعان محمد علي بالجواري الحبشيات لتحقيق مأربه . وقد يقول قائل إن الأمر رهن بالتقاليد ، وهي ضاربة عميقا في أرض المجتمع ، ولكن ما رأي المسوّغين إذا ما أفدناهم أن محمد علي عندما أراد شق شارع مستحدث وسط القاهرة ، بعد أن ازدحمت بالأعمال التجارية والمركبات وعسُر السير عبْر الأزقة الضيقة القديمة العهد ، فإنه على الرغم مما عُرف عنه من جرأة وعزم ، استفتى العلماء قبل المباشرة فيه ، فكان أن جاءت فتواهم تدعوه إلى جعل هذه السكة الجديدة ذات عرض يسمح بمرور جملين محملين بغير مشقة ، فكان أن قدّر الأمر بثمانية أمتار . إن التخلف عنيد ، لكن التقدم ، عندما يقف وراءه رجال أشدّاء نظير محمد علي ، هو عنيد أيضا وجسور .

والأدب والحياة . وهذا الجديد تمثّل بالتيار الذي تنبّه لآثار الحملة الفرنسية ، ولإصلاحات محمد علي ثم إسماعيل ، ورأى في الغرب موئل التقدم والحداثة وبناء الدولة العصرية . وهو التيار الذي أضحى الغرب بآدابه متنفّس تطلعاته الروحية . وهكذا نهضت حركة ترجمة للآداب الأوروبية ، والفرنسية منها والانكليزية بخاصة ، والروسية أيضا ولكن نقلا عن اللغتين المتقدمتين ، ودخل العربية موليير وكورناي وشكسبير وتولستوي وتشيخوف . وإذا بمئات المسرحيات والقصص والروايات الغربية تطرح نفسها على الجمهور العربي . وتبدّت العربية مطواعةً في عملية نقل هذه الآداب والأفكار والمشاعر .

وهذا التيار « المتغرّب » المناوىء للأزهر ، هو الذي توّج سعيه الثقافي ، في مطلع هذا القرن العشرين ، بافتتاح الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ ، وكشفت على النمط الأوروبي في برامجها وطريقة توجيهها للأدب والتاريخ والفلسفة . ولقد توالى على منابر الجامعة المصرية أعلام المستشرقين من إيطاليا وفرنسا يلقون فيها ما ألفوه في بلادهم من علم منهجي مصوغ في قالب تأليفي متناسق متكامل بسل إلا بعضهم ، وهم قلّة نادرة ، قد كتبوا بالعربية . ولعل خير مثال باهر على هذا الجمع الرائع بين التأليف العلمي المشرق ، والعربية الرفيعة الصافية ، هو كارلو نلّينو في محاضراته التي صدرت بعد ذلك في كتاب « تاريخ الآداب العربية ، من الجاهلية حتى عصر بني أميّة » .

لقد ترك الغرب في الحياة الثقافية العربية آثارا عميقة . وليس الإشكال في أننا أخذنا عن الغرب وتتلمذنا له ، فالتواصل الحضاري قانون إنساني تتبيّنه في الحضارات كافة . فهذه اليابان أخذت وتخطّت ، وشرع الغرب نفسه يلحق بها لاهثا ليفيد من تجربتها الفريدة . في حين أننا أخذنا كل شيء عن الغرب ، علماً وثقافة وأدوات ومأكلا وملبساً ونمط حياة ، ومازلنا راسفين في أغلال التأخر . بل إننا بالقياس إلى التقدم الغربي العاصف ، نمشي ربما إلى الخلف ، وتزداد الهوّة اتساعا بيننا وبينه ، عوض أن تضيق . كنا في نهضتنا عيالاً على الغرب ، وما برحنا نقتفي أثره في مختلف مرافق حياتنا . ولسنا نطمح إلى « الاستقلال » الناجز عنه ، لأن العالم المعاصر يعيش في الواقع حضارة كونيّة ذات أنماط متقاربة ، وهي أنماط مستقاة ومستلهمة من الحضارة الغربية على الأخص . وبالتالي فالمرتجى ألا نظل « متسوّلين » عند باب هذه الحضارة الغربية ، وإنما يجب أن نشارك فيها ، ولو بقدر يسير جدا □





● أوصى لقمان بن عنقاء بن بيرون ابنه فقال : يابني ، كن على حذر من اللئيم إذا أكرمته ، ومن الكريم إذا أهنته ، ومن العاقل إذا هجرته ، ومن الأحمق إذا مازحته ، ومن الجاهل إذا صاحبته ، ومن الفاجر إذا خاصمته .

هل يستطيع المسرح أن يعلِّم دون أن يكون ثقيلا مملا ؟ وهل يمكنه أن يعلم دون أن يقلل من قيمة الموضوع الذى تعالجه المسرحية ؟ وهل بوسعها أن تبقى ـ بعد أداء رسالتها التعليمية ـ عملا يتصف بالصدق الفني أو النضج الأدبي فلا تتحول إلى محاضرة في الأخلاق أو الاقتصاد أو السياسة أو الايديولوجيا ؟

المسرحية التعليمية والتغيير

بقلم : الدكتور حسن عباس

المسرحية التعليمية ـ كما تدل عليها تسميتها ـ تحاول تلقين المشاهد أفكارا ومبادىء وحقائق معينة من خلال العرض المسرحي ، وهي في كل ذلك تعلمه كيف يعمل على تغيير العالم في صورته التي رآه عليها بريخت . ولكننا عندما نصف مسرحية ما بقولنا إنها مسرحية تعليمية ، نكاد نصدر عليها حكما بالموت ، فليس هناك من الناس من يسره الجلوس إلى مقاعد الدرس حتى وإن كانت أرائك مريحة في صالات عرض فخمة . فالمسرحية ـ بما هي تعليمية ـ لا بد لها من أن تؤدى رسالة ما ، أو أن تبث دعاية ما ، وهي في كلتا الحالتين تتسم بالعبوس والتجهم ، وأسوأ من ذلك انها تدعي لكاتبها تفوقا وامتيازا عقليين يبيحان له الوقوف أمام حشد من الناس معلما وناصحا ومرشدا ، فذلك ينأى بالمسرح عن الاعتقاد السائد الذى يرى فيه مكان ترفيه وتسلية .

بريخت والمسرحية التعليمية

ـ قد يقال ان بريخت لجأ إلى المسرحية التعليمية ليبث من خلالها ايديولوجية جديدة اعتنقها والتزم مبادئها بعد ان عكف على دراسة الماركسية والاقتصاد في السنوات التي امتدت من عام ١٩٢٧ إلى عام ١٩٣٠ ، وهذه الايديولوجية تبدو جلية واضحة في معظم المسرحيات التعليمية التي كتبها ، قد يقال ذلك ، ولكن كتابات بريخت للمسرح التعليمي وعنه ، ترينا ان ليس هناك ـ

من كتاب المسرح ـ من كتب بمثل الحماسة وقوة الدافع الأخلاقي اللتين تقفان وراء الرغبة في توجيه الفن المسرحي نحو غايات تعليمية . لقد كان بريخت على بينة من كل كلمة يكتبها ، وكان يريد لهذه المؤسسة ذات التأثير الواسع ـ المسرح ـ أن تكون في خدمة الثقافة الجماهيرية ، كما أراد لها أن تكون وسيلة امتاع وثقافة في آن معا .

يتساءل بريخت لقد أصبحت خشبة المسرح تثقف، فالنفط. والتضخم، والحرب، والصراع الاجتماعي، والعائلة، والحنطة، والمتاجرة بالحيوانات المعدة للذبح، كل ذلك أصبح مادة للعرض المسرحي.. لقد أصبح المسرح حقل نشاط للفلاسفة، اولئك الذين (لا يسعون إلى توضيح العالم فقط) بل إلى تغييره أيضا، فظهرت الفلسفة على خشبة المسرح، وبهذه الصور ظهر الاتجاه الوعظي، فإلى أين ذهبت التسلية؟

إن وضع التعليم في مواجهة التسلية أمر يسيء إليهما معا، ذلك ان كلا منهما - في العمل الفني الصادق - يكمل الآخر. ويختلف مفهوم التعليم باختلاف الفئات الاجتماعية، فهناك من الناس من ينظر إلى الأشياء في البيئة الاجتماعية على انها كل جامد صلد لم يعد قابلا للتغيير، وإن ما هو متاح من متع العيش فيه ما يكفي. إن مثل هؤلاء الناس قد خاب فيهم الظن، وفقد الأمل، فليست البنية الاجتماعية هي التي تستعصي على التغيير، بل إن إرادتهم الواهنة هي التي تعجز عن احداثه. «لكن هناك فئات أخرى لم تذق طعم الفطائر. إنهم يريدون أن يدركوا كل شيء مهما كلف الأمر، (وهم) يعرفون انهم (ضائعون) ان لم يتعلموا، ويمثل هؤلاء أحسن التلاميذ، وأكثرهم تعطشا للمعرفة. إن مثل هذه الاختلافات توجد أيضا بين الشعوب والأقطار.» فالرغبة في المعرفة تمليها ظروف اجتماعية أيضا وليست وقفا على الميول الفردية.

بين العلم والفن

ويرى بريخت أن هناك من التعليم ما يجلب سعادة النضال، ولو لم يوجد مثل هذا التعليم لفقد المسرح. ويتساءل «.. ما هو العنصر المشترك بين العلم والفن؟ إننا نعرف جيدا أن العلم يمكن أن يكون مسليا، ومع ذلك، فليس كل ما يسلي يمكن أن يقدم على خشبة المسرح.»

ليس الفن - في العصر الحديث - بمعزل عن العلم مهما بدا البون شاسعا بين هذين الفرعين من فروع النشاط الانساني. وعلى الرغم من ان كلا منهما يمارس تأثيرا خاصا، وبأسلوب خاص فان الكاتب المسرحي - وهو فنان - لا يستطيع العمل بعيدا عن منجزات العلم كالإنارة المتطورة، وآلية المسرح التي بلغت شأوا كبيرا من التقدم التقني، فضلا عن حاجته إلى العلوم المساعدة في إيضاح حالة ما، كعلم النفس إذا كانت الشخصية تتحدث عن الغرائز، أو الدوافع، أو كعلم الاقتصاد إن كان الموقف يتطلب تشريحا لطبقات اجتماعية من حيث دخولها ومكاسبها وطرائق عيشها. يقول بريخت «ومهما بلغت كمية المعرفة العلمية التي يتضمنها العمل الفني، فان هذه المعرفة يجب أن تتحول إلى فن. إن امتلاكها - هو الذى يمنح تلك السعادة التي يثيرها العمل الفني.» ويضيف بريخت في «حوارية شراء النحاس» إلى ذلك قوله: فلكي يبدع المرء عملا فيه الكثير من الإلتباس، والكثير من التعقيد، كما هو شأن المسرحية التي تحاول عرض حياة الناس الإجتماعية، فان المعرفة التي (تمده بها) تجربته المعاشية ليست كافية على الاطلاق. فبدون معونة الاقتصاد والسياسة، لا يمكننا أن نفهم أنماط السلوك عند معاصرينا.

التعليمية والتجريب

والمسرح التعليمي تجريبي أيضا. لقد مر المسرح الأوربي الجاد بمرحلة من التجريب أسهمت فيها أجيال عديدة، ولم تصل إلى غايتها بعد. كانت تلك التجارب في خطين متوازيين يتداخلان أحيانا، فكان أحدهما يعزز جانب التسلية، وكان الآخر يعزز جانب التعليم. ولما كانت التسلية تستهلك بسرعة، فقد دأبت تلك التجارب في سعيها للعثور على مؤثرات جديدة.

كانت تناقض سير الحدث وتقطعه مما يحول دون الاندماج فيه ، وكان يأمل أن تكون الأجزاء المفعمة بالوعظ الأخلاقي ، والأغاني التعليمية مسلية قدر الإمكان . وهي تسلية تختلف عن نوع التسلية التي تقدمها المسارح التقليدية . إن المتعة الناجمة عن التعليم تتوقف على طبيعة الطبقة الاجتماعية ، كما أن الذوق الفني يتوقف على الموقف السياسي الذى يعود إليه الفضل في أن يقبل المتفرج ما يرى ، أو ينفر منه . ولو أخذنا بنظر الاعتبار ذلك العدد من الناس الذى جاء إلى الحفلة بدوافع سياسية ، فاننا نرى ـ في مرحلة تالية من التجارب ـ أن أي استزادة في عنصر التعليم ، ستؤدى في الحال إلى إضعاف جانب التسلية . « لقد تحول المسرح إلى جامعة شعبية . » لقد جعل بريخت العقلاني من كتاباته المسرحية تجارب تخضع لسيطرة عقلية تامة ، وكانت الغاية المرجوة منها هي الكشف العلمي عن طبيعة العلاقات والتحولات الاجتماعية .

دور التقنية الحديثة

وللتمثيل دور مهم في المسرح التعليمي . إن التمثيل الإنفعالي الذى يؤثر على أعصاب المشاهد يهدد قيمة التعليم في العرض ، لذلك يحبذ بريخت اللجوء إلى ممثلين من الدرجة الثانية لأنه « كلما مُست أعصاب الجمهور كان أقل استعدادا لتقبل التعليمية ، وهذا يعني أنه كلما دفع الجمهور إلى الإنفعال (المشاركة والتأثر) كان أقل قدرة على ملاحظة الارتباطات المتبادلة بين الأشياء ، وأقل قدرة على التعلم . وكلما قدم له المزيد من التعليمية كانت حصيلته من المتعة الفنية أقل . »

لقد أدى التطور المتواصل في الجانب التقني إلى امتزاج وظيفتي التسلية والتعليم ، ولو ان كل الجهود أصرت على أن تقدم فكرة اجتماعية لاستطاعت في نهاية المطاف أن تصل بالمسرح إلى حالة يستطيع معها ـ بمساعدة الوسائل الفنية ـ أن



● بريخت

ويضرب بريخت أمثلة على تلك التجارب التي قام بها كل من انطوان ، وبرام ، وستانسلافسكي ، وغوردون كريج ، ورينهارت ، وبسكاتور . ويعتقد أنهم بتجاربهم قد أغنوا وسائل المسرح التعبيرية بما أدى إلى زيادة في قدرته على التسلية .

أما على الجانب التعليمي فقد كان لجهود بسكاتور أثر كبير في تعزيز جانب التعليم في المسرح . ويقول بريخت ـ كما ورد في نظرية المسرح الملحمي ـ إنه قد أسهم بنفسه في كل تجارب بسكاتور التي لا يستثنى منها تجربة واحدة لم تهدف إلى تأكيد القيمة التعليمية . كانت جهود بسكاتور وانتفاعه بكل ما استحدث في التقنية من تطور يهدفان إلى عرض الموضوعات المعاصرة على خشبة المسرح . وكانت تجاربه قد قضت على الروتين تقريبا ، وتغلغلت على نحو منظم في أعماق الطريقة الفنية التي يتبعها كتّاب المسرح ، وإلى أساليب الأداء عند الممثلين حتى وصلت إلى عمل المصمم المسرحي .

ويقوّم بريخت تجربته الذاتية ، فيقول إن العناصر التعليمية في مسرحية « اوبرا القروش الثلاثة » لم تكن نابعة من مجمل العمل ، فقد

يقدم صورة عن العالم ، وأن يكوّن نماذج للحياة الاجتماعية للناس كفيلة بمساعدة المشاهد على فهم وسطه الاجتماعي ، واستيعابه بالعقل والعاطفة .

كنا قد أشرنا إلى أن التعليم ثقيل على نفوس رواد المسرح ممن يقصدونه طلبا للمتعة والتسلية ، فكيف يستطيع بريخت بمسرحه التعليمي اجتذاب هؤلاء الناس ، واغرائهم بالجلوس ؟ إنه يستطيع ذلك بالموسيقا التي تؤلف لمسرحية بعينها ، وبالديكور الخاص الذي برع فيه صديقه كاسبر نيهر ، وبالرسوم التي أتقنها جورج غروس ، ثم بكل وسائل المسرح الملحمي وأدواته .

دواعي الظهور

ويجدر بنا الآن أن نسأل : ما الذى دعا إلى ظهور المسرحية التعليمية في أدب بريخت المسرحي ؟ ثم ما الذى دعا إلى ظهورها في الأدب المسرحي العربي ؟

كانت المانيا في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات قد تعرضت لأسوأ أزمة اقتصادية مرت بها ، وهي الأزمة التي ابتدأت في نيويورك وعمّ أثرها المدمر أقطار أوربا الغربية كافة . فقد أغلقت المصانع أبوابها ، وانتشرت البطالة بين العمال ، وعمّ الاضطراب قطاعات واسعة أخرى من الشعب الألماني ، ودق ناقوس الخطر ، لقد وضعت تلك الأزمة مصير المانيا موضع تساؤ ل : إلى أين ؟ بل وضعتها عند مفترق طرق جعلت القوتين الرئيسيتين : اليمين واليسار تتسابقان إلى الإنفراد بالسلطة كل على حساب الأخرى . أما اليمين النازى فقد ألقت الرأسمالية الألمانية والعالمية بثقلها وراءه ، وعملتا على إيصاله إلى السلطة ، وأما اليسار فقد تآزر فيه الشيوعيون والاشتراكيون في عمل مشترك .

في ظل هذا السباق الرهيب الذى لم يكن يخلو من العنف والقتل وإراقة الدماء ، دارت رحى المعركة ، واستخدمت فيها كل الأسلحة ، وكان المسرح بين تلك الأسلحة ـ بوصفه أداة تثقيف جماهيرى وتوعية وتحريض ـ وقد انعكست الضراوة التي اتسمت بها معركة الوصول إلى السلطة على كتاب المسرح أنفسهم ، لقد أدت مجريات الأحداث على هذا النحو إلى تحديد صارم في المواقف ، فقد رجفت قلوب ، وزلت أقدام ، وتراجعت قيم ومثل ، ولنا في كتاب الحركة التعبيرية التي انفرط عقدها في النصف الثاني من العشرينيات ، مثال ذو دلالة ، فقد اندفع كتابها في اتجاهات مختلفة كل بحسب الضغوط التي مارسها أحد طرفي الصراع عليه ، اتجه برونن ـ صديق بريخت ـ ويوست إلى اليمين ، واتجه بيشر وفولف إلى صفوف الشيوعيين ، وفر كثيرون خارج المانيا بعد وصول النازيين إلى السلطة .

ضيقت أجهزة الحكم القائم آنذاك على قوى اليسار وكتابه ادراكا منها لما للمسرح من دور خطير في التوعية والتوجيه ، فمنعت المسرحيات ذات التوجيهات المضادة من أن تعرض على خشبة المسرح الرسمية . يقول الدكتور عادل قرشولي : « ونتيجة لهذا الوضع الناشيء عن تنامي حدة الصراع الطبقي ، لم يجد الكتاب الثوريون أمامهم سوى الحركة المسرحية العمالية ، وفرق الهواة ، فتوجهوا إليها ، وربطوا مصائرهم بمصائرها . كانت هذه الفرق تتكون بدرجة رئيسية من ممثلين شبان ، وعمال ثوريين يتمتعون باستقلال اقتصادى ولا يضطرون للدخول في مساومات ايديولوجية مع مالكي المسارح الكبيرة لأن أدواتهم لم تكن أكثر من ديكور بسيط ، ومكبر صوت ، ولأن مسرحهم لم يكن سوى الشارع والمقهى ومسارح النوادى البسيطة . »

ولم يكن أمام بريخت ازاء تلك التطورات جميعا إلا أن يهجر ما اصطلح على تسميته « الجهاز البرجوازى » ، ويتجه إلى صيغة المسرح

التعليمي وعيا منه بالدور الاجتماعي للمسرح ، وتقديرا لإمكانياته الدعائية . ولا بد لنا من الاشارة إلى أن بريخت كان قد أطلق على المسرح القائم آنذاك اسم « المسرح المطبخي » وهي تسمية تدل على رفضه له شكلا ومضمونا ، وقد تحمل تبعة هذا الرفض .

أما في الوطن العربي فقد شقت المسرحية التعليمية طريقها أيضا بوصفها أداة تثقيف وتوعية ، إن الأسباب التي أدت إلى ظهورها هنا مماثلة في دوافعها العامة للأسباب التي أدت إلى ازدهارها هناك ، وإن اختلفت التفاصيل ، كلتاهما ظهرت في ظروف نضالية قاسية ، وكلتاهما ارادت للعرض المسرحي أن يجمع المتعة إلى الدرس في توظيف جديد للمسرح يسهم من خلاله في حركة النضال العربي ، باحثا في العقبات التي تعترض سبيلها ، متقصيا للأسباب والعلل ، مقترحا لها الحلول .

مادة للتعليم

وقد عصفت بالوطن العربي أحداث جسام في العقود التي توسطت هذا القرن ، اشتدت معها المقاومة العربية للاحتلال الأجنبي ولكل أشكال الهيمنة التي يبسطها ، وأخذت الأهداف تتضح شيئا فشيئا حتى تبلورت في الدعوة إلى التحرر والوحدة ، وإقامة مجتمع عربي تسوده العدالة الإجتماعية بحيث غدت هذه الدعوة شعارا ترفعه حركة التحرر العربي ، وتحدد به معالم الطريق ، بيد أن هناك صعابا شتى كانت تحول بين الدعوة إلى تحقيق الهدف ، وبلوغ الهدف ذاته منها ما أوجده الاحتلال وظروف التجزئة ، ومنها ما أورثته قرون التخلف . فكم من الصعاب ظلت تحول دون التحرر حيث كان السعي إليه يصطدم بجيوش أجنبية ، وبفئات اجتماعية مهيمنة ربطت مصيرها بمصير الاحتلال ، وتشابكت مصالحها بمصالحه . فكانت لا تقل عداء ونقمة على الثائرين العرب ونكالا بهم منه .

وكم وقفت الاقليمية ودعوات الانفصال ، والإبقاء على التجزئة التي يتبناها المنتفعون بها حائلا دون بلوغ هدف الوحدة ! وكم وقفت قوى الاقطاع والرأسمالية العربية في وجه الدعوة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية !

كل تلك كانت مواد خصبة أمام كتاب المسرح ، يخرجون منها بالدروس التي ينبغي للمواطن العربي حيثما وجد أن يعيها أملا في تذليل تلك الصعاب ، وبلوغ الأهداف الكبار . على ان الشكوى من الظلم الاجتماعي وما يستتبعه من صراع طبقي احتلت مكانا بارزا في المسرح العربي المعاصر تعليميا كان أم غير ذلك . لقد أدرك الكتاب العرب الصلة الوثيقة بين المواطن الحر الذى يملك شبرا من الأرض يدافع عنه ، والوطن الحر . وهذا هو الدرس الذى تكفلت بايضاحه ـ فضلا عن دروس أخرى ـ مسرحيات تعليمية عربية كثيرة منها « باب الفتوح » لمحمود ذياب ، و « العطش » لنور الدين فارس وغيرها



● لاتتهافت على اللئيم فتتهم في مروءتك ، ولا على الغني فتتهم في عفتك ، ولا على الجاهل فتتهم في فطنتك .

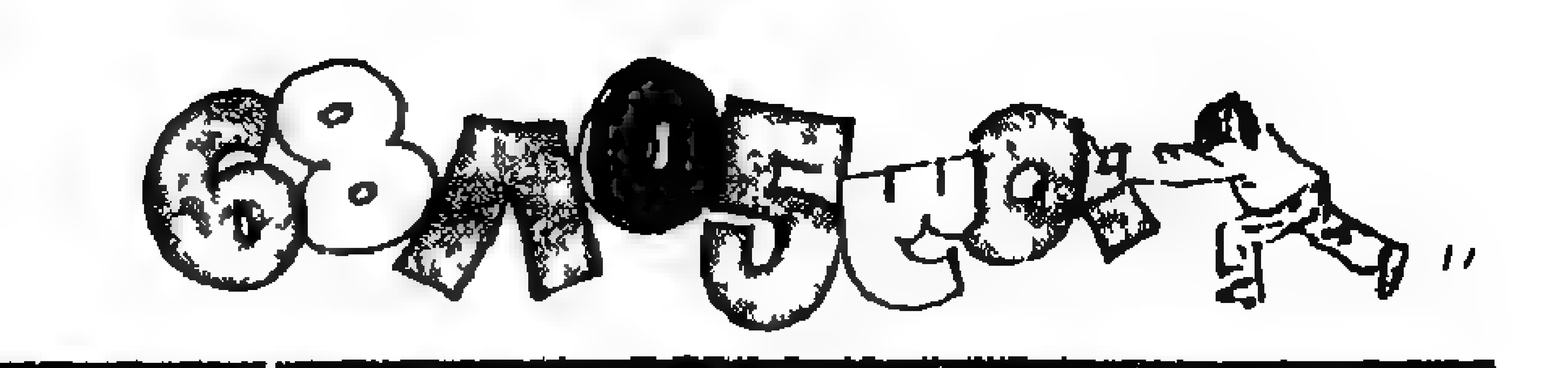
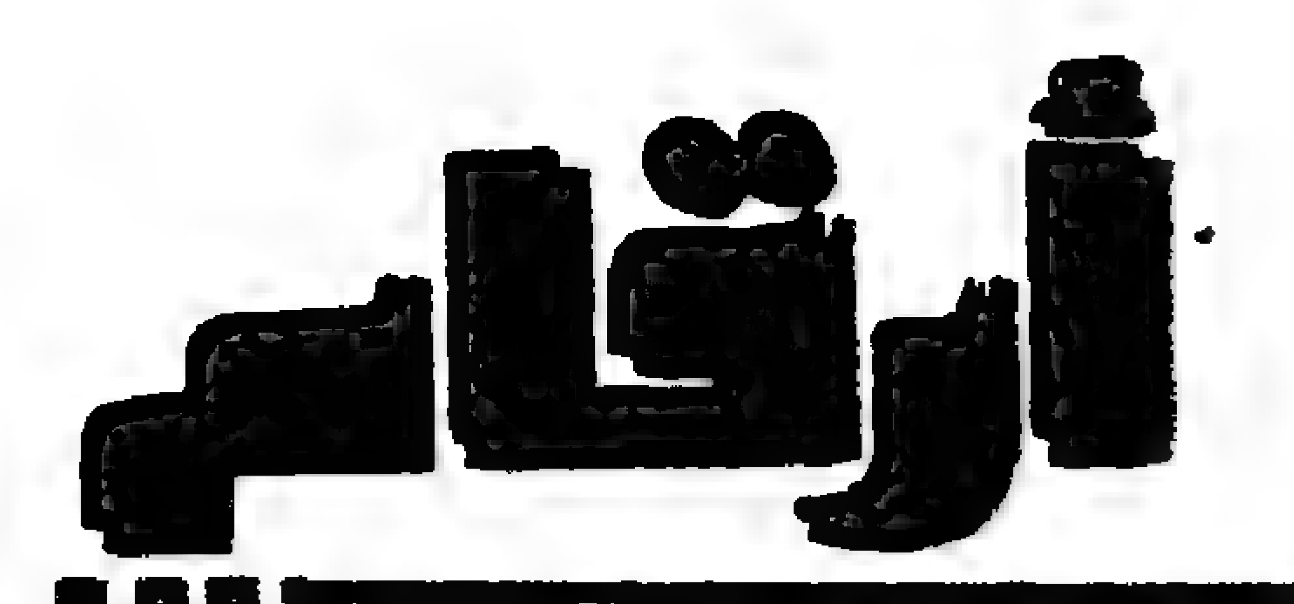
(شوقي)

● لاتبذل نصحك عفواً ، وإذا سُئلتَ أن تشير فاختصر .

(جورج واشنطن)



جورج واشنطن

بقلم : محمود المراغي

(١ = ٩) .. !

قد يبدو عنوان هذا المقال غريبا ، قد يبدو كخطأ رياضي غير مقصود ، ولكن التفاصيل تقول : « بل هذه هي الحقيقة » .

يقول آخر تقرير عن وضع السكان في العالم (١٩٨٨) أصدره صندوق الامم المتحدة للسكان : إن البلدان الصناعية تضم (٢٥) بالمائة من السكان ، لكنهم يستهلكون :

** (٧٥٪) من الطاقة المستخدمة في العالم كله .

** (٧٩٪) من كل أنواع الوقود التجاري (لأن هناك بالطبع أنواعا من الطاقة غير تجارية وتستخدم بشكلها البدائي) .

** (٨٥٪) من كل إنتاج الخشب

** (٧٢٪) من كل إنتاج الصلب .

وإذا اختزلنا ذلك ـ للتبسيط ـ في رقم أو رقمين ، فإننا نقول : إن ربع سكان العالم ـ وهم سكان الدول الصناعية ـ يستهلكون ثلاثة أرباع الطاقة وعددا من المواد الأولية الأساسية وبالتحديد : الصلب والخشب .

واستطرادا للأرقام يكون ثلاثة أرباع سكان العالم ، وهم سكان الدول غير الصناعية ، يستهلكون ربع هذه الأشياء فقط .

وباستخدام بسيط لعلم الحساب تصبح المعادلة واضحة ، وهي أن إنسان الشمال يستهلك تسعة أضعاف إنسان الجنوب !

يعني ذلك ـ ودون استخدام مؤشرات أخرى كالدخل القومي ، أو سلع الترفيه ، او أدوات الثقافة ـ أن إنسان الشمال يتمتع بمستوى معيشي يفوق إنسان الجنوب تسع مرات « على الأقل » ، ونقول « على الأقل » لأن البون شاسع في جوانب أخرى ويفوق التسعة أضعاف ، ومثال ذلك : الالكترونيات والعقول الالكترونية وغيرها من أدوات حضارة لم تنتشر بالقدر نفسه في الدول غير الصناعية .

البون شاسع ، لكن ذلك ليس الوجه الوحيد للأرقام .

العالم يتغير

لقد شهد العالم تغيرات أساسية في الفترة الماضية :

* أصبح واضحا أن هناك استنزافا للموارد ، فما اختزنته الأرض في ملايين السنين ، واستطاعت الطبيعة أن تحيله من مواد عضوية مختزنة في باطن الأرض إلى نفط ، على سبيل المثال ، جرى تكوينه عبر زمن طويل قد يكون آلاف السنين أو عشرات أو مئات الآلاف ، وربما عبر ملايين السنين من التاريخ غير المكتوب ، هذا المخزون حين تم اكتشاف النفط انهال عليه الانسان ، وكاد يستنزفه ليصبح قصة تاريخية في علوم الطاقة ، ولينتقل العالم لأشكال أخرى !

الشيء نفسه يحدث في مخزون العديد من المعادن التي لا تدخل باب «الثروة المتجمدة» .

بل ، والشيء نفسه يحدث في الغابات التي

عاشت عشرات الآلاف من السنين فإذا بها تنحسر .

إنسان القرن العشرين التهم بحضارته المادية الكثير من الموارد ومازال يلتهم .

* الغريب أن يحدث ذلك في ظل تقدم تقني ضخم ، تصور معه الإنسان أنه استطاع أن يقدم بدائل كافية ، فها هي مواد مصنوعة تحل مكان الخشب ومكان الحديد ، وها هي الطاقة النووية والطاقة الشمسية وطاقة الرياح تزحف لتحل ـ تدريجيا ـ مكان الطاقة التقليدية : الخشب والفحم ، النفط ومشتقاته ، الغاز والكهرباء .

وحين بدأ العالم الصناعي يتوسع في صناعة الحاسوب « الكمبيوتر » ، وحين أصبح العقل المصنوع بديلا ـ في بعض الحالات ـ للعقل الانساني وبديلا لجهده اليدوي والعضلي ، حين أصبح العامل يقوم ـ بفضل الكمبيوتر ـ بإنتاج قدر ما كان ينتجه ألف عامل ، حين حدث ذلك قيل : إن ذلك أيضا سوف يؤثر على استخدام الموارد ، فلم نعد ـ في كثير من الأحيان ـ بحاجة إلى آلات ضخمة بكل ما تحتاجه من صلب ومعادن وطاقة للتشغيل ، فقد أصبحت هناك قوى غير منظورة قادرة على تشغيل الآلات واستخراج المنتجات .

حدثت ثورة في العالم ، وكان التوقع : انحسار استهلاك المواد التقليدية .

* في الوقت نفسه أيضا ، صحا العالم على قضية اسمها التلوث ، وأدرك أن الشمال ـ بتقدمه الصناعي الهائل ـ أكثر خطورة على البيئة . فنواتج الصناعة تخرق ما يعرفه العلميون باسم طبقة « الأوزون » وتعرض العالم لأشعة تصيب الانسان بالسرطان والأرض بالبوار . وهذه النواتج تقدم ما يعرف بالأمطار الحمضية التي أتلفت البحيرات والأنهار في الشمال ، إلى آخر قائمة « علم التلوث » ، إن جاز التعبير .

وكان التوقع انحسار أشكال من الاستهلاك » ، وألوان من الحضارة المادية درءا للتلوث المتزايد .

نتائج أخرى

على الرغم من كل هذه المتغيرات ، وعلى الرغم من المؤتمرات التي تنعقد ، والاتفاقيات التي تبرم ، مازال نمط استخدام المواد الأولية ـ كما تقول الأرقام السابقة ـ شبه ثابت ، ومازال الصلب دعامة للصناعة الأوربية والأمريكية واليابانية ، ومازال الخشب يتربع على سوق الصناعة ، ومازال الشمال يحتكر النسبة العظمى من المادتين ، بجوار احتكاره للنسبة الكبرى من استهلاك الطاقة أيضا .

يعني ذلك أن الصلب مازال ـ وعلى الرغم من كل البدائل والتحولات ـ عماد الحضارة المادية وأدواتها ، من السيارة إلى القطار ، ومن القطار إلى الآلة ، ومن الآلة إلى صناعة التشييد التي تزحف فيها أشكال البناء من الشكل التقليدي الى الهياكل والأقفاص الحديدية !

العالم يتقدم ويخترع ويبتكر ، لكنه مازال يعتمد ـ كما كان في القرن الماضي ـ على الصلب والخشب والطاقة التقليدية في معظمها .

والأهم هو تلك الدلالة التي تمس مستوى المعيشة ، فنسبة (١ : ٩) ، تعني أن إنسان الشمال يتمتع بمأكل ومشرب وملبس ومسكن وأداة انتقال وأداة ترفيه ووسيلة علاج وتثقيف ، أفضل من إنسان الجنوب بعدة أضعاف .

إنه الفارق بين إنسان الكوخ ، وإنسان ناطحات السحاب . بين إنسان الغابة وإنسان الحاسوب « الكمبيوتر » . إنه الفارق أيضا بين الذين يبحثون عن الماء والطعام في غابة أو سهل ، والذين يطيرون إلى الكواكب الأخرى بحثا عن المعرفة ، وربما عن موارد جديدة يلتهمها العالم .


هل يزول ذلك الفارق في يوم ما ؟ □

العربي
عيونك
على العالم

مسلمو بريطانيا

مواطنون أم مغتربون





استطلاع : صلاح حزين
تصوير : فهد الكوح

لم يصل الفتح الإسلامي يوما إلى بريطانيا أما الإسلام فقد وصل ، دخل إلى هناك مع ملايين المهاجرين من دول آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط ومع الزمن ، كان على هؤلاء أن يجيبوا عن تساؤل لم يطرح عليهم من قبل ، هو : كيف يمكن للشخص أن يكون مسلماً ، ومواطناً بريطانياً ، في الوقت نفسه ؟!

كان اليوم جمعة ، وشمس لندن تختفي وراء غيوم داكنة ، تدفعها الريح عن وجهها دقائق معدودة ، تعود بعدها ثانية وراء الغيوم ، حتى تجد لها فرصة أخرى تبزغ فيها من جديد ، وتخفف لسعة البرد المثقلة بالرطوبة ، لكن هذا الصراع غير المنظور بين الشمس والغيوم ، لم يثن سكان لندن المسلمين عن التوافد على مسجد المركز الثقافي الإسلامي في العاصمة البريطانية ، لإقامة صلاة الجمعة وبينما كنت أنا مشغولاً بمراقبة تلك المعركة في السماء بين عناصر الطبيعة ، كان زميلي المصور منهمكاً بالتقاط الصور للمصلين الذين بدءوا بالتوافد على المركز الذي لا يبعد كثيراً عن وسط لندن التجاري .

بدأ المصلون يتوافدون بأعداد قليلة ، اثنان ، ثلاثة ، ثم عندما اقترب موعد الصلاة بدءوا بالتوافد جماعات ، تعددت ألوانهم ، واختلفت أعمارهم وأزياؤهم ، أطفال وشبان وكهول وشيوخ ، رجال ونساء ، سود وبيض وسمر ، بعضهم ارتدى الملابس الأوروبية العادية ، وبعضهم الآخر ارتدى زي بلاده القومي ، فكان هناك البرنس المغربي والجلابية المصرية والعمامة السودانية والملابس الإفريقية المزركشة، والهندية والباكستانية الفضفاضة ، وكانت الكوفية الفلسطينية ، هي الأكثر انتشاراً ، ليس غطاء للرأس فقط ، بل وشاحاً يلف الرقبة والكتفين ، ليقيهما من البرد ، وليدل على هوية غير بريطانية على الأقل .

ازداد وقع الخطى سرعة مع خطبة الجمعة التي بدأت بالعربية ، ثم تليت بالإنجليزية ، وعند نهايتها كان مسجد المركز الضخم قد فاض بالعابدين استوت الصفوف ، وأقيمت الصلاة ، ثم انفض المصلون منتشرين عبر البوابة التي وقفت قرب مدخلها عربة ، كانت تبيع مواد غذائية ، يرتبط استخدامها بالمناسبات والأعياد الدينية الإسلامية ، مثل قمر الدين والعرقسوس .

انتشر المصلون ودخلت أنا إلى مكتب الدكتور علي مغرم الغامدي ، مدير المركز الثقافي الإسلامي ، متذرعاً باستطلاع حول مسلمي بريطانيا ومن مكتبه الذي لم تنقطع فيه الحركة ، بين داخل ، وخارج ، ومستفسر ، وطالب استشارة أو مساعدة ، حصلت على بعض المعلومات الأساسية بشأن المراكز الإسلامية ، وعلى بعض العناوين المهمة ، وأرقام الهواتف الضرورية لي في استطلاعي المتشعب .

وكان السيد فيصل الصباح ، الملحق الإعلامي في سفارة الكويت بلندن قد أمدنا ببعض الوثائق والقصاصات المهمة حول الموضوع . ومن خلال هذه المعونة المشكورة بدأنا التحرك في أرجاء بلاد الانجليز ، بحثاً عن الجذور الإسلامية في الجزر البريطانية .

قال لي الدكتور الغامدي : « لم تكن هنا في رمضان لسوء الحظ ، لقد كان المركز خلية نحل لا تهدأ ، ففي رمضان « تنفتح » أوقات الدوام ، فتصبح أي ساعة في النهار ، وأي وقت في الليل ، والمكاتب المختلفة التي تراها الآن ، لا

تمقطع فيها الحركة ، ولا يتوقف مكبر عن استقبال المراجعين والمهنئين وأصحاب الشؤون المختلفة) . وكنت أرى بعضي الحركة الدائبة في الغرف التي انتثرت على جانبي الممر الذي يفضي إلى قاعة الوضوء والمسجد ، وإلى الطابق الثاني من المسجد الذي خصص للسيدات . ومن تلك الغرف كانت تأتي أصوات المراجعين والمستفسرين عن مواعيد ، واستشيرين في قضية دينية ، فيما اصطف بعضهم بجانب رف من الكتب الجديدة التي صدرت في لندن حول العرب أو المسلمين ، بإحدى اللغتين العربية والإنجليزية . وانبعثت من سرداب المبنى رائحة طعام ، عرفت أنه يقدم مجانا للمحتاجين من المسلمين في بلاد الإنجليز .

ودعت الدكتور العامدي بعد حديث لم يتشعب كثيرا . في الخارج كانت الغيوم والشمس ما تزال تصطرع ، فيما رسخت قبة المسجد النحاسية فوق البناء المربع الكبير ، وانتصبت المئذنة متجهة نحو السماء .

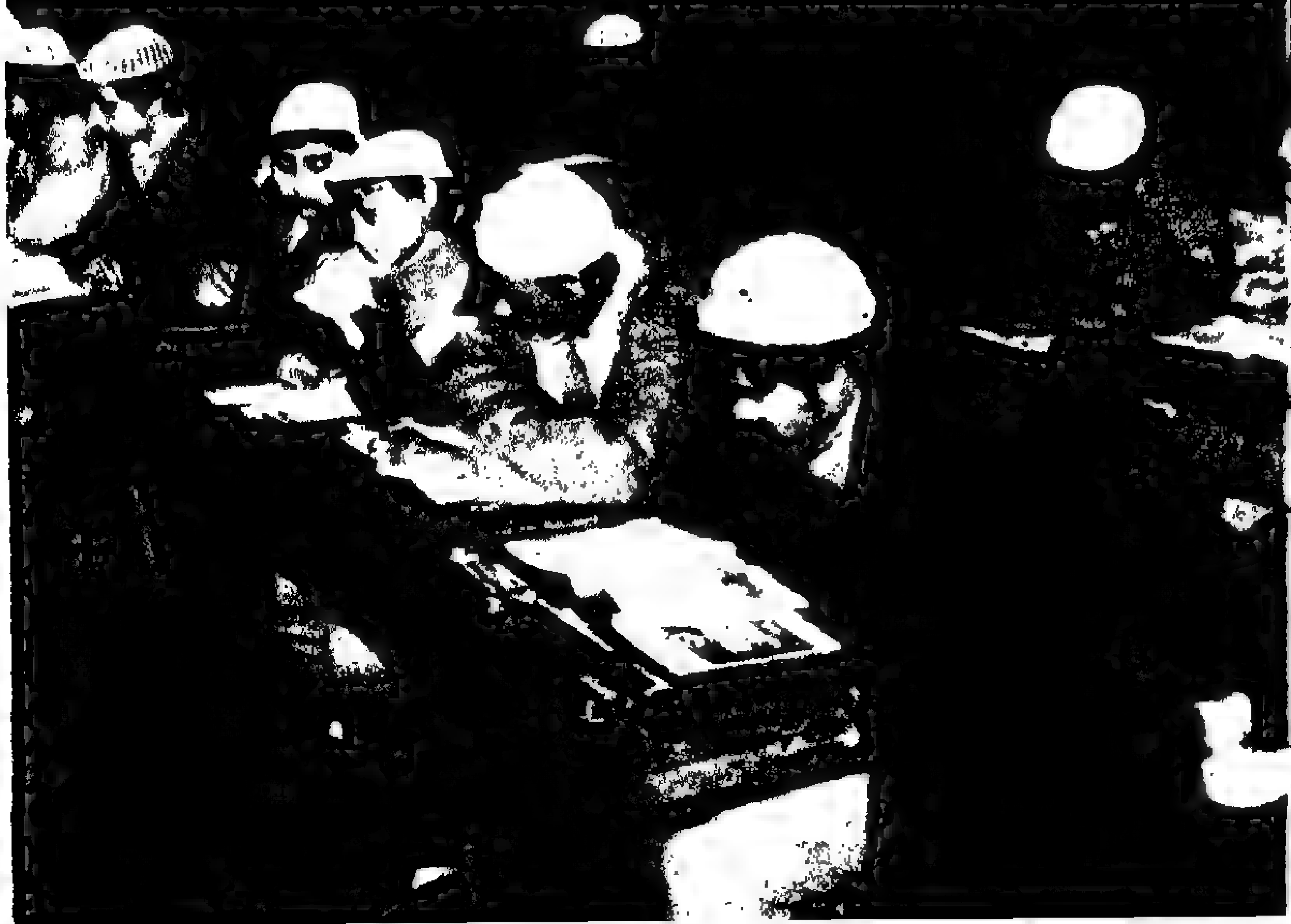
خرجت أبحث عن المسلمين الذين أصبحوا جالية لها حضورها ، وأسأل عن قضاياهم ومشكلاتهم وطموحاتهم ، وعن حياتهم وطقوسهم في العبادة والحياة والممات ، وعن الكيفية التي يحافظون بها على ثقافتهم وممارساتهم الدينية في مجتمع غير مسلم ، وعن مدى تقبلهم للقوانين البريطانية ، ومعظمها وضعية ، ومدى حماية القوانين البريطانية لهم كجماعة دينية بريطانية أو غير بريطانية . أتعرف على مدى استيعاب المجتمع البريطاني لهم ، ومدى انتمائهم هم لوطنهم الجديد ، بعد أن غادروا أوطانهم الأصلية ميممين شطر الجزر الشمالية البعيدة . هل ذاب هؤلاء في المجتمع الجديد ، وأصبحوا جزءاً منه ، أم حافظوا على هوياتهم الوطنية ، وثقافتهم الدينية ، وسط هذا المحيط الجديد ؟ لم تكن المهمة سهلة إذن ، كما لم تكن الحركة سهلة أبداً .

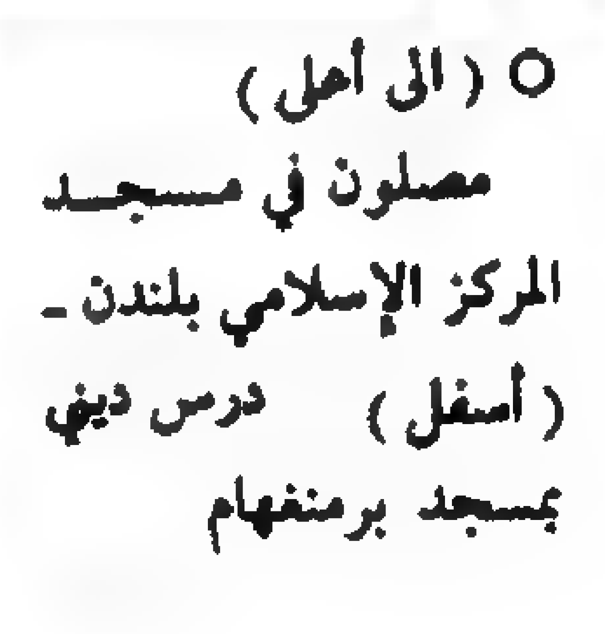
المدن الرئيسية التي تضم مراكز إسلامية في الجزر البريطانية

البـــدايات


كانت البداية في نهايات القرن الماضي ، عندما بدأت أعداد قليلة من المسلمين المنتمين إلى الدول الخاضعة للحكم الاستعماري البريطاني بالتوافد على بريطانيا لأسباب مختلفة . بعضهم جاءوا موظفين لدى الأقسام المهتمة بشؤون بلادهم ، وبعضهم الآخر جاءوا عمالا في المصانع البريطانية . وكان معظم هؤلاء من شبه القارة الهندية ، ولكن كان هناك مسلمون من شرق إفريقيا وجنوب إفريقيا ، ومن جزر الهند العربية ، وكان هناك إيرانيون وماليزيون وأتراك من قبرص خاصة .

وفي بدايات هذا القرن جاءت جالية يمنية ، قليلة العدد ، عمل معظم أفرادها في المصانع البريطانية في مانشستر وبرمنجهام وبرادفورد ، وغيرها من المدن الصناعية البريطانية ، ومدن





○ (الى أعلى)
مصلون في مسجد
المركز الإسلامي بلندن ـ
(أسفل) درس ديني
بمسجد برمنغهام



○ برج بناية تحول إلى مئذنة مسجد بيرمنغهام

الساحل الشرقي ، لتكون النواة الأولى للجالية العربية المسلمة هناك ، وتلاهم بعد ذلك مهاجرون عرب من مصر والعراق والمغرب وفلسطين وليبيا وتونس .

غير أن « الجالية المسلمة » لم تبدأ بالتوافد على البلاد بأعداد كبيرة إلا في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات من هذا القرن ، وهي الفترة التي بدأت فيها البلدان الإفريقية والآسيوية بالتحرر من نير الاستعمار القديم ، بعد أن أفلت شمس الامبراطورية البريطانية في أعقاب حرب السويس عام ١٩٥٦م ، فسافر كثيرون من أبناء المستعمرات من بلدانهم إلى بلاد المستعمر السابق ، قبل أن يغلق أبواب بلاده في وجوههم ، لذا فإن « الجالية المسلمة » جالية حديثة جدا ، كما أن أفرادها ينتمون في غالبيتهم الساحقة إلى الطبقات الفقيرة ، فمعظم هؤلاء كانوا عمالاً وموظفين صغاراً ، ولم يكونوا مثقفين أو أصحاب ثروات أو تجاراً . ولعل هاتين الحقيقتين هما الأكثر تأثيراً على أوضاع الجالية المسلمة هناك ، فمثل هذا المستوى الاجتماعي المتواضع ، ومثل هذا الزمن القصير من الهجرة ، لم يتيحا للجالية أن تذوب تماماً داخل المجتمع البريطاني ، ولم يتيحا لأفراد هذه الجالية أن يكوّنوا الثروات ، ويتسلقوا السلم الاجتماعي إلى الطبقات العليا ، بل لم يتيحا لهم في كثير من الأحيان إتقان اللغة الإنكليزية ، فظلت اللكنات الأصلية واضحة بقوة في حديث الغالبية العظمى من أفراد الجالية المسلمة هناك .

وهذا يفسر أيضاً عدم بروز شخصيات مؤثرة في الحياة البريطانية العامة ، حيث الطبقات والفئات المختلفة في المجتمع البريطاني قوية مستقرة وراسخة ، لا تسمح لأحد باختراقها ، وهذا لا يعني بالطبع عدم وجود استثناءات في هذا المجال ، مثل وجود تجار كبار ، وبعض نجوم المجتمع والفن والأدب ، إلا أنها تبقى استثناءات لا تشكل حالة أو ظاهرة عامة . وعلى



○ يوسف اسلام مغني الروك السابق .

مستوى الجالية نفسها فإن قصر عمرها منعها من التكاثف والترابط والتنسيق بين أطرافها واختيار « قياداتها » ، للعمل كقوة واحدة محددة الأهداف والطموحات ، وهذا بدوره أثر على وضعهم القانوني كجالية دينية ، أو « أقلية دينية » ، كما تصفهم بعض الصحف البريطانية ، فمازالت كثير من حقوقهم الدينية مهضومة ، مما دفع صحيفة التايمز اللندنية إلى نشر مقالة لأستاذ التاريخ في جامعة بريستول ، جون فنسنت ، يرد فيها بحدة على ما قاله وزير الداخلية البريطاني ، دوغلاس هيرد ، في خطاب له في مسجد برمنغهام في فبراير الماضي ، من أن القانون البريطاني ينطبق على الجميع ، وقال فنسنت : إن هذا غير صحيح في مجال قانون « التجديف » أو السخرية من الأديان غير المسيحية ، وأضاف : « إن المحاكم مفتوحة بالنسبة للمسيحيين في هذا المجال ، أما بالنسبة للمسلمين فهي ليست كذلك » .

ويقول الدكتور الغامدي : إن هناك الكثير من القوانين البريطانية التي لا تنصف المسلمين ،

مثل قوانين الهجرة التي تعوق كثيراً منهم عن استقدام أقاربهم أو الزواج منهم وإحضارهم لبريطانيا . كما أنهم يعانون من بعض مظاهر التمييز العنصري ، وينظر كثير من الإنجليز لهم باعتبارهم جزءاً من عالم ما وراء البحار ، وليس باعتبارهم مواطنين بريطانيين . فمثلاً ، في الوقت الذي تحصل فيه المدارس المسيحية أو اليهودية على إعانات من الدولة ، لا تحصل « المدارس الإسلامية » على مثل هذه الإعانة ، ونحن هناك كانت قضية «مدرسة زكريا الاسلامية العليا للبنات » في مدينة « باتلي » الشمالية ماتزال مثارة من جانب إدارة المدرسة وزعماء الجالية المسلمة في المدينة الواقعة في يوركشير الغربية : السلطات البريطانية ترفض تقديم العون لمدرسة مسلمة للبنات ، في بلد التعليم فيه مختلط ، وإدارة المدرسة والجالية تصران على أن من حق الفتيات المسلمات أن يدرسن في مدارس غير مختلطة ومن حق المدرسة أن تحصل على المعونة أسوة بباقي المدارس البريطانية . ومازالت « المعركة » مستمرة منذ عامين .

وليست هذه غير أمثلة بسيطة على بروز مثل هذه القضايا إلى السطح ، فما الذي حدث أخيراً حتى تثور مثل هذه القضايا الآن ، وليس قبل ذلك ؟


لقد حدثت أخيراً أشياء كثيرة ، تبدأ في بريطانيا ، وتنتهي في أطراف الشرق المسلم .

الوطني والديني

مع بداية الثمانينيات كان الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين قد بدأ يشق طريقه في شعاب المجتمع البريطاني . ولأن أفراد الجيل الأول مازالوا على ارتباط وثيق بثقافتهم وديانتهم ، بل بأوطانهم وأقاربهم في تلك الأوطان ، نتيجة لثورة الاتصالات ، وما أتاحت لهم من الإمكانيات ، فقد أرادوا لأبنائهم من الجيل الثاني نشأة ، للدين فيها مكان رئيسي ، ولثقافاتهم الوطنية دور في تكوينهم . ومع بداية الثمانينيات أيضاً كانت بعض البلدان الإسلامية تزداد ثراء ونفوذاً ، وعلاقاتها تزداد رسوخاً مع الغرب حيث يقيمون ، كما كانت الحركات السياسية المرتكزة على أسس دينية تحقق انتشاراً واسعاً في بلدان الشرق المسلم ، وهي البلدان التي أتى منها هؤلاء ، فبدأ صدى تلك الأفكار يتردد هناك أيضاً في أوساط الجالية التي أصبحت بريطانية .

ونشأت علاقة بين الشرق ومسلمي بريطانيا ، الشرق يتبرع بالمال لبناء المساجد والمراكز ، و « الجالية » تزداد قوة وارتباطاً بهم . وعادت للظهور كثير من الأفكار التي تنظر لمجتمعات الغرب باعتبارها مجتمعات مادية غير مسلمة ، ليتطرف فيها بعضهم بعد ذلك ويعتبرها مجتمعات « كافرة » ، و « معادية للإسلام » ، فهي لذلك مرفوضة من جانبهم . لكن الحقيقة الأهم أن هؤلاء أصبحوا مواطنين بريطانيين بالحياة والتجنس والمصالح والامتيازات التي يقدمها لهم النظام البريطاني الغربي ، فكيف يحل هذا الإشكال ؟ كيف يحافظ المسلمون في بريطانيا على هويتهم الثقافية والدينية التي تكونت في بلدانهم الأصلية وعلى « امتيازاتهم » التي يكفلها لهم النظام البريطاني الذي يقدم لهم الكثير من الحقوق غير المتوافرة في بلدانهم الأصلية ، مثل حقوق الإنسان الأساسية ، والحق في التعبير والاحتجاج والتنظيم وغيرها ؟

إن محاولة حل هذا الإشكال هي أساس تحرك « الجالية المسلمة » في بريطانيا ، فهي لم تعد جالية صغيرة ، بل ازدادت بفعل عوامل كثيرة ، لتزيد على المليونين ، وليصبح الإسلام الديانة الثانية في بريطانيا بعد المسيحية . لذا فمنذ بداية الثمانينيات ازداد عدد المراكز الإسلامية والمساجد ، ليصبح ٣٨٧ بين مسجد ومركز إسلامي ، وليتسع دور هذه المراكز والمساجد من أماكن للصلاة والعبادة إلى أماكن لإلقاء دروس في الثقافة الدينية ، ولتعليم اللغة العربية واللغات



○ المركز الإسلامي بلندن - (يسار) مسجد شرق لندن ، أقدم مسجد في بريطانيا - (أسفل) متحدث يحمل مصحفاً بهايد بارك



الأخرى التي ينطق بها المسلمون في بريطانيا ، مثل الأوردية والبنغالية والبنجابية ، للأطفال والشيوخ والنساء .

ولكن لفت نظرنا أن الجزء الأكبر من هذه المساجد ليس ذا قباب ومآذن ، بل هو في الغالب منازل حولت إلى مساجد للصلاة . وفي منطقة « بريكلين » بشرقي لندن تم تحويل مبنى كان في السابق كنيساً لليهود إلى مسجد ، وفي برادفورد كان مسجد أبي بكر مصنعاً للغاز .

وفي الفترة نفسها ، أي في الثمانينيات ، نشطت حركة إنشاء المدارس الإسلامية ، سواء تلك المستقلة ، أو التي تدرس المناهج البريطانية ، بالإضافة إلى اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، أو المدارس التي تفتح فصولها داخل المساجد والمراكز . حيث يتلقى الطلاب دروساً في الدين والقرآن واللغة العربية .

وفي مدينة ديوزبري انشئت عام ١٩٨٢ جامعة تعليم الإسلام ، أو معهد الدراسات الإسلامية « لتهيئة شباب متعلم ، متزن ، عارف ، مطبقين الإسلام ومفيدين في مجتمع متعدد القوميات » كما ورد في كتيب خاص بالجامعة حصلنا عليه أثناء زيارتنا لمسجد ديوزبري الكبير في المدينة .

وفي الثمانينيات أيضاً ازداد التنسيق بين المراكز والمساجد ، غير أن درجة التنسيق في كل أنحاء بريطانيا ليست على المستوى المطلوب ، والسبب ، كما يقول د. علي الغامدي ان « هذه المراكز لا تملك صفة قانونية مستقلة لكل منها ، لذا فإن كل مجموعة من المنظمات تحاول إيجاد مظلة لها ، لكنها في العادة مؤقتة ، وهي تقوم على الاختيار التام ، ولا شيء ملزم لها أو تجاهها » .

واليوم ، هناك مساجد كبيرة ، أو مراكز إسلامية ، في جميع مدن المملكة المتحدة الرئيسية : لندن ، مانشستر ، برمنغهام ، برادفورد ، كارديف ، غلاسكو ، سكاربورو ، وغيرها .

١٠٠ ألف جنيه من كويتي

في شارع وايتشابل ، في شرقي لندن ، يقوم مسجد شرق لندن ، وهو أقدم مسجد في بريطانيا . بناء يضرب لونه إلى البني ، قبة ومئذنة ترتفعان فوق البناء المربع الذي ضم إلى جانب المسجد مصرفاً اسمه « بنك البركة » .

ومن المعروف أن شرقي لندن هي المنطقة الفقيرة من العاصمة الواسعة ، والجالية المسلمة تتكون في غالبيتها من الباكستانيين والبنغلاديشيين والصوماليين ، دوي الحالة الاجتماعية المتواضعة أو الفقيرة .

حين وصلنا إلى أقدم مسجد في بريطانيا ، لم يكن هناك غير الحارس رحمان خان ، ولكن بعد قليل وصل أمين الصندوق صلاح الدين حليم الذي كثيراً ما يتردد على المسجد في أوقات فراغه ، فهو لا يتلقى مرتباً ، بل هو مثل كل أعضاء مجلس إدارة المسجد يعمل مجاناً « في سبيل الله » على حد تعبيره . وعندما عرف أنني قادم من الكويت ، ذكر لي أنه كان جالساً في أحد الأيام بمكتبه الذي يقع إلى يمين المدخل الرئيسي للمسجد ، حين دخل عليه شخص من الكويت ، وبدأ يتحدث معه حول المسجد والمشكلات التي يواجهها ، وحين شرح له أمين الصندوق حاجة المسجد إلى المال ، بادر الكويتي بدفع مبلغ ١٠٠ ألف جنيه استرليني على الفور .

وقبل أن يأخذني السيد حليم في جولة بأرجاء المسجد الفسيح ، بدأ يروي لي قصة بناء أقدم مسجد في بريطانيا . قال حليم : إن هذا البناء ليس هو البناء الأصلي للمسجد ، وعاد بي إلى الوراء ، إلى عام ١٩١٠ ، عندما اتفقت مجموعة من الشخصيات المسلمة المقيمة في بريطانيا في ذلك الحين ، وقرروا إقامة مسجد في هذا الجزء من لندن ، فاستأجروا غرفة صغيرة لإقامة شعائر صلاة الجمعة فيها .

وفي عام ١٩٤٠ اشترت الجمعية ثلاثة بيوت

في منطقة « ستيبني » وحولتها إلى مسجد . وهكذا تم بناء أول مسجد في لندن . لكن مجلس بلدية لندن الكبرى طالب بالمبنى عام ١٩٧٥ ، فانتقل المسجد مؤقتاً إلى بعض البنايات المجاورة حتى يتم بناء هذا المسجد . وهو على الرغم من بنائه الجديد ظل يحمل اسم المسجد القديم ، « مسجد شرق لندن » .

إلى اليسار قامت مكتبة متواضعة لبيع الكتب الدينية الأساسية ، ودفاتر يستخدمها التلاميذ والطلاب الذين يحضرون للمسجد لتلقي الدروس الدينية ، وإلى اليمين مكاتب لأعضاء المجلس الذين يتطوعون لأداء هذه الأعمال ، وبالقرب منها قامت أماكن الوضوء ، وبعد ذلك قاعة الصلاة ، يتوسطها منبر جميل الزخرفة . وصعد بي صلاح الدين حليم إلى دور علوي ، توازي مساحته نصف مساحة المسجد ، وتطل عليه ، وقال : « هذه القاعة خاصة بالنساء » . ومقابل قاعة النساء وقاعة الرجال انتشرت غرف صغيرة ، امتلأت بمقاعد الدراسة ، وبعض مستلزمات التدريس ، إنها فصول الدراسة التي يتلقى فيها التلاميذ دروساً بلغات بلادهم

○ الدكتور علي الغامدي مدير المركز الإسلامي بلندن .


الأصلية ، وكذلك في لغة القرآن والثقافة الدينية العامة .

وخلال جولتنا في المسجد بدأ بعض المصلين والتلاميذ يتوافدون بكثرة . ولاحظت أن الغالبية العظمى من هؤلاء كانوا أفارقة ، وقبل أن أسأل بادرني السيد حليم قائلا : إن هذا الوقت خاص بالجالية الصومالية ، حيث يجتمع أفراد الجالية في حلقات لتلقي الدروس في المسجد ، وينتظم التلاميذ الصغار في فصولهم ليتعلموا لغة بلادهم الأصلية وثقافتهم الخاصة .

وأثناء جولتنا كان عدد المتوافدين لسماع درس ديني من الجالية الصومالية قد أصبح كافياً . اختار هؤلاء ركناً من أركان المسجد ، وتحلقوا حول الشيخ محمد عثمان عقال الذي جلس متكئاً على الحائط وألقى درساً دينياً باللغة الصومالية ، تخللته استشهادات بآيات من القرآن الكريم وبعض الأحاديث بالعربية . وأجاب عن بعض الأسئلة والاستفسارات قبل أن ينفض المجلس ، لذلك اليوم بالنسبة لهم ، ويبدأ درس جديد للجالية النيجيرية ، فالوقت موزع بين مختلف الجاليات المسلمة القاطنة في تلك المنطقة .

وقال السيد حليم : في صلاة العيد يحتشد هذا المسجد بما يقرب من ٥ آلاف من المصلين ، وكثيراً ما نكرر صلاة العيد ٥ أو ٦ مرات بسبب الازدحام الشديد وضيق المكان . وأضاف وهو يودعني : « إن كل هذه الخدمات تحتاج إلى مال ، وحين اكتمل بناء المسجد طالبنا المتعهدون بالمصروفات الإضافية التي دفعوها أثناء إنشاء المسجد ، وهو مبلغ ليس بسيطاً ، فهو يعادل نصف مليون جنيه استرليني ، وقد حكمت لهم المحكمة بذلك . إننا لا نملك هذا المبلغ . وهناك مكتبة ومخزنان و « بنك البركة » الذي نحصل على إيجاره الشهري ، وهذه كلها تدر علينا بعض المال ، إلا أنه لا يكفي لتسديد هذا المبلغ ، وكل ما نرجوه هو أن توجه عبر مجلتكم نداء للتبرع لتسديد هذا المبلغ » فوعدت .





○ مسجد برمنغهام المركزي .
(يمين) قارىء القرآن .
(أسفل) حي تسكنه أغلبية مسلمة برمنغهام

فيما بعد تجولنا في عدد من المناطق التي تسكنها غالبية مسلمة في المدينة البريطانية الثانية . وكان المشهد واحدا تقريبا : بيوت صغيرة متوازية ، إهمال ، فقر ، رجال ملتحون ، نساء محجبات . ذهبنا الى استون وشارع ترينتي وموسلي ، ومن هناك الى شارع بلغريف ، حيث يقوم مركز برمنغهام الإسلامي .

قبل أن يأخذني السيد عبد الرزاق مغل ، سكرتير المركز ، في جولة بقاعات المسجد العديدة وأجزائه المختلفة ، دعانا الى مكتبه ، حيث بدأ يشرح لنا بعض المصاعب والمشكلات التي تواجه المسلمين هناك ، لكنه لم ينس أن يشير الى بعض الطموحات والمشروعات المستقبلية التي ينوون تنفيذها .

قال السيد مغل : لأننا المركز الرئيسي للمسلمين في بريطانيا فإن لنا اتصالات مع جميع المراكز الإسلامية الأخرى ، ونحن نشارك في جميع المناسبات والاحتفالات الإسلامية . وأضاف : إن المسلمين هنا يعانون من البطالة التي تعاني منها بريطانيا كلها ، وهذا أمر جديد ، لم يكن يواجهنا في السابق ، مما يضيف أعباء جديدة على المركز الذي يحاول المساهمة في حل هذه المشكلة أمام غلاء الأسعار المخيف .

يضم المركز مكتبة وقاعة للمطالعة ، وقاعتين للصلاة ، إحداهما للرجال ، والأخرى للنساء ، وهناك قاعة للطعام ، تقدم الشاي والقهوة وبعض الوجبات الخفيفة للمصلين بعد الصلاة . ويشرف المركز على عدد من المدارس التي تقدم فيها الدروس الإسلامية الخاصة ، بالإضافة الى المناهج البريطانية . ودعاني السيد مغل للنهوض معه لزيارة مدرسة الهجرة التي تقع في الطابق الأرضي من البناء .

السيد محمد عبد الكريم ثاقب قال لي : إن هذا المقر مؤقت ، فالمدرسة التي فتحت أبوابها منذ ثمانية شهور ستنتقل الى مقر مستقل ، أفضل تجهيزا بالنسبة للتلاميذ الذين ينقصهم الكثير من التسهيلات والتجهيزات في هذا المقر المؤقت . وأضاف : إنه كان من المفروض أن يتم الانتقال منذ مدة ، لكن قلة المال حالت دون ذلك ، فالإيجارات مرتفعة جداً في المدرسة التي لا تعد نموذجية بسبب وضعها المؤقت ، ويقوم عدد من المدرسين بإعطاء دروس في الديانة الإسلامية واللغة العربية والتجويد ولغة الأوردو ، وهي مواد إجبارية ، وذلك إضافة الى المناهج البريطانية . وتغطي المدرسة المرحلة الابتدائية ، وجزءا من المرحلة الثانوية التي لم تكتمل فصولها الدراسية .

والسيد ثاقب الذي يتحدث بلغة عربية سليمة ، هو مدير المدرسة ومؤسسها ، وهو يشرف على ١٥ شخصا بين مدرس ومدرسة وسائق وفني ومسؤول عن نظافة الفصول والحجرات ، كلهم يعملون في المدرسة .

وداخل الفصول جلس التلاميذ ومعظمهم شرقيو الملامح ، وجلست الفتيات الصغيرات المحجبات يستمعن الى شرح من المدرس بانتباه قطعه دخولنا . وبينما كان المصور منهمكا بأخذ الصور ، كانت نظرات الفضول الطفلية تغلب على نظرات الانتباه لما يقوله المدرس . وحين غادرنا المركز وودعنا السيد ثاقب لاحظت أن بعض التلاميذ الصغار مازالوا يلاحقوننا بنظرات الفضول ، فهم لا يرون مثل هذا النوع من الزائرين كل يوم .

مساجد ومساجد

إن مايلفت النظر في مساجد بريطانيا هو ذلك الدور الذي تقوم به ، ليس بوصفها أمكنة للصلاة فقط ، بل باعتبارها مراكز للعديد من الأنشطة المتعلقة بالإسلام والمسلمين ، ففيها تبرم عقود الزواج ، وفيها تتم الصلاة على الأموات وتجهيزهم قبل دفنهم ، وفيها تقام الاحتفالات بالأعياد الإسلامية ، وفيها تلقى الدروس

والمحاضرات الدينية ، سواء الدورية منها أوتلك المتعلقة بالمناسبات الدينية ، ويساهم بهذه الأنشطة ـ بما في ذلك التدريس ـ عدد من كبار العلماء ورجال الدين والمختصين . لذا فإننا عندما قمنا بزيارة المسجد الجامع الواقع في شارع كوفنتري ببرمنغهام لم نلاحظ أي اختلاف جوهري في دور أو نشاط المسجد المذكور ، على الرغم من الاختلاف في البناء ، فهذا المسجد عبارة عن منزل ضخم يجري العمل على توسيعه ، ولكن ليس به قبة أو مئذنة .

قبل أن نغادر برمنغهام قمنا بجولة في المناطق التي تسكنها غالبية مسلمة ، ومررنا بعدد من المساجد التي لم تكن أكثر من منازل متواضعة ، يفتح أبوابها حراس سمر البشرة ملتحون ، تزول عن وجوههم الدهشة من تطفل الطارق الغريب لمجرد قول « السلام عليكم » ، وبها يودع الزائر العابر الذي لايريد أكثر من « مشاهدة » ما يجري داخل المسجد .

مسلمون في كل مكان

لاشيء يميز مدينة برادفورد الشمالية من حيث الأبنية وتصميمها وهندستها البريطانية التي تهتم بالعراقة قدر اهتمامها بالحداثة ، لكنك تبدأ باكتشاف المسلمين في برادفورد بمجرد ركوب سيارة أجرة من محطة القطار التي تتوسط المدينة ، فمعظم سائقي سيارات الأجرة مسلمون من باكستان أو بنغلاديش . وطوال تجوالنا في المدينة ليومين متتاليين لم نشاهد سائق سيارة أجرة واحد من غير هذين البلدين ـ الاستثناء أن يكون السائق مسلما هنديا ـ هل هي الصدفة ؟ لم نستعجل الإجابة ، وإن عرفناها بعد اليوم الأول من التجوال .

من بين ٤٠٠ ألف شخص ، هم سكان مدينة برادفورد الصناعية ، هناك ٦٠ ألف مسلم ، وفي إحصاء آخر ـ بريطاني ـ ٨٠ ألف مسلم ، وهي



○ السيد فيصل الصباح .
الملحق الإعلامي بسفارة الكويت في لندن .

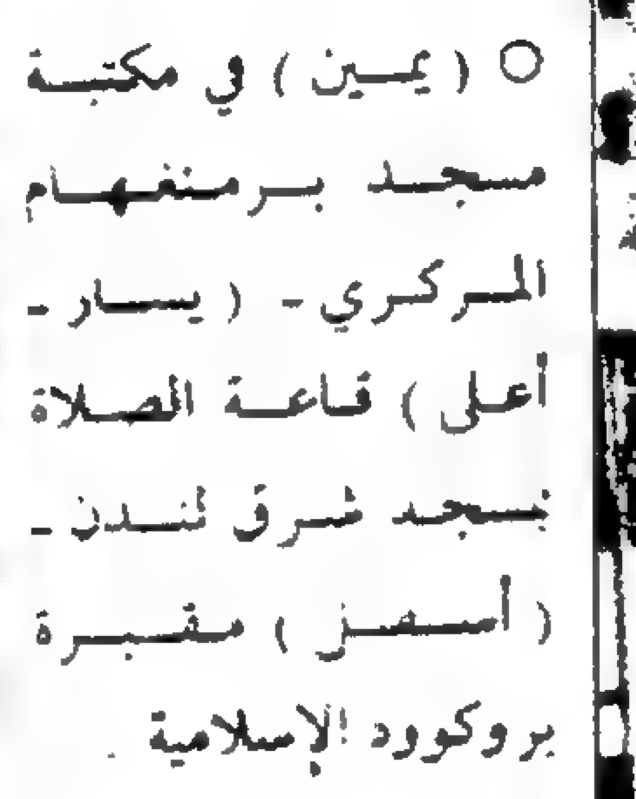
نسبة كبيرة جدا . ومعظم هؤلاء يباشرون الأعمال الخدمية الوسيطة : تجارة صغيرة أو متوسطة ، مصالح بسيطة ، مخازن ، مطاعم ، أو العمل على سيارات الأجرة . الأفضل بينهم من حيث الأوضاع الاقتصادية هم الباكستانيون الذين يملك بعضهم المحلات والبقالات والمطاعم ويملك بعضهم مصانع للنسيج .

قمنا بجولة في المدينة ، طفنا بحيماننغهام ، وهو واحد من عدة أحياء يقطنها المسلمون . زرنا بعض المساجد والمراكز والمدارس الإسلامية . لم نجد ما تختلف به هذه المساجد عما شاهدناه في لندن وبرمنغهام ، سوى تصميم مسجد شيربريدج الذي بدا بموقعه القائم على مفترق طريق صاعداً مثل كنيسة ضخمة ، لكن الدهشة تبددت عندما أخبرنا حارس المسجد أنه كان بالفعل كنيسة تم تحويلها الى مسجد ومدرسة إسلامية ، حملت اسم الكلية الإسلامية .

أما المساجد الأخرى فهي في معظمها منازل عادية ، حولت الى مساجد ومدارس إسلامية ودور للعبادة .







○ (يمين) في مكتبة مسجد برمنغهام المركزي - (يسار - أعلى) قاعة الصلاة بمسجد شرق لندن - (أسفل) مقبرة بروكوود الإسلامية .



مجلس المساجد

الجديد المختلف بالنسبة لبرادفورد هو درجة التنسيق الكبيرة بين المساجد والمدارس والمراكز الإسلامية فيها . ويتم هذا التنسيق عبر « مجلس المساجد » الذي ينظم العلاقة بين المساجد بعضها ببعض ، وبين المساجد والحكومة البريطانية والجهات الرسمية الأخرى ، وهذا المجلس الذي يرأسه السيد شير أعظم هو مجلس منتخب من قبل لجان المساجد والمدارس في برادفورد . وقبل عام ١٩٨١ ، أي عام تأسيس المجلس ، كان لكل مسجد أو مدرسة لجنة تعنى بشؤونه أو تشرف عليه ، وكان هناك تنسيق بين هذه اللجان ، إلا أن تطوراً نوعياً طرأ على درجة التنسيق بين هذه اللجان ، عندما تم تأسيس المجلس ، ليكون الهيئة الوحيدة التي تنطق باسم المساجد والمدارس الإسلامية . وهي بهذه الصفة الآن مصدر لجميع المعلومات الخاصة بالإسلام والمسلمين في مدينة برادفورد .

السيد لياقت حسين ، الأمين العام للمجلس



السيد عبدالرزاق مغل .
مدير المركز الإسلامي في برمنغهام .

يقول : إن هناك كثيراً من حقوق المسلمين في هذا البلد مهضومة ، هناك حقوق لنا كمواطنين بريطانيين ، أهمها حق الاحتجاج والاعتراض ، أما حقوقنا « كمسلمين » فهي ناقصة ، فنحن نجد أن لنا الحق في رفض تنشئة أبنائنا نشأة غير إسلامية ، أو تلقي تربية تفتقد القيم الدينية والأخلاقية الإسلامية . وقد وجدنا أن المسلمين ليس لديهم من يلجأون إليه سوى القانون البريطاني ، والقانون البريطاني يعاني من ثغرات كثيرة بالنسبة لحقوق المسلمين .

ويقول السيد فقير محمد مدير المجلس : إننا هنا لنرعى مصالح جميع المسلمين ، في هذه المدينة وخارجها ، ونحن حلقة الوصل مع جميع الأقسام والإدارات الحكومية ، ونقوم بهذا العمل بالتعاون الوثيق مع المنظمات والهيئات الإسلامية الأخرى . وفي حال بروز مشكلات من أي نوع تتعلق بالإسلام أو المسلمين ، فإننا نتحاور معا ، ونتخذ القرارات بما لا يتعارض مع القانون البريطاني الذي نحتكم إليه ، وذلك كما يطلب الإسلام من المسلمين ، أي أن يحترموا قوانين البلد الذي يعيشون فيه أينما كانوا ، فالمسلمون مستقرون هنا ، وهم مواطنون بريطانيون ، وأولادهم ولدوا ونشأوا في هذا البلد ، وتعلموا في مدارسه ، وكل ما يريدونه أن يبقى أولادهم مسلمين .

وقبل أن أغادر مقر المجلس بشارع كليرمونت ببرادفورد ناولني السيد فقير محمد كتيباً عن المجلس وتركيبته وأهدافه . وقد لاحظت أنها لم تقتصر على الأمور الدينية فقط ، بل تتضمن العديد من المسائل الدنيوية أيضا ، مثل تقديم المشورة المتعلقة بقضايا الرعاية الصحية والاجتماعية ، ومكافحة البطالة ، والتعليم ، والحقوق المدنية والاجتماعية ، وقضايا الإسكان والهجرة والجنسية ، وتقديم خدمات الترجمة عند التعامل مع الهيئات الحكومية . ويتضمن أيضا مساعدة المسلمين في قضايا تتعلق بالتعامل مع

السجون والشرطة ، وكذلك قضايا الشباب والشيوخ والنساء وكل ما يمس الحياة اليومية .

ويشرف المجلس على مراكز نهارية لكبار السن ، حيث يقوم هؤلاء ببعض الأعمال والمهارات اليدوية التي قد تنفعهم في حياتهم .

وضع مختلف

في مدينة ديوزبري كان الوضع مختلفا بعض الشيء . توجهنا على الفور الى ضاحية سافيل تاون ، حيث يوجد الجامع الذي يقال إنه الأكبر في أوربا كلها . أنزلنا سائق سيارة الأجرة المسلم في باحة المسجد الكبير . وعلى صوت السيارة التي كانت تهم بالمغادرة ، خرج إلينا من باب المسجد شاب ، تلاه شابان آخران ملتحيان ، وقد ارتديا ملابس تدل على هوية آسيوية . سألونا بحذر واضح عما نريد ، قلنا لهم إننا بعثة صحفية من مجلة « العربي » ، نقوم باستطلاع عن المسلمين في بريطانيا ، وإننا نرغب في مقابلة أي مسؤول ليعطينا معلومات حول المسجد ونشاطه ، وحول الجالية المسلمة في ديوزبري وأنشطتها ومشكلاتها ، وإن أمكن التقاط بعض الصور للمسجد . قال الشاب : إن هذا المسجد للدعوة الإسلامية ، وإن من يأتي إليه من الدعاة أو من حفظة القرآن ، واعتذر لأن المسؤول المخول بالحديث عن المسجد غير موجود . وعرضت عليه أن يتحدث هو فاعتذر بأدب بعد أن استشار أحد زميليه ، وسألته إن كانت لديه أي معلومات مكتوبة حول المسجد ، فدخل وعاد اليّ بكتيب صغير ، وقال : إننا دعاة ، والدعوة تخرج من القلب مباشرة وليس لدينا أي شيء مكتوب سوى هذا الكتيب الذي يحتوي على أهداف « جامعة تعليم الإسلام » ، وعلى شروط الدراسة في المعهد وطريقة سيرها . ولما طلبت منه أخيرا السماح لنا بتصوير المسجد ومدرسة البنات العليا المجاورة له ، اعتذر أيضا وقال : إن التصوير ممنوع . ثم دخل وأحضر لي بعض الصور لعليّ « أستفيد » منها . وعندما قلت له : إن مجلتنا تعتمد أساسا على الصورة المباشرة الخاصة بها ، وإننا نود إن نأخذ الصور بأنفسنا ، اعتذر مرة أخرى بعربية ذات لكنة آسيوية ، ووقف ، ووقفنا . وانقطع الحوار ، وكان لابد لنا أن نغادر .

واتجهنا نحو شوارع المنطقة التي يقطنها المسلمون أساسا ، الشوارع والأزقة المنظمة على الطريقة البريطانية الشهيرة ، خالية إلا من عجوز ملتح هنا ، أو سيدة أو فتاة محجبة هناك . وبعد الظهيرة بقليل كان موعد انصراف المدارس قد حل ، فامتلأت الشوارع بالطالبات اللواتي ارتدين ملابس تتراوح بين الطويلة المحتشمة وبين النقاب . وعندما حاول زميلي المصور التقاط صور لهن تحاشت بعضهن عين « الكاميرا » ، بينما سار بعضهن الآخر غير مباليات بنا . وكان علينا بعد ذلك ، وبعد أن أخذنا صورا للمسجد عن بعد ، أن نمضي عائدين الى مدينة « باتلي » التي كانت مدرستها الإسلامية الشهيرة ، مدرسة زكريا الإسلامية العليا للبنات ، قد أغلقت أبوابها .

ومن هناك الى برادفورد ، ثم الى لندن من حيث بدأنا رحلتنا .

مسلمون انجليز

ليس مسلمو بريطانيا بالضرورة أناسا قدموا الى الجزر البريطانية من « ماوراء البحار » ، كما يقول الانجليز ، فخلال سنوات الوجود الإسلامي في بريطانيا اعتنق الإسلام عدد من البريطانيين الأصليين . وأمام غياب أي إحصاء يتعلق بالمسلمين فإن عدد هؤلاء غير معروف ، وإن كان يقدر ببضع مئات ، وكثيراً ما ينظم هؤلاء أنفسهم في جماعات ليست لها صفة رسمية ، بل هي جماعات تلتقي لتتناقش وتتحاور





(من أعلى) مسجد ديوزبري - (على) سافيل تاون، حي المسلمين في ديوزبري (أقصى اليمين) مركز مدينة برادفورد - (يمين) كنيسة حولت إلى مسجد في برادفورد

في شؤون الإسلام ، وفي سبل دعم منظماته المختلفة داخل بريطانيا ، ودعم الجمعيات والمؤسسات والتنظيمات الدينية في أنحاء العالم الأخرى . وتعمل هذه الجماعات تحت أسماء مختلفة ، مثل « جمعية المسلمين البريطانيين » ، و« جمعية النساء البريطانيات المسلمات » ، وهكذا . ومن أبرز الشخصيات البريطانية التي اعتنقت الإسلام مغني الروك البريطاني السابق « كات ستيفنز » الذي اتخذ لنفسه اسم يوسف إسلام ، وأستاذ علم النفس في جامعة برادفورد عبد الرشيد سكينر .

ويرأس يوسف إسلام مجلس إدارة مدرسة إسلامية في لندن ، اسمها المدرسة الابتدائية الإسلامية ، ويصدر عنها نشرة فصلية بعنوان « الإسلامية » ، يساهم فيها السيد إسلام ببعض المقالات ذات الطابع الإسلامي .

وفيما عدا ذلك فإنه يقوم ببعض الأعمال الخيرية ، ويقدم المساعدات للتنظيمات الدينية الإسلامية ، سواء كانت سياسية أو ثقافية في الخارج . أما بالنسبة للغناء فهو ملتزم الآن بالغناء بمصاحبة الدف فقط ، ويقدم ألحانا لكلمات دينية تتعلق بالإسلام والدين الإسلامي لا غير .

عندما ذهبنا الى « المدرسة الابتدائية الإسلامية » في بروندزبري بارك بشمال لندن كان يوسف إسلام يرأس اجتماعا للمدرسين ، وحين انفض الاجتماع لم يكن بقي على صلاة الجمعة سوى وقت قليل ، وكان علينا خلال هذه المدة البسيطة من الوقت أن نتحدث إليه ، لا عن أسباب إشهاره إسلامه ، ومتى وكيف ، بل عن نشاطه الحالي . قال يوسف إسلام إنه الآن يكرس جهوده لثلاثة أنواع من النشاط ، هي التعليم والدعوة والعون الإسلامي . وأضاف أن الدعوة تلتقي بشكل أو بآخر مع السياسة ، ومن هنا يأتي النشاط ذو الطابع السياسي مثل تقديم المعونة للفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وأولئك الذين يعيشون في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ .

أرقام وحقائق :

يزيد عدد المسلمين في بريطانيا على مليوني نسمة ، وعلى الرغم من أن بعضهم ينزل بالرقم إلى ١,٥ مليون ونصف مليون ويصل به آخرون إلى ٣ ملايين ، فإن الأرجح أن يكون العدد مليونين . ويبدو أن من يعتمدون رقم ٣ ملايين يضيفون إلى المسلمين الحاصلين على الجنسية البريطانية الطلبة والموظفين وغيرهم من العاملين في بريطانيا كمغتربين ، ممن لم يحصلوا على الجنسية البريطانية .

وليست هناك إحصائية معتمدة لعدد المسلمين هناك بعد ، ولا توجد أي مواد مكتوبة وموثقة ، تتضمن المعلومات الأساسية عنهم ، كما أخبرني الدكتور علي الغامدي ، ولكن يقدر عدد سكان برمنغهام المسلمين بين ١٠٠ - ١٥٠ ألف نسمة . وفي برادفورد بين ٦٠ - ٨٠ ألف نسمة ، وفي منطقة شرق لندن وحدها هناك ٥٠ ألفا . ويوجد في برمنغهام ٦٠ مسجدا ومركزا إسلاميا ، وفي برادفورد ٣٨ مسجدا ومركزا . ويحضر الدروس الدينية في المركز الثقافي الإسلامي بلندن ١٥ ألف تلميذ ، ويحضر الاحتفال بعيد الفطر في المركز نفسه نحو ٦٠ ألف شخص .

وقبل أن أبدأ بالاستطلاع كنت أعرف أن المركز الثقافي الإسلامي بلندن هو الأكبر في بريطانيا ، وعندما ذهبت إلى برمنغهام قيل لي : إن مسجد برمنغهام هو المسجد المركزي ، وهو الأكبر . وفي ديوزبري قيل لي : إن المسجد هناك هو الأكبر في أوربا كلها . وكان علي بعد ذلك أن أستنتج أن مركز لندن الإسلامي هو الأكبر من حيث الأهمية والإمكانيات والدور الذي يلعبه ، وأن مركز برمنغهام الإسلامي أهم المراكز في الشمال ، بينما قاعة الصلاة بمسجد ديوزبري هي الكبرى . والله اعلم .



○ السيد لياقت حسين
أمين مجلس المساجد ببرادفورد

تذكروا الميتين

أثناء حديثي مع أحد سائقي سيارات الأجرة في مدينة برادفورد ، قال السائق المسلم : إنني الآن في نهاية حياتي العملية ، فأنا أشرف على الستين . وعندما يحين موعد تقاعدي فإنني سأعود الى باكستان ثانية ، حيث سأقضي هناك شيخوختي ، وعندما أموت أدفن هناك . وفي تحقيق واسع عن المسلمين في بريطانيا نشرته صحيفة الديلي ميل البريطانية ، في فبراير الماضي ، قال المحرر : إن تكلفة نقل الجثمان الى باكستان تعادل حوالي ٣ آلاف جنيه استرليني ، وأضاف المحرر : إنه مع ذلك يطلب كثير من المسلمين البريطانيين أن يدفنوا في أرض أوطانهم الأصلية ، وهي فكرة يعارضها مسلمون آخرون ، فبالنسبة لهم ، مادام هؤلاء اختاروا بمحض إرادتهم الجمع بين الهوية البريطانية ، والدين الإسلامي أصبحت بريطانيا هي وطنهم الذي يولدون فيه ، وفيه يعيشون ويموتون ويدفنون .

توجهنا الى مدينة بروكوود جنوبي لندن ، حيث تقوم المقبرة الإسلامية . ومقبرة بروكوود هي في الأساس مقبرة لقتلى الجيشين الأميركي والكندي في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ولكن جزءا من المقبرة اقتطع ليكون مكانا يدفن فيه المسلمون . دخلنا البوابة التي لم تكن مقفلة على أي حال ، الى المقبرة التي شقتها طريق ترابية عريضة الى نصفين ، تركت مقبرة قتلى الحرب البريطانيين والأميركيين والكنديين معزولة عن مقابر المسلمين .

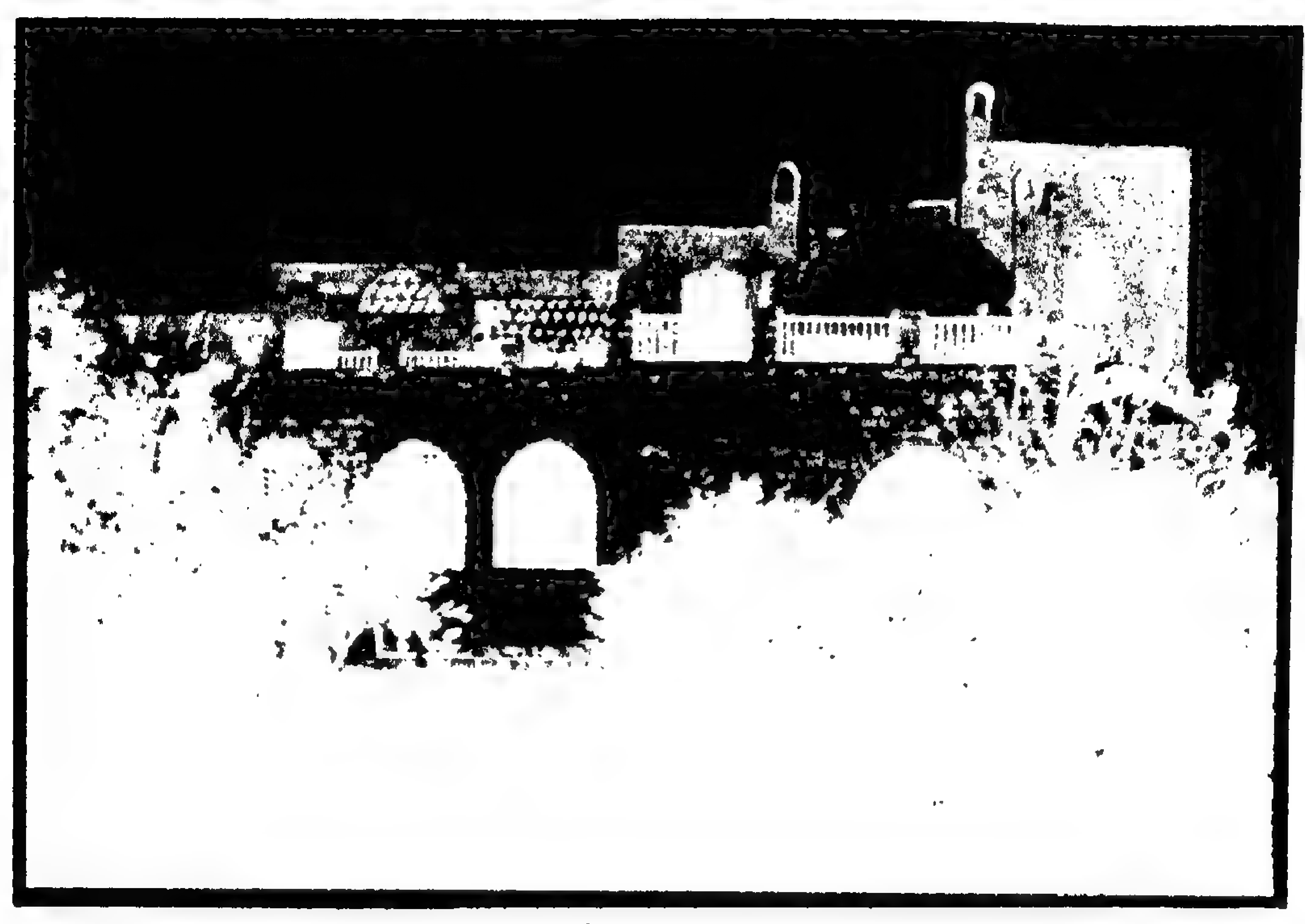
أتراك ، هنود ، باكستانيون ، وعرب من العراق ، واليمن ومصر ، وفلسطين ، وجدوا مكانا للراحة الأبدية في تلك البلاد .

القبور لها سمات الأحياء ، قبور بنيت فوقها القباب ، وقبور أحاطت بها جدران من الرخام ، كتبت عليه الآيات القرآنية ، ومعلومات عن صاحب القبر ، وقبور أخرى من الحجارة ، وقبور غيرها غطتها الزهور ، فيما نما العشب على بعض القبور ، بحيث لم نعد نعرف إن كنا نسير فوق التراب أم فوق أديم أجساد إخوتنا الميتين ، الذين لم تبخل عليهم الأرض الغريبة بحفرة توارى فيها أجسادهم .

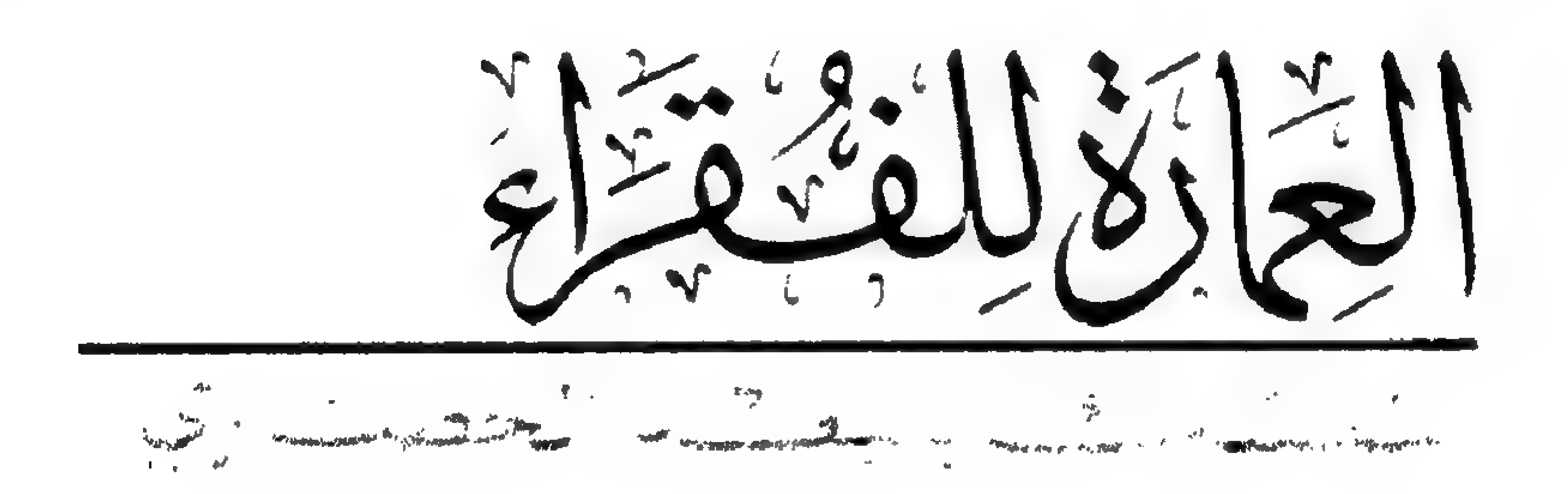
وعلى تلة ارتفعت بجانب الطريق المؤدي الى القسم الخاص بقتلى الحرب الأميركيين والكنديين ، انتصبت شاهدة حملت اسم الشهيد ناجي العلي ، رسام الكاريكاتير الفلسطيني ، وفي الطريق المقابل ، لفت نظري رسم لعلم أحمر وسيف ونجوم ، وعندما اقتربت منه قرأت على الشاهدة اسم زوجة الإمام يحيى حميد الدين ، إمام اليمن الأسبق .

عندما أذن الرحيل كانت مجموعات من الناس ، ارتدى معظمهم الملابس السوداء ، مازالوا ينظفون قبور أقاربهم ، ويضعون عليها الزهور ، ويسقون زهورا غيرها بالماء ، في لمسة وفاء إنسانية لا تشوبها شائبة .

تركنا هذا المشهد الحزين وعدنا أدراجنا . □



○ الواجهة الجنوبية لمنزل من أعمال حسن فتحي



بقلم : الدكتور عبدالرحيم ابراهيم أحمد*

إذاكان قيام أي تجمع بشري يرتبط بالأرض الخصبة والماء العذب والمناخ المعتدل ، فان المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، ظلت عناصر أساسية وضرورة ملحة على مدار الساعة لاستمرار الإنسان وتكاثره وإنتاجه ، ومن هنا كانت النظرية التي يعرضها هذا المقال .

* مدرس تاريخ الفن ـ كلية الفنون الجميلة ـ جامعة المنيا ـ جمهورية مصر العربية

المسكن واحد من ضرورات الحياة ، وهو العامل الحاسم في تحديد مستوى المعيشة وكيفيتها . فلا عجب إذن أن تكون معظم أعمال المعماريين والفنانين والمسئولين عن الاسكان وجهودهم منصبة على الحلول المثالية ، بهدف الوصول إلى حل لمشكلة الاسكان ، وجعلها تتناسب مع الحالة الاجتماعية والاقتصادية للإنسان نفسه ، مع عدم إغفال ظروف البيئة .

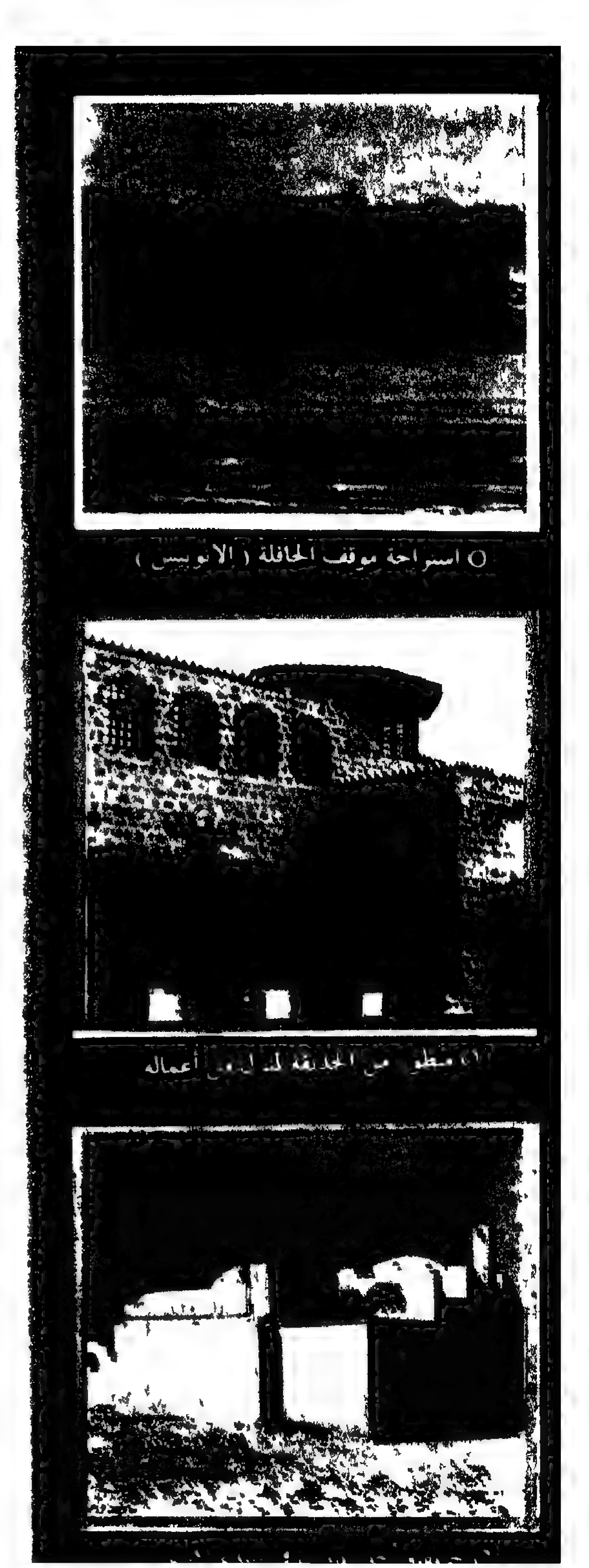
بين الأمس واليوم

تعددت النظريات الهندسية والمعمارية من أجل بناء مسكن رخيص للإنسان ، رخيص في تكاليفه المادية سواء في الخامات أو في استخدام الأيدي العاملة . وبعيد عن التكاليف الباهظة في إقامة العمائر الضخمة وطرق إنشائها وتزويقها . ونحن هنا نتكلم عن المسكن الرخيص للفقير ، فالغني لن يزعجه أي ارتفاع في التكاليف .

ومن خلال مقولة أن البيت يسكنه واحد ويبنيه عشرة ، فإن ما يثقل على الحكومات المختلفة في العصر الحديث هو كيفية إيواء الملايين من الأسر الفقيرة وخاصة في العالم الثالث .

ولعل أهم تجربة في هذا الشأن خرجت من فوق أرضنا العربية ، وبفكر عربي خالص ، وبتأثير من التراث العربي . وأعني بها تلك التجربة التي قدمها المهندس المعماري العالمي « حسن فتحي » .

وما أحوجنا في الوطن العربي إلى دراسة نظرية ذلك المهندس المصري المولد ، ليس من أجل الاستفادة منها فقط ، بل من أجل المحافظة على التراث الحضاري كقيمة ثقافية ، فالشارع العربي اليوم يختلف تماما عن شارع الأمس ، إذ يمتلىء اليوم ضجيجا وصخبا وصراخا وغبارا وزحاما وتلوثا. ومع هذا فقد تغيرت عمارتنا بشكل كبير متأثرة بنظريات معمارية غريبة عنا . فبالأمس كان الشارع العربي أقل ضجيجا وزحاما وتلوثا ، ومع



○ استراحة موقف الحافلة (الأتوبيس)

○ منظر من الحديقة لأحد أعماله

ذلك كان أسلافنا يفتحون غرف الدار عن صحن داخلي مكشوف، بعيدا عما كانوا يعدونه ضجيجا وتلوثا ، ناهيك عن الابتعاد عن نظرات العابرين والرغبة في ستر داخل البيت عن مشاغل البيئة .

أهم من ذلك كله هو « العمارة للفقراء » الذين يمثلون الغالبية العظمى من سكان العالم الثالث . ويعد « حسن فتحي » أحد الرواد الكبار والقلائل في العالم الذي اقترح ونفذ ما يمكّن الفقير من امتلاك مسكن صحي ملائم من خلال النظر إلى ظروف البيئة . وقد ذاعت نظريته وانتشرت ، وأخذ بها العديد من الدول من أجل حل مشكلة اسكان الفقراء . ومن خلال النظر إلى أفكاره يمكن أن نصنفّها على النحو التالي :

أولا : رفض الاستعارة

المقصود هنا ليس رفض الاستعارة فقط ، بل والتمسك بالعمارة التي تصوغها البيئة المحلية ، وهو يقصد بالاستعارة من جهة محددة هي أوربا . ويرى أن احترام البيئة أمر مهم . ويجب أن تكون العمارة متناسبة معها من حيث الاستخدام والذوق العام . ولذا فمن الواجب دراسة البيئة قبل البدء في التعمير .

ويقصد بالبيئة تلك الظروف المحيطة التي تؤثر في النمو والحياة . والبيئة التي تهمنا في هذا المجال يمكن تقسيمها إلى نوعين .

أ ـ البيئة من صنع الخالق العظيم ممثلة في الجبال والأودية والأنهار والبحيرات والمسالك والدروب . . الخ .

ب ـ البيئة الحضارية وهي التي يتدخل الإنسان في صنعها من حيث المنشآت والطرق الممهدة عبر البيئة التي من صنع الخالق سبحانه وتعالى ، وغير ذلك كثير .

وللبيئة دور مهم في عمليات التصميم ، إذ تجب مراعاة العوامل الجوية ومواد البناء المتوفرة ، ثم مراعاة خصائص الإنسان الذي سيعيش فيها من النواحي « الفسيولوجية والسيكولوجية » . ومن هنا كانت العمارة التي تصلح في المدن تختلف عنها في الواحات ، إذ لكل بيئة عمارة تناسبها وذلك اعتماداً على العوامل نفسها السابق ذكرها « الجو والبيئة الطبيعية » ، فهي التي توجد الفروق الأساسية في تشكيل حياة الإنسان . وإذا ما أدرك المعماريون هذا الفرق بين منطقة وأخرى ، فإن ذلك وبلا شك سوف يساعد على تنمية الشخصية في العمارة التي تعد من أهم أركان الثقافة .

ولا يقف الأمر عند المناخ الطبيعي وحده واتجاه الأشعة ، ومساقطها ، بل يعدوه إلى المنظر الطبيعي الذي يعد من العناصر المهمة في تحديد شكل العمارة التي كانت انعكاسا للبيئة ، مما دعا بعض المعماريين إلى إطلاق صفة الصدق في التكوينات المعمارية التي كانت نتيجة طبيعية لتفاعل الإنسان مع البيئة . وحيث إن البيئات تختلف الواحدة عن الأخرى فقد جاءت حصيلة هذه التفاعلات مختلفة من بلد إلى آخر ، مما جعل المعماريين يبحثون عن تصميمات تناسب كل بيئة تكون نابعة من وجدان تلك الجماعة دون ما تكلف ، حتى لو جاءت لنا بطرز معمارية متميزة محببة إلى نفوس أهلها ، والتي أصبحت سمة لهم ، وأصبح الطراز بمثابة الشعار لتلك الجماعات . على أن الشعور بالجمال في العمارة يعد أمرا نسبيا يختلف فيه الحكم من فرد إلى آخر ، ومع ذلك فإن الشيء الجميل يتطلب استيفاء عدة شروط حتى يكتسب هذه الصفة .

والمعنى الإجمالي عند « حسن فتحي » هو أن الجمال المعماري في المبنى ، إنما هو صفة تعبيرية تنتج التأثير بالشكل في الشعور ، بالتوافق بينه وبين القوى العاملة على تكوينه . ويمكن القول بأن الطبيعة لم تقصد خلق الجمال ، إنما الإنسان هو الذي يصف هذه الأشياء بتلك الصفة من واقع إحساسه بتوافق الشكل .

ثانيا : الاعتماد على الخامات المحلية

ينادي « حسن فتحي » بضرورة الاعتماد على الخامات والموارد من البيئة نفسها ، وفي تجربته في مصر كانت الحجارة والطين هما الأساس في تجربته ، وكذلك فإن عدم الإسراف يعود بفوائد كثيرة أهمها احترام الطبيعة من حيث الأحوال والأبعاد . وتتماشى مع المنظر المحيط بما فيه من منشآت ، بحيث تبدو العمارة في النهاية في ترابط عضوي يؤلف ثبتا واحدا ، لا اختلاف فيه ولا نشاز .

واستخدام المواد المحلية يحل بعض المشاكل الاقتصادية التي يعاني منها العالم الثالث على وجه العموم ، وبعض من وطننا العربي على وجه الخصوص ، إضافة إلى أن الروح الفنية الأصيلة سوف تفرض نفسها على العمل المعماري بدون شك « عندئذ » .

والمتأمل لتلك النظرية عند « حسن فتحي » يجد أنها تتراوح بين زوايا ثلاث متساوية في مثلث واحد،عمادها الانسان ، والمعمار ، والفن . إذ لابد من المحافظة على توازنها كشرط أساسي لنجاح العمل العمراني ، الانسان بكل متطلباته الفطرية والنفسية والعصبية ، والمعمار بمتطلباته الإنشائية والهندسية والثقافية والحضارية ، والفن بكل متطلباته الجمالية والبصرية والتطبيقية .

ثالثا : التمسك بالبعد الحضاري

لابد من التمسك بالبعد الحضاري الذي يجمع بين التراث والمعاصرة والمستمد من الطابع الفني والقومي الذي خلفته العصور السابقة ،

ولا شك أن مستحدثات العصر ليست هي كل شيء ، بل انها كثيرا ما تكون عاملا مساعدا على طمس جمال البيئة ، وخير الأمثلة الدالة على هذا الطمس هو استراحة الملك فاروق « آخر ملوك مصر » ، وفندق مينا هاوس « بمنطقة الهرم » حيث جاءت الإضافات عليها خالية من اللمسات الجمالية والفنية ، الأمر الذي أدى إلى طمس كل معالم الجمال السابقة في العمارتين . ومثال آخر هو عمارة الجدران الزجاجية التي هي أحدث النظم المعمارية المعاصرة،والتي تهدف إلى انفتاح المبنى على المنظر الخارجي مما دفع بالفراغ المحدود بالجدران للتسرب إلى الخارج مصطحبا معه العمارة كلها ،ولا ننسى أن العمارة هي الفراغ المحصور بين الجدران وليس الجدران نفسها ،من هنا ، أصبحت العمارة كشخص وجد نفسه عاريا في وسط البيئة .

« حسن فتحي » المعماري المفكر

إن « حسن فتحي » المعماري صاحب نظريات أصيلة في فن العمارة الريفية والصحراوية،فجعلها أقرب إلى البساطة والتلقائية ، ولكنه أخضعها لتقاليد العمارة الإسلامية بوجه عام . أما عن صياغته المعمارية للمدينة ، فكانت تعتمد كليا على تقاليد وعظمة العمارة الإسلامية في الاستفادة من الخامات المحلية ، وفي تصميم السقوف على شكل قبو ، وبذلك امتزجت كل جهود الشد والانحناء والقص ، واقتصرت على جهود الضغط . والطوب الأخضر يتحملها بكل يسر ، وهي أساليب معمارية كانت مستخدمة في « النوبة » في مصر .

ولقد ثبت أن المواد الأولية المحلية هي أكثر المواد ملاءمة للبنيان من حيث التكاليف . وهذا بالضبط ما تحقق في قرية « القرنة » التي بناها بالبر الغربي لمدينة الأقصر بصعيد مصر . وقد جاءت القرية مؤكدة ذلك الطابع القومي في شخصيتها وبساطتها ، الأمر الذي نقل فكرتها ونظريتها وعمارتها من المحلية الى العالمية .الأمر الذي دفع باسم المعماري « حسن فتحي » إلى العالمية باعتباره خبيرا في مشروعات الإسكان الريفي ، وتبنت « هيئة اليونسكو » أبحاثه وتم تنفيذ العديد منها في أمريكا وآسيا وأفريقيا . أما لماذا لم ينجح



○ المعماري الفنان حسن فتحي ولحظة تأمل

مشروع قرية « القرنة » ، فتلك قصة أخرى ، إذ أن سكان « القرنة » كان لهم رأي آخر . . فإفشالها يعود إلى ذلك الارتباط بين حراس الآثار الفرعونية و « المافيا » العاملة في تهريبها - إذ أن سكان القرنة وجدوا أن بيوتهم تقوم فوق المقابر القديمة فأخذوا يكشفونها قبرا بعد آخر ويبيعون ما يعثرون عليه ، ولما جاءت مصلحة الآثار وكلفت « حسن فتحي » ببناء « القرنة » ، كان من الطبيعي أن يرفض السكان ترك الكنز الذي هو أسفل بيوتهم القديمة . ولقد بنى بيوت القرية من الحجر والطمي التي كانت أرخص المواد وأفضلها لسكنى المناطق الحارة ، أما عن التكاليف فهي لا تكاد تذكر إذا ما قيست بأسعار البناء في عام ١٩٤٦ تاريخ البدء في بناء القرنة أو عام ١٩٥٣ تاريخ الانتهاء منها .

نظرية اسكان الفقراء كتجربة سجلها في مؤلفه العلمي الكبير باسم « العمارة للفقراء » الذي نشره باللغة الإنجليزية لعدم وجود ناشر مغامر ينشره بالعربية ، وقد ترجم هذا المؤلف لخمس لغات غير الانجليزية ، هذا بخلاف ٢٨ بحثا وكتابا آخرين .

ولم تكن « القرنة » هي التجربة الوحيدة . فلقد كان تصميم المباني الريفية عام ١٩٣٧ بالوجه البحري بمصر هو أول التصاميم ، ثم استخدم القباب فوق المباني الطينية في قرية ، « بهتيم » وفي الواحات المصرية وعلى السواحل . وكانت له تجربة فريدة أيضا في واحة باريس المصرية في الصحراء الغربية .

ولقد تنبهت الدول الأخرى لنظرية العمارة للفقراء ، فاستعانت به في التخطيط والإشراف لإقامة عمائر الفقراء في بعض الأقطار العربية والافريقية والآسيوية ، بل في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، إذ أقام بها قرية « دار السلام » في « نيومكسيكو » بتكاليف لم تتجاوز ثلث تكاليفها الحقيقية إضافة إلى المحافظة على الطراز .

المعارضة القوية

ولقد واجهت نظريته معارضة شديدة من أصحاب المصالح ، وهؤلاء الذين تتأثر أعمالهم مباشرة نتيجة الاستغناء عن الخامات المستوردة أو المقاولين وأصحاب الأعمال . كلهم تحالفوا ضده في وطنه مما أكسبهم نصرا مؤقتا . على الرغم من أنه كان يكسب الجولة الأولى دائما . فكانت المؤامرات والتحالفات تتقدم لتضغط ضده وتنتصر في النهاية . ومن هنا انتقل بنظريته للغرب وللشرق ونجح هو ونظريته نجاحا باهرا .

إن العمارة للفقراء لن تنسى ذلك المناضل من أجل انتصارها ، والذي وهب نفسه لتلك النظرية في طول العالم وعرضه.ومازال - على الرغم من أن المرض والشيخوخة أقعداه - يعطي لتلاميذه فكرة عن طرق ووسائل البناء للفقراء . □



د. لطيفة الزيات ● أمينة النقاش

● كان اشتغال النساء بالسياسة نادرا في زماني.

● غلبت الجانب العقلي في حياتي سنين طويلة على الجانب الوجداني.

● أرى أنه ليست هناك مشكلة في أن تجد الفتاة المستنيرة نفسها ندًا للرجل.

● شعار مساواة الرجل بالمرأة يحتاج إلى مجهود النساء لإثبات الأهلية

مئات الآلاف من الفتيات اللاتي يعملن ويتعلمن ويكتبن في الصحف وينتشرن في دور القضاء وقاعات المحاكم ، بل ويحملن حقائب وزارية ، لا يتصورون كيف كان وضع المرأة في الوطن العربي منذ أكثر من نصف قرن ، حين كانت نسبة الأمية وسط النساء أربعة أضعاف نسبتها بين الرجال ، وكانت المرأة محرومة من العمل والتعلم والتفكير ، ومحظور عليها اختيار أي شيء ابتداء من لون ملابسها حتى شخص زوجها . ومئات الآلاف من النساء لا يذكرن الرائدات اللواتي بدأن التمرد وبدأن الدق على جدران « الشرنقة » داعيات لنيل المرأة حقوقها الانسانية والطبيعية ، ووقف التمييز العنصري الرجولي ضدها .

وهذه محاولة للاقتراب من العالم الخاص والعام لواحدة من رائدات الحركة الوطنية المصرية ، والحركة النسائية بوجه خاص هي الدكتورة لطيفة الزيات ، استاذ الأدب الانجليزي بكلية البنات جامعة عين شمس ، والناقدة ، والروائية والصحفية والمناضلة من أجل حرية الوطن وحرية المرأة .

الحوار الذي أجرته معها الزميلة أمينة النقاش محاولة لاستكشاف العوامل الذاتية والعامة التي دفعت بها الى هذا الطريق الشاق والصعب ، وللتعرف على الجهد الكبير الذي بذلته لكي تثبت أهليتها ، وبالتالي أهلية المرأة لأن تحصل على حقوقها .

سألت الدكتورة لطيفة الزيات :

* في الظروف التي أحاطت بنشأتك ، هل كان هناك « شرنقة » أسرية . حولك ، أم اجتماعية ، أم الاثنتان معاً ؟

- بالقطع ، شأني في ذلك شأن أي فتاة مصرية أو عربية . فمنذ أن بلغت من العمر عشر سنوات ، بدأ الحجر على حركتي يظهر بشكل واضح ، وأخذ هذا الحجر شكل منعي من الحركة ، وكان الطريق الوحيد المسموح لي بقطعه هو الطريق من المنزل الى المدرسة وبالعكس . والشرنقة ليست تقييداً لحركة الدخول والخروج فحسب ، بل أشد وطأة من ذلك . فالشرنقة هي السعي الدؤوب لصب الفتاة في قالب معين هو القالب المرضي عنه والمرغوب فيه .

وبالنسبة لي فقد كنت طفلة شديدة الحيوية ، ومن المدهش أن هذه الحيوية ، كانت مصدر إزعاج دائم لوالدي الذي كان يرى في الهدوء والصمت والرقة ، مرادفاً للفتاة المثالية . وهكذا تولت والدتي مهمة ترويضي وصبي في القالب الاجتماعي المقبول والمرضي عنه بالنسبة للمرأة . وأخذت عملية الترويض شكلاً ملحوظاً في كل كبيرة وصغيرة من حياتي . فطريقتي في الجلوس لا تعجب والدتي ، وطريقة كلامي لا تروقها ، وصمتي في حضور الضيوف لا يرضيها ، وكلامي معهم خروج عن السلوك المألوف ، وارتفاع صوتي « قلة أدب » وانخفاضه غير مرغوب فيه وهكذا .

واستهدفت عمليات الترويض - التي أعتقد أن كل فتاة عربية تمر بها في عمر الصبا - صبّي في القالب المطلوب اجتماعياً ، ودفعي لاهتمامات محددة غير مسموح لي بتجاوزها :

الاهتمام بزينتي ، وإجادة العزف على البيانو ، والرسم في أحيان أخرى .

الخروج من الشرنقة

* وكيف خرجت من هذه « الشرنقة » الى عتبات الدراسة ؟

ـ قد يدهشك القول أن الحظ لعب دوراً مهماً في هذه الزاوية من حياتي . فبعد حصولي على الابتدائية أراد والدي أن ألزم البيت ، ورفض فكرة دراساتي ، ولكن من حسن حظي أن شقيقيّ عبد الفتاح الزيات ومحمد عبد السلام الزيات ـ وكانا يكبرانني في السن ـ رفضا ذلك ، ولعبا دوراً في اقناع والدي . وكان محمد هو الذي سارع بنفسه الى تقديم أوراقي في المدرسة الثانوية ، وكانت هي المرحلة التالية للابتدائية آنذاك ، وأنا أدين له بالكثير .

اختيار أم مصادفة

* لم يكن التعليم اذن قرارك بل قرار آخرين ؟

ـ بل هو قراري في الأساس ، وآزرني في مواصلته آخرون لسبب بسيط هو أن المدرسة بالنسبة لي لم تكن مكاناً للتعلم فحسب ، بل مهرباً من الشرنقة الأسرية التي تسعى دوماً لتقييد حركتي ، وميداناً لانطلاقي التلقائي ، ومجالاً لكشف قدرتي في التعبير الحر عن نفسي .

* هل كانت دراستك للأدب في الجامعة اختيارا أم محض مصادفة ؟

ـ بل هي اختياري . والدليل على صحة ذلك أنني في الجامعة التحقت بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ، وكان هدفي الواضح من الالتحاق بهذا القسم هو أن أتعلم الكتابة الإبداعية ، ولما كان يغلب على الدراسة في هذا القسم آنذاك قواعد النحو والمحسنات اللغوية لم أجد فيه ضالتي . وفي العام الثاني من دراستي في قسم اللغة العربية حولت أوراقي منه الى قسم الأدب الانجليزي ، ولقد دفعني إلى اتخاذ هذا القرار ـ فضلاً عن رغبتي في تعلم كيف أكتب ابداعاً ـ تشجيع د. لويس عوض الذي كان يدرس الأدب الانجليزي في السنة الأولى بالجامعة . فقد استبشر بي خيراً واقترح علي الانتقال إلى قسم اللغة الانجليزية ، حيث مجال الدراسات الأدبية أكثر اتساعاً . كنت فتاة خجولة الى حد كبير حين دخلت الجامعة ، ولكن في السنة الثانية من دراستي حدث تغير كبير حيث بدأت ممارسة العمل السياسي الوطني .

* وما هو التغير الذي طرأ عليك ؟

ـ تغير لا يصدقّ . فقد انتقلت من فتاة تخجل ـ إذا دخلت قاعة مكتبة الجامعة ـ من أنظار روادها ، الى فتاة تخطب في الجماهير الحاشدة .

فالجامعة كانت المجال الذي فجر كل قدراتي ، ساعد على ذلك أن الفترة التي التحقت فيها بالجامعة كانت فترة من أعظم الفترات في تاريخ مصر ، بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث كانت كل حركات التحرر الوطني في العالم تتطلع لنيل استقلالها ، وكانت الفاشية قد اندحرت ، وأصبح يسود العالم موج من التفاؤل والأمل بالحاضر وبالمستقبل .

* هل مجرد التحاقك بالجامعة هو الذي أحدث هذا الانقلاب ؟

ـ بالقطع لا . فمن المؤكد أنني لو التحقت بالجامعة ، واكتفيت بكوني طالبة دون ممارسة العمل السياسي لبقيت كما كنت ، فتاة منغلقة على نفسها خجولة تحمل جسدها الممتلىء كما لو كانت تحمل وزرا ، وكان العمل السياسي الجماهيري هو الذي حررني من مخاوفي ومن خجلي ومن حيائي ، وشكل نقلة هامة في حياتي ودفعني وغيرني وأعاد صناعتي ، وخلق مني إنسانة جديدة .

لا تمرد ولا استهواء

* ما هي الدوافع الحقيقية لقرار اشتغالك بالعمل العام ، هل كانت تمرداً أم رغبة في كسر المألوف ؟

ـ لا هذا ولا ذاك، يؤكد ذلك تتبع الظروف التي نشأت فيها . فقد ولدت عام ١٩٢٤ في أعقاب اندلاع ثورة عام ١٩١٩ ، وكبرت والناس من حولي يحتفلون بذكرى قائد الثورة سعد زغلول ، ومارست لعبة « نط الحبل » وأنا أسمع الصبية تغني :

« يا مصر ما تخافيشي ، احنا ولاد الكشافة ، وأبونا سعد زغلول وأمنا صفصف هانم » مشيرين بذلك الى السيدة صفية زغلول زوجة الزعيم سعد زغلول ، التي شاركته كفاحه ، وكانت تتزعم بدورها حركة الاحتجاج على الاحتلال البريطاني

لمصر . وفي محيط أسرتي رأيت في صباي شقيقي محمد يقبض عليه أكثر من مرة لاشتراكه في المظاهرات الطلابية ، ولاهتمامه بالاشتغال بالعمل السياسي . وكانت الفترة التي دخلت فيها الجامعة في عام ١٩٤٢ فترة مد ثوري من الطراز الأول . كل هذه العوامل مجتمعة ساهمت في دفعي إلى الاشتغال بالعمل السياسي من باب الاهتمام بقضايا الوطن ، وكنا في تلك السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ، نعيش فترة مد وطني ومشاعر وطنية فوارة ، تنتشر في جميع أنحاء الوطن وبين مختلف فئاته ، فلم تكن الوطنية في هذا العصر غريبة أو شاذة ، فكل الذين يحيطون بي أو أحتك بهم أو أتعامل معهم كان يملؤهم الحماس للوطن والاهتمام بقضاياه .

* ألم يكن اشتغال النساء بالسياسة نادراً في ذلك الزمن ؟

ـ نعم كان نادراً ، وعلى الرغم من ذلك استوعبت الحركة الوطنية في تلك الفترة جهود كثير من النساء ، والقاعدة في ذلك معروفة ، ففي أوقات الانحسار الوطني التي تخيم على الأمة والوطن ، يمتلىء الجو بظواهر من التعصب وضيق الأفق يكون من بينها التعصب ضد المرأة . وعكس هذه القاعدة صحيح ، فحين يسود المد الوطني والجماهيري والنضالي ، يتحرك المستنقع ويتحول إلى مجرى رائق وتسقط عنه كثير من الشوائب والتعصبات . وسط هذا المد الشعبي بدأت عملي في السياسة .

ولم أنتخب عضواً في اللجنة التنفيذية العليا للطلبة والعمال فقط ، بل انتخبت في فترة لاحقة سكرتيراً عاماً للجنة التنفيذية مع عضوين آخرين هما فؤاد محيي الدين رئيس وزراء مصر الأسبق ، وعبد الرؤوف أبو علم أحد قادة الحركة النقابية العمالية . وكانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال لجنة جبهوية تشكلت عام ١٩٤٦ من ممثلين لطلاب الجامعات من مختلف الاتجاهات السياسية الوطنية ، وممثلين لنقابات ، وكانت بمثابة قيادة جديدة للحركة الوطنية في مصر في أعقاب الحرب العالمية الثانية ونظمت مناسبتين هامتين في التاريخ العربي والعالمي ، أولاهما مظاهرة ٢١ فبراير ١٩٤٦ لجلاء الانجليز عن مصر ، وأصبح اليوم فيها يعد يوماً عالمياً للطلاب وثانيتهما يوم ٤ مارس وكان يوم الحداد العام على الشهداء .

محنة الاختيار

* ما هي أنواع العقوبات التي تحملتها مقابل تحطيمك لجدار الشرنقة ، وكيف تغلبت عليها ؟

ـ كثيرة ومتنوعة ، أسرية واجتماعية ، ففي الفترة التي كنت أتزعم فيها حركة الطلاب في الجامعة ، لم أكن قادرة على الخروج من المنزل كما أشاء ، وكنت ما أزال ملزمة بالعودة للمنزل في مواعيد محددة ، على الرغم من أن العمل السياسي كان يقتضي مني حرية واسعة في الحركة ، فلم أتمكن من نيلها كاملة على الرغم من تغير ظروفي الأسرية .

فقد مات والدي وعمري ١٢ عاماً ، وكان الوجه الآخر لمأساة فقداني لوالدي ، أن أشقائي الذين تولوا مسئولية تربيتي بعد موته كانوا أكثر استنارة منه ، فلم يقفوا في وجه نموي الانساني .

هذا في محيط الأسرة ، أما في محيط المجتمع فقد هوجمت كثيراً أثناء ممارستي للعمل على الرغم من شدة تزمتي ومحافظتي في العلاقات الاجتماعية . وأثر هذا الهجوم الضاري والشرس على معنوياتي بشكل سلبي . ولكني بعد تأمل ساءلت نفسي : هل أنا جادة في خوض ميدان العمل السياسي أم غير جادة ؟ فإذا كانت الأولى فعلي أن أهب نفسي للعمل الوطني ، وأحشد قواي لصد الهجوم المعادي من أي ناحية . وإذا كانت الثانية فليس أمامي سوى أن ألزم المنزل ولا أغادره إلا للدراسة . ولقد اخترت الحالة الأولى على الرغم من المشاق التي تبعتها ، وساعدني على ذلك أن المناخ العام الذي شهد توهج الحركة الوطنية المصرية كان ملائماً .

ولو أنني استجبت لتلك الضغوط لكان يمكن لحكايتي أن تتحول الى حكاية تقليدية لفتاة مصرية عادية ، أما وقد انخرطت في العمل الوطني والسياسي ، فقد أخذت الجماهير بيدي ومنحتني وضعاً خاصاً حررني من كثير من النواقص التي تكبل حركة المرأة .

الثمن !

* ما هي التضحيات التي قدمتها مقابل قرارك بالتحرر ؟

ـ تضحيات عديدة ، أقلها السجن والاعتقال ،

ويضاف الى ذلك أنني غلّبت لسنوات طويلة في حياتي الجانب العقلي على الجانب الوجداني ، وأهدرت سنين عديدة وأنا أكبل نفسي وجدانياً ، فكان من الطبيعي بعد ذلك أن يأتي وقت في حياتي أغلّبُ فيه الجانب الوجداني كاملاً على حساب الجانب العقلاني ، فأترك الاهتمام العام وأنصرف بكليتي لكوني امرأة .

* هل كان الخطأ في الحالة الأولى أم في الثانية ؟

ـ في الحالتين . فمن وجهة نظري لا بد أن يكون هناك توازن مستمر بين الجانب العقلاني والوجداني للمرأة ، لأن ترجيح كفة إحداهما على الأخرى يفسح المجال لأخطاء كثيرة للانسان بشكل عام ، رجلاً كان أم امرأة .

* هل تعتقدين أن المرأة حيث هي امرأة مأساة ؟

ـ لا شك أن أعباء كثيرة تقع على عاتق المرأة في الحياة ، حيث يطلب منها القيام بأدوار عدة لا تطلب من الرجال ، فعليها أن تكون أمّاً وزوجة ناجحة في إدارة بيتها ، وامرأة فاضلة تغفر كل الأخطاء ، ونتيجة للظروف التي تنشأ فيها النساء في مجتمعنا فإن قيوداً غير مرئية تفرض عليهن ، أخطرها أن يبقى الرجل هو البند الأول في حياة المرأة ، في حين تكون هي البند الثاني في حياة الرجل . والنتيجة حين تنكسر المرأة عاطفياً تتكسر كلياً ، بينما إذا تعرض الرجل لنكسات عاطفية يستطيع أن يستكمل مشواره على اعتبار أن العمل هو القيمة الأولى في حياته .

وإذا كان التراث الطويل من التنشئة الخاطئة للمرأة هو المسؤول عن ذلك ، فلا شك أن المرأة نفسها تتحمل جزءاً من المسؤولية عن تلك الأوضاع .

* هذا عن الجانب العام ، فماذا عن الجانب الشخصي ؟

ـ أنا شخصياً لا أعتقد أن وجودي كامرأة يعد مأساة فأنا متصالحة تماماً مع حقيقة أنني امرأة ، ولم أقاسِ كثيراً من تلك الحقيقة إلا في الحدود التي ذكرتها ، بل إني أحب كوني امرأة . وليس لدي هذا الشعور الدائم المقلق والموجود لدى الكثيرات اللواتي يبدين وكأنهن يردن إثبات شيء ما : فليس لدي حاجة لمثل تلك المشاعر .

ففي أعماقي أشعر أن عقلي لا يقل عن عقل أي رجل ، وأن تفكيري لا يقل اتزاناً عن تفكيره ، كما أن قدراتي العقلية لا تقل عن قدرات كثير من الرجال وربما تفوق بعضهم . وأعتقد أن هذا يرجع لعملي السياسي الجماهيري في الجامعة الذي منحني الاحساس بالندية مع أقراني من الرجال .

* هل أفهم من هذا أنك ترين أن المرأة لكي تحقق وجودها لابدّ أن تزاول العمل السياسي ؟

ـ لا ليس كذلك . فالأساس أن تفعل المرأة شيئاً خارج ذاتها وخارج جدران منزلها ، وأن يكون لها دور في مجتمعها أوسع من دورها في نطاق الأسرة ، حتى لو عن طريق الاهتمام بالجمعيات الخيرية . بل إن الاهتمام بقضايا الوطن حتى لو لم يتبعه أي فعل ، هو دور ولون من ألوان التحقق أيضاً . وتلك كانت الفكرة الرئيسية لروايتي « الباب المفتوح » والقائمة على أن الانسان لا يعثر على ذاته الحقيقية إلا إذا فقدها أولاً في شيء أكبر من تلك الذات وهو الوطن .

لست عدوة للرجـــال

* كيف ترين الأجيال الجديدة من الفتيات التي تسعى لكسر القيود حول حركتها . . . هل تشجعينها أم ترثين لحالها ؟

ـ الحقيقة أنني أؤمن أنه ليس هناك جهد إلاّ وله ثماره . فكل جيل ينهض ويتقدم على ما حققه الجيل الذي سبقه . والآن حين أنظر حولي أرى أنه ليست هناك مشكلة أن تجد الفتاة المستنيرة نفسها نِدًّا للرجل ، وأن تعتقد أنها في أعماقها كذلك . ولم يكن هذا في جيلي شائعاً ، ولكنه أصبح كذلك الآن بحكم الحركة والمقاومة التي خاضتها أجيال سابقة ، والتضحيات التي قدمتها على هذا الطريق أجيال الأمس فلقد أتاحت لامرأة اليوم أن تتمتع بنديّة للرجال لم تكن تتمتع بها من قبل .

* هل تعتقدين أن شعار مساواة الرجل بالمرأة ، يحتاج إلى جهد من النساء لإثبات الأهلية أكثر من مجرد طرحه كشعار ؟

ـ لا شك في ذلك . فالمرأة لكي تثبت أنها جديرة

بالمساواة يجب أن تعمل بقدر ما يعمل الرجل ، وأن تسعى للتحقيق بمقدار ما يسعى هو ، وأن تخلص لعملها بقدر ما يخلص هو لعمله .

ولكن هذا لا ينفي ـ بالنسبة لي ـ أنني أجد قضية حرية المرأة قضية مجتمعية في المقام الأول ، ولن تحل مشاكل المرأة إلا في سياق حل مشاكل المجتمع ككل . أمة لا يتمتع فيها الرجال بالحرية من الغرابة بمكان أن نرتب أسبقية لحرية المرأة على حرية الرجل .

* ما مدى مسئولية المرأة عن هذا الانبعاث الرهيب لدعاوى عودتها للمنزل وحرمانها من العمل ؟

ـ هي مسئولة في حالة استجابتها لتلك الدعاوى ، فلا يهمني أن يصرخ أحد في هذا الاتجاه أو ذاك مطالباً بعودتي للمنزل ، طالما أرفض هذه العودة ، وطالما لم يصل هو الى الحكم ليجبرني على ذلك . والمشكلة هنا تكمن في استجابة المرأة لهذه الدعوات ، ومن المؤسف أن يكون لاستجابة النساء جذور اقتصادية هامة تتمثل في أزمة المواصلات وقلة دور الحضانة وارتفاع أسعارها . مما يجعل استجابة المرأة لترك العمل ممكنة .

وعلى العموم فالضرر الذي يترتب على عودة المرأة العاملة للمنزل هو ضرر محصور في النساء العاملات والفلاحات وصغار الموظفات ، ليس اختياراً أو ترفاً ولكنه احتياج اقتصادي حقيقي . ليس هذا فحسب ، بل إن الظروف الاقتصادية القاسية لترفع الى ساحة العمل بعض نساء الطبقة الوسطى ، ممن لم يكن من المتصور أن يعملن ليضمن دخلا إضافيا للأسرة .

* وما هو تفسيرك لبروز هذه الظاهرة ؟

ـ الانبعاث الرجعي لأفكار عودة المرأة للمنزل مرتبط بتصاعد الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فاذا ما حلت تلك الأزمات اختفت هذه الأفكار . وفي مصر ارتبطت الظروف المناوئة لعمل المرأة باقرار سياسة الانفتاح الاقتصادي التي كان من بين نتائجها إحداث فوارق شاسعة في الدخول بين المواطنين ، ومعاناتهم الدائمة من حالات الغلاء المتصاعدة ، وتدني قيمة العمل واحتقارها ، والإعلاء من الثراء والاقتناء باعتبارهما القيمة الوحيدة المعترف بها ، بعد أن تراجعت النظرة الى العمل باعتباره قيمة انسانية راقية . وفي جيلي كان الشائع بين الفتيات أن الزواج لا بد أن يكون قائماً على الحب ، وفي هذا الجيل أصبحت الثروة والقدرة المالية هي الشرط الأول للزواج ، فمعظم الفتيات يحلمن بزوج ثري ينفق عليهن دون حاجة إلى عملهن ! .

الخروج عن المألوف

* لماذا اقتصر انتاجك الابداعي على رواية « الباب المفتوح » والمجموعة القصصية « الشيخوخة » وقصص أخرى ؟

ـ لأنني ببساطة لست كاتبة محترفة ، وعندما يكون لدي شيء جديد أريد أن أوصله للقاريء آنذاك أكتب . فالكتابة بالنسبة لي هي عملية تواصل ومحاولة للوصول الى الآخرين ، وكسر العزلة والشعور بالانتماء . فحين يستجيب القراء لما أكتب أشعر أني انتميت من جديد ، ولم أعد وحدي .

* هل كانت روايتك « الباب المفتوح » ، كما كانت رحلتك في الحياة ، خروجاً على المألوف ؟

ـ نعم كانت كذلك . فقد وصفها النقاد بأنها أول رواية طويلة تكتب في مصر ، كما وصفوها بأنها من أدب الواقعية الاشتراكية . وكانت خروجاً على المألوف لأنها لم تكن مجرد رواية نسائية تقليدية تصرخ فيها المرأة مطالبة بحريتها ، بل تربط بين ما هو خاص وما هو عام ، بين قضايا الفرد والمجتمع .

* وأين ليلى بطلة « الباب المفتوح » من الدكتورة لطيفة الزيات ؟

ـ ليلى ليست أنا ، بل إني تعمدت أن أجعل منها كل فتاة عادية ، وعبرها نقلت الرسالة التي احتوتها الرواية ، وهي أن الفناء في الوطن هو أرقى أنواع التحقق الانساني . □



التجليات (٣ أجزاء)

من تأليف جمال الغيطاني

بقلم : أبو المعاطي أبو النجا

كثيرة جدا هي القضايا والتساؤلات التي يثيرها كتاب « التجليات » للروائي جمال الغيطاني !

من أهمها :

إلى أي جنس أدبي ينتمي هذا الكتاب ؟ هل هو سيرة ذاتية ، أم رواية ، أم هو كتاب فيه من خصائص السيرة الذاتية والرواية في وقت معا ؟

لماذا آثر الكاتب صيغة « التجليات » ، ليكون كل تجل منها بمثابة الوحدة المعمارية التي يتشكل من تكويناتها المتنوعة بناء هذا الكتاب ؟

أكان هذا الاختيار مجرد جزء من بحث الكاتب الدائب عن أساليب فنية ، تستلهم تراثنا الروحي والفكري والفني ، وتؤكد على خصوصيتنا الثقافية ؟

أم أن « التجليات » كانت هي الصيغة الأقرب والأصدق للتجربة الروحية والفكرية الأساسية لبطل السيرة الذاتية في توقه الحارق إلى الفكاك من أسر النسبي والاقتراب من المطلق ! في سفره الدائم من الجزئيات إلى الكليات ، يطلب « لحظة تبقى ولا تفنى » ومن أعماقه تنطلق تلك الصرخة : « ما من يقين باق »!

هل كانت « التجليات » هي الصيغة الفريدة من خلال « الأسفار ، والمواقف والرؤى والمقامات والأحوال » ، لجمع شتات ذلك النثار البالغ الدقة والرهافة من تفاصيل الحياة اليومية ، ومن أحداث التاريخ الكبرى ، ومن دفتر أحوال الواقع والخيال ، مثل (ظهور عبدالناصر بعد موته في ميدان الدقي ، ومشاركته مع الأب قبل مئات الأعوام في موقعة كربلاء إلى جوار سيد الشهداء ، ومثل نظرة غروبية في عين الأم ، وتنهيدة خافتة تنفلت من صدر أب مثقل بما لا يمكن البوح به) ، بحيث تكتسب هذه التفاصيل من تجمعها في هذه السياقات الجديدة عبر « الأسفار والأحوال والمقامات » دلالات أكثر غنى ، وتخلق تجانسا وجمالا فنيا ، لم تكن تملكه وهي مجرد شذرات في فضاء الذاكرة ، تائهة في أبعاد الزمان والمكان ، يستحيل نظمها في تتابع زمني أو مكاني ؟!

هل كانت التجليات هي أداة الكاتب التي لا أداة سواها ، ليتيح لقارئه أن يرى كيف أن معاناة أب بسيط ، قادم من أعماق الصعيد ، في حياته اليومية في مدينة القاهرة في عصرنا هذا ، وتضحياته لينقذ أبناءه من الجحيم الذي يحترق فيه كل يوم ، هي الوجه الآخر المألوف والواقعي والجزئي لمعاناة شخصيات عظيمة مضمخة بعبق التاريخ البعيد والقريب ، تحتل مكانة سامقة في سلم البطولة والتضحية ، كشخصية سيد الشهداء الإمام الحسين ؟! فنرى في إطار واحد صورة المثال والواقع كوجهين لعملة واحدة !

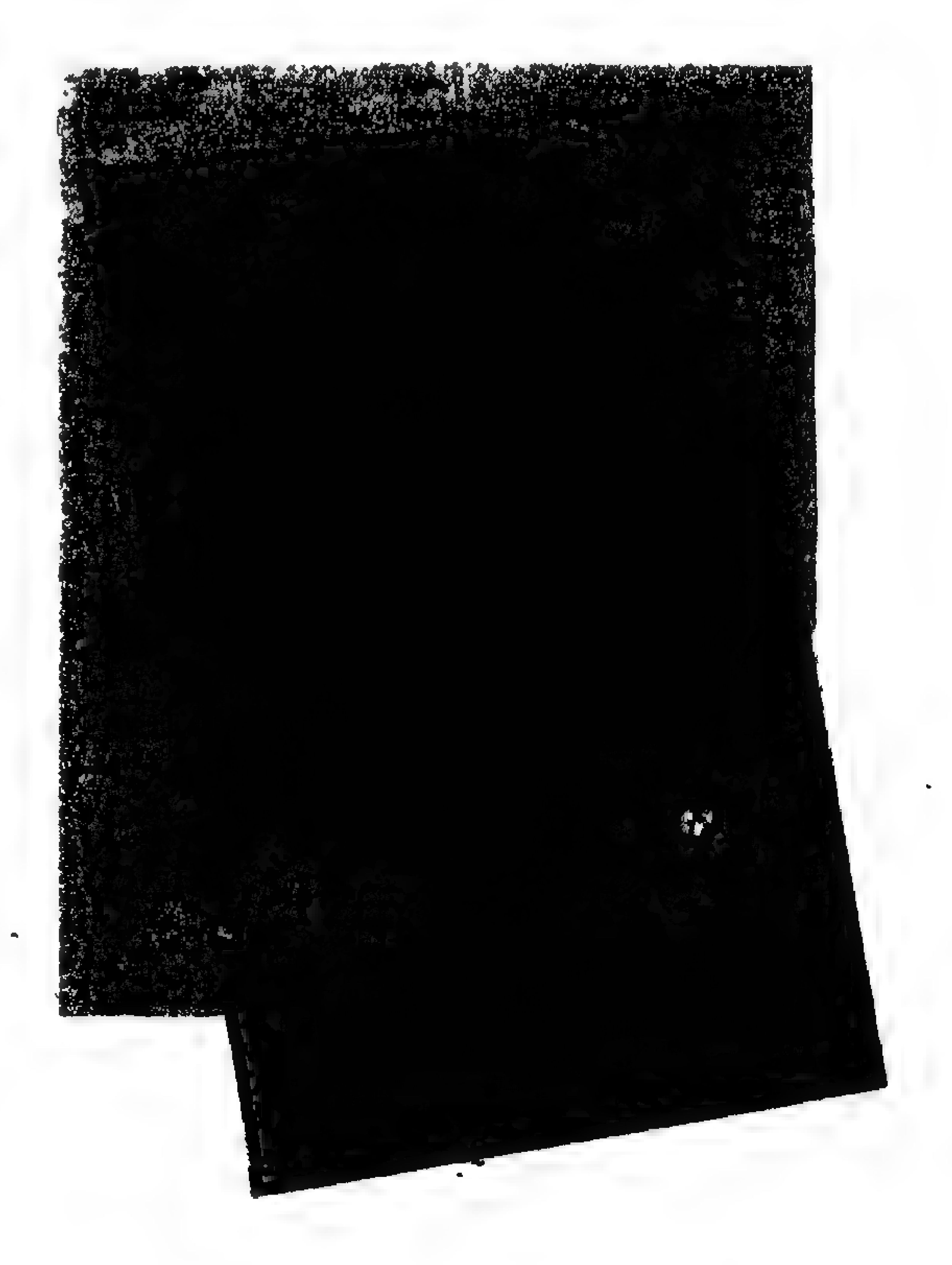
هل كانت التجليات ، وهي الطريق الذي اختاره البطل للبحث في نشأته الأولى والثانية ، ليعرف ما لم يكن يعرف ؟ هل كانت هذه المعرفة وسبل تحصيلها ليكتب سيرته الذاتية هي سبيله الذي لا سبيل سواه ، ليعرف طريق السفر من النسبي للمطلق ، من المحدود إلى اللامحدود ، فيقع في المحظور ، ويجتز دليله في السفر « ابن عربي » عنقه ، وتنقسم ذاته حين يصطدم بالحدود القصوى لقدرته على أن يعرف ، فيعود جريحا ومثخنا ، لينجح بعد عودته إلى العالم الأرضي في أن يعقد صلحا داخل ذاته بين المحدود واللامحدود ، تسترد ذاته من خلاله وحدتها بقبول التناقض والتعايش معه في نهاية الجزء الثالث من « التجليات » ، ويكون بذلك قد ألغى في عمله بعض الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتية التي تركز غالبا على مسيرة حياة إنسان ، وبين الرواية التي تعنى غالبا بما يحدث من تطور أو تغير في حياة إنسان ، عبر بيئة اجتماعية وثقافية في زمان ومكان محدودين ؟!

وإذا كان « التجلي » هو الوحدة المعمارية في هذا الكتاب ، فكيف صمم الكاتب « تجليات » الجزء الأول والثاني والثالث ، بما يحقق التجانس داخل الجزء الواحد ، ثم التجانس بين كل الأجزاء ؟ وكيف لعب تصميم البناء في هذه الرواية دوره في تحقيق الوظائف الفنية والفكرية للتجليات كما ألمحنا إلى بعضها في هذه المجموعة من التساؤلات التي بدأنا بها هذا المقال ؟

بين السيرة والرواية

إذا كان الكاتب قد آثر أن يخلص من حيرة تصنيف كتابه ، فاكتفى بأن يسميه كتاب « التجليات » ، فقد لا يملك من يكتب عن التجليات مثل هذا الترف ، والأصعب أنه لا يملك بالمقابل تصنيفا سهلا وجاهزاً ، فالكتاب فيه من خصائص السيرة الذاتية أهمها ، فيه تلك المتابعة الأمينة من خلال رؤية الراوي لجوانب من حياة بطل السيرة ، تبدأ رحلتها حتى قبل ميلاده ، وتمضي معه إلى ما يبدو أنه يعيشه في الجزء الثالث من مرحلة تصالح مع ذاته ، ولكن إذا كانت حياة الكاتب تمثل المجرى الرئيسي في تلك المسيرة ، وإذا كانت أزمته الروحية التي قادت رحلته من النسبي إلى المطلق ، تمثل القوة

الدافعة لتيار هذا النهر من المنبع إلى المصب ، فإن الحركة الهادرة لهذه الأزمة هي التي أعطت لهذا العمل إيقاع الرواية وشكلها ، وهي التي جعلت من بحث الكاتب عن أبيه بحثا عن الجذور مهما أوغلت بعيدا ، فالأب الفعلي في الرواية يستدعي ويمتزج بكل الآباء الروحيين للراوي ، ابتداء من « سيد الشهداء الإمام الحسين » ، إلى « الإمام محيي الدين بن عربي » ، إلى « جمال عبدالناصر ». والأم الفعلية في الرواية تستدعي وتمتزج برئيسة الديوان الطاهرة النقية السيدة زينب ، وهذه الأزمة هي التي تجعل نهر حياة الكاتب يبحث عن منابعه وفروعه في السماء والأرض ، في الماضي والحاضر والمستقبل ، ثم يتفجر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا في كل الجهات ، فنعيش معه رحلات المنبع ورحلات المصب ، وإذا بكل ذلك الذي نعيشه من تفاصيل يدور في فلك هذه الأزمة الروحية ، يغذيها ويتغذى بها ، هنا نقترب أكثر فأكثر من صيغة الرواية ، فتيار النهر لهذه الحياة يجرف في مسيرته التربة الاجتماعية والثقافية والسياسية . وقد يرى البعض أن مثل



هذا الامتداد طولا وعرضا وعمقا يحسم الموقف لصالح « أن الكتاب رواية » ، ولا أظن المسألة يمكن أن تحسم بهذا اليسر (فكما ألمحنا) قد يلاحظ القاريء أن هذه التفجرات في الجهات الأربع الأصلية ، وأن هذا البحث المضني وراء شذرات دقيقة ، ولحظات شديدة الرهافة ، في حياة الأبوين ، هو تعبير عن عمق الأزمة الروحية والنفسية لدى بطل السيرة وهو الراوي ، فنحن إذن مهما بعدنا عن حياة الراوي ، نجد أنفسنا في قلبها وفي تردداتها ، ولعلنا لا نذهب بعيدا حين نقول : إن الكتاب يجمع على نحو فريد بين خصائص السيرة الذاتية والرواية !!

التجليات . . لماذا ؟

لن ندرك مغزى اختيار الكاتب صيغة « التجليات » لبناء هذا الكتاب ، إلا إذا توقفنا لحظات أمام طبيعة الأزمة النفسية والروحية لبطل هذه السيرة الذاتية !

لقد تفجرت هذه الأزمة إثر موت الأب ، عاد الراوي من سفر له بالخارج ، فعلم أن أباه قد مات أثناء غيابه ، وأدرك على نحو مفاجيء أنه لن يراه بعد اليوم ، منذ هذه اللحظة تتفجر أزمة الراوي ، فهو لن يكون بمقدوره أبدا أن يعيد الزمن إلى الوراء ، ليقول لأبيه ما كان ما يريد قوله ، وليفعل من أجل أبيه ما كان يحب ويجب أن يفعله ، وليرى في عيني أبيه في لحظاته الأخيرة كيف كان يشعر بما بدأ الابن يدركه الآن ، إنه خطيئته الكبرى وتقصيره العظيم في حق أبيه !!

يقول له أحد أصدقائه الروحيين « ابن اياس » والراوي في عمق أزمته : « تجمل فإن النائم يرى ما لا يراه اليقظان ».

وهكذا تصبح « التجليات » ، وهي طريقة المتصوفة المسلمين للمعرفة التي تتجاوز قدرة

الحواس وقدرة العقل البشري المحدود بحدودها ، تصبح هذه التجليات طريقة البطل « الراوي » لمغالبة أزمته النفسية ، لاستعادة الأب الذي يتهدد النسيان البشري ملامحه في ذاكرة الابن ، وربما يتهدد تاريخه أيضا ، ولكننا مع بداية رحلة البحث عن الأب ، نجد أن الأزمة النفسية التي ظهرت في صورة شعور عميق بالذنب ، ورغبة في استعادة وجه الأب الذي يتهدده النسيان ، تكشف عن أبعادها الروحية والوجودية في موقف الإنسان أمام لغز الزمن والتغير . . !

في بداية التجليات تقول له رئيسة الديوان الطاهرة :

- ماذا يحيرك ؟
- تبدل الأحوال !
- ثم ماذا ؟
- تحيرني الأشياء في تفرقها وتجمعها ، في اختلافها واتفاقها ، الطاعة والعصيان ، الحياة والموت ، الوصول والفوت ، البداية والنهاية ، الظاهر والباطن !».

وهكذا تصبح رحلة البحث عن ملامح الأب التي توشك أن تضيع ، البحث عن جوانب مجهولة أو ظاهرة من حياته ، هي التي تضع أيدينا على سر ذلك الشعور العميق بالذنب الذي تبدأ منه الرحلة ، إن هذه الرحلة تكشف عن عمق المعاناة التي عاشها هذا الأب ، لكي يصل ابنه إلى ما وصل إليه ، وقصة هذه المعاناة كما عاشها الأب ، وكما عايشها الابن في طفولته ، هي التي تقود رحلة البطل خلال تجلياته إلى استدعاء معاناة كل الأباء الروحيين له ، معاناة سيد الشهداء الإمام الحسين في كربلاء ، ومعاناة جمال عبدالناصر بعد أن يتم القبض عليه إثر ظهوره المفاجيء في ميدان الدقي بعد أعوام من وفاته ، ومعاناة رفاق طريقه ابراهيم الرفاعي ومازن أبو غزالة !!

ومع سقوط حدود الزمان والمكان ، حيث تمتزج تفاصيل المعاناة في الماضي البعيد والقريب ، بتفاصيل في الحاضر ، عبر صيغة التجليات ، يكتشف الراوي ونكتشف معه أن المعاناة واحدة ، وأن الشجاعة التي يحتاجها العدل لكي يظهر واحدة ، وأن ثمن العدل فادح في كل العصور ، ويكتشف الراوي ونكتشف معه أن قانون الزمن ، قانون التحول والتغير ، ينال طلاب العدل وصناع الظلم جميعا ، وتصبح الرغبة في إيقاف الزمن ، لتدارك قصور أو تقصير بشري رغبة في أن ندرك لغز التغير في الزمن !

لغز الوجود ، وهكذا تسفر الأزمة النفسية في بداية التجليات عن أزمة روحية ووجودية كبيرة ، وتصبح رحلات « الأسفار والرؤى والمواقف والمقامات والأحوال » هي طريقة الراوي ليكتشف أسرار الطريق ، من الجزئي إلى الكلي ، ومن النسبي إلى المطلق ، يقول الراوي

« عليّ إدراك ما بين الظل والأصل ، التشبث بما يفلت وينأى دائما ، وتعجز القدرة الإنسانية عن إدراكه أو اللحاق به ».

وعبر رحلة التجليات يكتشف الراوي ونكتشف معه أن المطلق يتجلى في الجزئي ، بقدر ما يكون الجزئي طريقنا إلى المطلق . يقول الراوي لدليله (ص ٢٢١ من الجزء الثالث) :
« أصلي أدرك جوهر الخفي الذي لا يرى ، من يبدلنا دون أن ندري ، أدرك أصلي (يقصد ذاته في مرحلة من التجليات) أنه محيط بنا ، متغلغل فينا تغلغل طعم الثمرة في الثمرة ، فإذا توجه النظر فإليه فإن تم السمع فمنه . . ».

في (ص ٢٨٣) يقول الدليل للراوي وهو يتركه :

« منذ الآن إنما أنت دليل ذاتك ، فمنذ أن تمت المصالحة مع ذاتك لم يعد بك من حاجة إلى دليل . . ».

وهكذا تصبح عشرات التفاصيل التي تقدم

لنا جوانب من مسيرة حياة الراوي بكل أبعادها تجسيدا مستمرا لخبرته الإنسانية مع التحول والتبدل ، وتعبيرا عن مراحل حواره العميق ، وهو النسبي مع المطلق !!

التجليات كتقنية

قد يلاحظ القاريء أن بناء هذه السيرة الروائية يقوم على حبل مجدول من تقاطع مستمر لرحلتين ، رحلة يمكن أن نقول إنها رحلة تاريخية هي الجزء الذي تعرضت له السيرة من حياة الراوي ، والكاتب لا يقدم هذا الجزء وفق تسلسله الزمني أو المكاني ، ولكنه يلتقط من نثار أحداثه ومواقفه وصوره وكلماته ، ما يناسب كل وحدة من وحدات التجليات : الأسفار والمواقف والرؤى والمقامات والحالات . . .) .

والرحلة الثانية رحلة معرفية ـ إذا صح التعبير ـ تعتمد الحدس والواقع والخيال جميعا ، وهي تنطلق من الجزئي إلى الكلي ، ومن النسبي في اتجاه المطلق ، وتتخذ من نثار الأحداث والمواقف والصور والكلمات والروائح والأصوات كما تجمعت في كل وحدة من وحدات التجليات (الأسفار والمقامات والحالات) . . الخ .

تتخذ منها نقطة انطلاقها من النسبي إلى المطلق . . !

ومن خلال تقاطع الرحلتين يصبح التاريخ أداة للمعرفة ، كما يصبح هذا النوع من المعرفة مضيئا لتاريخ إنسان وتاريخ مجتمع ، والآن كيف قامت التجليات بدورها ووظائفها من خلال هذا البناء ؟؟

التجليات : وحدات جديدة . . دلالات متجددة :

في الجزء الأول من التجليات ، وعبر مواقف « التأهب » و « الظمأ » و « الحنين » ، و « الندم » ، و « الشدة » . . الخ ، يمزج الكاتب عبر كل تجل من « تجليات » الراوي بين صور ولحظات وأحداث يختارها من نشأة الأب في قرية « جهينة » في الصعيد ، وكيف سافر إلى القاهرة هربا بحياته من محاولات عمه أن يقتله بعد أن قتل أمه ليرث قطعة أرض ويضع نخلات كانت لهما .

ومن معاناة هذا الأب في مدينة القاهرة وتقلبه ـ وهو الذي لا يعرف كيف يقرأ عنوانا ـ بين مهن قاسية ، حمّال ، خبّاز ، سقّاء . . الخ .

وبين صور ولحظات وأحداث من خروج سيد الشهداء الإمام الحسين من مكة إلى كربلاء تلبية لنداء الحق ونداء أنصاره ثم حصاره فيها من جيش يزيد .

وصور ولحظات مما حدث لعبدالناصر بعد ظهوره في ميدان الدقي ، وإلقاء القبض عليه ، ومحاكمته ، وصور مما حدث للراوي في عصر عبدالناصر من اعتقال وتحقيق وسجن . . !

إن صيغة التجليات هي وحدها التي كانت تسمح لهذا المزيج الحي من الصور والأحداث أن تتدفق في كل موقف بما يناسب وحدة هذا الموقف ، ففي موقف « الظمأ » نجد الأب الذي كان يعمل سقاء في مدينة القاهرة يملأ قربته من نهر بعيد ، ليخترق بها الحصار المضروب حول سيد الشهداء في كربلاء ، ليقدّم للمحاصرين الظمأى جرعة ماء ، إن صيغة التجليات هي وحدها التي تجعل القاريء يشعر بأن معاناة إنسان بسيط في حياته اليومية ، وما يقع عليه من ظلم قد لا نراه من طول ما ألفناه ، هذه المعاناة هي التي كانت تقود رحلة سيد الشهداء إلى كربلاء !

كما أن صيغة التجليات هي التي تجعل الراوي خلال تجليه في هذا الموقف يقول متحدثا عن الظمأ وهو في رحلة نموه الذاتي من النسبي إلى المطلق :

« إن الظمأ نوعان ، نوع حسي ونوع معنوي ، وان هذا الأخير غير متناه ، فقد يكون إلى الزمن الذي ليس في المتناول ، أو إلى رائحة

عبرت حواسنا في زمن قصي ، وقد يكون الظمأ لمعرفة الحقيقة والكنه الغامض . . . » .

كما أن صيغة التجليات هي وحدها التي كانت تسمح للقاريء في موقف « الندم » أن يعيش بعمق ندم الراوي ، لأنه لم يذهب لزيارة أبيه في مقر عمله في آخر مرة كان يمكنه أن يزوره فيها هناك ، حين تمتزج هذه الخبرة بندم أنصار الإمام الحسين بعد تخاذلهم عن نصرته في كربلاء . . تصبح الخبرة الشخصية طريقنا لمعايشة الخبرة العامة بعمق أكثر ، وتتوهج الخبرة العامة بحرارة الشخصي !

وفي موقف « التنقل والترحال » نلتقي بالضابط « منير » الذي كان يحقق مع الراوي في مرحلة من حياته ، وأهان أمه إهانة لم يستطع ردها ولم يستطع نسيانها ، نلتقي به وهو يحقق مع عبدالناصر بعد ظهوره في ميدان الدقي ، ونلتقي به أيضا وهو يمارس دوره الخسيس نفسه في الكوفة ، فينصح بتغيير أمير الكوفة النعمان ، وتولي ابن زياد مكانه ، ثم يسعى لتقديم المزيد من خدماته ليزيد بن معاوية .

إن صيغة التجليات هي التي تجعلنا هنا نرى مع الراوي كيف يولد الخوف في كل العصور ، وكيف يولد الخذلان والتشتت ، وكيف أن للخديعة الملامح نفسها مهما تبدلت أقنعتها في الزمان والمكان ؟!

وهكذا من مثل هذه التجليات تصبح الرحلة من الجزئي إلى الكلي ، ومن النسبي إلى المطلق ، مفتوحة أمام الراوي وأمام القاريء في وقت واحد !!

حادثة واحدة ، وزوايا متعددة

سوف يلاحظ القاريء أن الحادثة الواحدة ، أو الشخصية الواحدة ، قد يتعدد ظهورها في تجليات مختلفة عبر الأسفار أو الرؤى أو المواقف أو المقامات أو الأحوال ، مثل شخصية خلف



بك ، وهو الموظف الكبير الذي حنا على والد الراوي ، وأجرى رزقه في وظيفة حكومية أنقذته من قسوة العمل اليومي الذي يجيء يوما ويغيب أياما ، إن علاقة الأب بهذا الموظف تستمر إلى آخر يوم من أيام حياة الأب ، وهي علاقة من نوع فريد ومعقد ، وقد تعدد تجليها للراوي في الكثير من المقامات والأحوال ، ولكنها في كل مرة كانت تتجلى من زاوية جديدة ، فتعطي معنى مختلفا عن شخصية الأب أو شخصية الابن أو شخصية خلف بك نفسه أو عن ظروف المجتمع ، ولكنه يتفق مع وحدة المقام أو الرؤيا أو السفر ، وينطبق المنهج نفسه على حادثة القبض على الراوي ، وتحقيق الضابط منير معه ثم سجنه ، يتكرر تجلي هذه الخبرة دون أن تتكرر دلالتها ، فهي في كل مرة تلقي أضواءها على جوانب جديدة ، مرات على جوانب من

شخصية الراوي ، ومرة على الأم ، وعلى الأب ، وعلى المجتمع ، فحين يذهب الأب لطلب مساعدة من شخصية كبيرة كان ابنه على صلة بها ليعمل على إخراجه من السجن ، يجد أن الشخصية الكبيرة نفسها قد تم القبض عليها في الوقت نفسه !

إن اختلاف زاوية النظر للحادثة الواحدة هو ما يبرر تكرارها في تجليات مختلفة ، وهو في الوقت نفسه تأكيد لأهمية وحدة الرؤية في المقامات أو الأحوال ، حيث تصبح هذه الوحدة هي طريق الراوي والقارىء للانتقال من الجزئي إلى الكلي ومن النسبي إلى المطلق .

من النسبي إلى المطلق وبالعكس

قد يكون من المناسب أن نكتفي بالإشارات السابقة للتعرف على الطريقة التي قدم بها الكاتب الرحلة التاريخية للراوي من خلال التجليات ، ولعله قد حان الوقت لنقترب من طريقته في تقديم لمحات عن الرحلة المعرفية من الجزئي إلى الكلي أو من النسبي إلى المطلق من خلال التجليات كذلك ، وفي الواقع أن منحنى هذه الرحلة المعرفية وإيقاعاتها هي التي تشكل الرابطة الحيوية بين الأجزاء الثلاثة للتجليات . . . !

في الجزء الأول الذي يكون سيد الشهداء الإمام الحسين فيه هو دليل الراوي في تجلياته ، يصل الراوي إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه قدرته في طريق البحث عن المطلق ، يكاد يتلمس معاني وحدة الوجود ووحدة الكائنات في تجلي « السفر إلى البدايات والنهايات » .

« في منازل الرؤى ومنازل الأصوات » « ويصطدم بسقف القدرة الإنسانية في موقف الندم فيعاقبه الإمام الأكبر ابن عربي بجز عنقه على إصراره على أن يعيد الزمن إلى الوراء . . » .

ويكون هذا الحدث بمثابة إنذار له بأنه ضل طريقه في بحثه عن المطلق ، إن انفصال رأسه عن جسده كان رمزا لوقوعه في أسر اغتراب الوعي عن الواقع . . !

في الجزء الثاني من التجليات يعيش الراوي من خلال تجلياته تجربة اغترابه عن وطنه ، وعيشه مع زوجته وابنه في المدن الأوربية ، غربة الوعي تمتزج بغربة الواقع ، غريب يلتقي بغرباء ، فلا عجب حين يرى في علاقته « بلور » في المدينة الأوربية وحبه لها حبا للذاته ، فهي مثله غريبة وتبحث عمن يشفي جراح غربتها . . . !

ولا عجب حين يرى في مقامات هذا الجزء غربة أمه حين تركت قرية « جهينة » لتعيش مع أبيه في غربة لا منجاة لها منها سوى اللواذ بزوجها وأولادها ، ولكنه من خلال مقامات « الاغتراب » و « القربى » و « العذاب » ، « يزداد اقترابا من الواقع ومن المجتمع ، وكأنه يبحث عن الكلي وعن المطلق في الجزئي وفوق أرض الواقع ويصحبة دليله الإمام الأكبر ابن عربي هذه المرة . . » .

في الجزء الثالث يعود إلى مدينة فاس في المغرب ، وكان قد بدأ منها رحلة تجلياته ، ويكون دليله في هذه المرة « جمال عبدالناصر » ، بما يعنيه ذلك من اقتراب إلى الوطن وإلى أرض الواقع ، وكأن على كل منا أن يبحث عن المطلق فيما حوله وفيمن حوله ، إنه يرى في تجلياته هذه المرة أمه في مرحلة أخرى من حياته ، في مرحلة كانت هي فيها قد بدأت تعالج جروح غربتها ، وتتلاءم مع واقعها في مدينة القاهرة ، وفي هذا الجزء تتجلى له الجهات الأربع من حول السطح الذي كان يعيش في حجرة منه مع أبيه وأمه ، تقترب التجليات هنا من قلب المجتمع ، تبحث عن المطلق في النسبي ، وتلتئم ذات الراوي ، ويودعه دليله قائلا : « من الآن أنت دليل ذاتك ، لم تعد بك من حاجة إلى دليل . . » . □



(في فكرنا العربي قضايا وموضوعات تعيش بعد أصحابها ، من هذه القضايا والأفكار تختار العربي في كل عدد موضوعا يصل بين الماضي والحاضر ، وبين الأمس والغد) .

هل الشقاق طبع في العرب ؟*

بقلم : ساطع الحصري ١٨٨٠ ـ ١٩٦٨

إننا ننفعل ، ونتألم ، ونغضب ، عندما نقرأ أخبار الاختلافات التي حدثت في تاريخ العرب ، ولاسيما عندما نتتبع نتائج هذه الاختلافات ، ونطلع على كيفية تضاؤل سلطة الخلافة ، وتشتتها بين سلطات السلاطين وملوك الطوائف العديدين .

إننا ننفعل ونتألم من هذه الأخبار والحوادث التاريخية ، لأننا نقيس أحوال القرون الماضية بمقاييس الأزمنة الحاضرة ، ولا نكلف أنفسنا عناء البحث في التاريخ العام بحثاً شاملاً ، لكي نعرف ما إذا كانت تلك الأحوال من الأمور التي تشذ فيها الأمة العربية عن سائر الأمم ، أو كانت من الأمور الطبيعية التي تتساوى فيها جميع الأمم في بعض الأطوار من تاريخها .

فلنبدأ أولاً بقضية الاختلافات الدينية . ولنستعرض ما حدث منها في أوربا طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة . نجد أنها لم تكن قط أقل تنوعاً ولا أخف عمقا مما حدث في الوطن العربي خلال الأزمنة المذكورة ، إن لم تكن أكثر تنوعاً وأشد عنفاً منها .

أحصوا المذاهب المختلفة التي نشأت في الغرب منذ ظهور المسيحية في مختلف البلاد الأوربية خلال القرون المذكورة ، استعرضوا الخلافات الدينية والمذهبية التي حدثت بين الدول وبين الكنائس من جهة ، وبين الكنائس المختلفة من جهة أخرى ، استقصوا أخبار الحروب الأهلية والدولية التي نجمت عن هذه الاختلافات الدينية في مختلف أقسام البلاد الاوربية ، حتى في فرنسا التي تظهر الآن أكثر تباعداً عن الاهتمام بالأمور الدينية من جميع بلاد العالم ، قلّبوا صحائف التاريخ التي سجلت أعمال محاكم التفتيش من جهة ، وحياة مؤسسي المذاهب الدينية من جهة أخرى ، فإنكم تضطرون إلى التسليم بأن الاختلافات الدينية التي حدثت في البلاد الاوربية كانت ـ بوجه عام ـ أوسع نطاقاً ، وأكثر تنوعاً ، وأشد عنفاً من التي حدثت في الوطن العربي .

أما الاختلافات السياسية ، فأمرها يحتاج إلى بحث أشمل ، وتفكير أعمق : فيجب علينا أن نلاحظ قبل كل شيء : أن العرب انتشروا ـ بعد الهجرة النبوية ـ بسرعة خارقة ، في بقاع واسعة جداً من القارات الثلاث المعلومة قديماً ، ففتحوا خلال قرن واحد ، بلاداً أوسع بكثير مما فتحه الرومان خلال ثمانية قرون .

* من رده على سؤال للاستاذ الكبير أحمد حسن الزيات ، نشر في مجلة الرسالة سنة ١٩٤٩ .

تصوروا الاتساع الهائل الذي وصلت إليه الدولة العربية في أوائل القرن الثامن للميلاد . تتبعوا حدود تلك الامبراطورية التي كانت تمتد من سواحل بحر المحيط الأطلسي إلى شواطىء نهر السند وسهول كشغر ، ومن سفوح جبال البرنس والألب ، ومن باب المندب إلى جبال القافقاس ،وتذكروا في الوقت نفسه بساطة وسائط الناقلة والمواصلة ووسائل الحروب والسيطرة التي كانت معلومة ومستعملة في تلك العصور .

وقولوا لي : أية سلطنة من السلطنات التي يذكرها التاريخ القديم والوسيط استطاعت أن تسيطر على مثل هذه البقاع المترامية الأطراف ، مدة أطول من التي سيطر عليها العرب ، دون أن تتعرض إلى اختلافات وانقسامات ؟

وإذا انتقلنا إلى الدول المعاصرة لنا ، وتتبعنا أحوالها الماضية ـ طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة ـ وصلنا إلى نتائج مماثلة لما ذكرناه آنفا .

ولنأخذ فرنسا مثلاً ، فقد كان من المعلوم أنها أسبق الدول الأوربية إلى الوحدة السياسية الكاملة ، والتماسك القومي المتين ، ولكنا إذا استعرضنا أحوالها خلال القرون التي ذكرناها آنفاً وجدناها بعيدة عن الوحدة كل البعد ، ومسرحاً لشتى أنواع الخلافات والحروب .

وألمانيا كانت منقسمة إلى أكثر من ثلاثمائة دولة ودويلة حتى أوائل القرن الماضي ، وكانت لا تزال منقسمة إلى تسع وثلاثين دولة قبل ثمانين عاما فقط ! إن اتحاد هذه الدول لم يتم إلا بعد جهود كبيرة وتضحيات عظيمة ، وهذه الجهود قد اجتازت مرات عديدة أطوار فشل أليمة .

إننا ننظر إلى تواريخ الأمم الأخرى عن بعد ، نظرة إجمالية ، فندرك خطوطها الاساسية العامة ، دون أن نتعمق في تفاصيلها الفرعية . ولكننا ننظر إلى تاريخ العرب من قرب ، نظرة تفصيلية ، فنطلع على كثير من تفاصيله ، دون أن نحيط علماً بخطوطه الأساسية .

إن تواريخ الدول الأوربية تبدو لنا جبالا مرتفعة شامخة ، لأننا ننظر إليها بنظر المؤلفين الاوربيين ، ومن الخارج ومن البعد . فإذا توغلنا فيها ، نرى عندئذ أنها مؤلفة من وهاد ووديان على الرغم من منظرها الخارجي العام .

وأما تواريخ الأقطار العربية ، فتبدو لنا مجموعة مرتفعات ومنخفضات مشوشة ومعقدة ، لأننا ننظر اليها بنظر الاخباريين القدماء ، ومن داخلها . فلنغير موقفنا منها ، ولننظر إليها من بعد ـ نظرة تسمو على التفرعات ـ فنرى عندئذ أنها أيضاً مرتفعة شامخة ، على الرغم مما فيها من وهاد ووديان .

ونرجع إلى السؤال الأصلي : هل الشقاق طبع في العرب ؟

هذا ما حدث ، وما يحدث ، وما سيحدث في كل من الأمم ، وفي جميع أدوار التاريخ .

لا ريب في أن حالتنا الحاضرة سيئة للغاية ، والنكبات التي منينا بها أخيراً كانت في منتهى الفظاعة ، كما أن الاخطار التي تهدد مستقبلنا عظيمة جداً .

غير أنه يجب علينا أن نعلم العلم اليقين أن أسباب ذلك لا تعود إلى طبائع أمتنا ، ولا إلى ماضينا البعيد ، بل إنما تعود إلى أخطائنا نحن ، وإلى أحوال ماضينا القريب . إني لن أحاول في هذا المقام أن أحلل وأسرد الأسباب التي أدت إلى نكباتنا الأخيرة واستوجبت فشلنا الأليم ، ولن أبحث عن الأشخاص الذين يجب أن يعتبروا مسؤولين عن هذا الفشل وتلك النكبات . ومع هذا سأقول بلا تردد : إن أهم الأسباب ـ في نظري ـ هو بقاؤنا بعيدين عن تفهم وتمثل روح العصر الذي نعيش فيه ، وتقصيرنا في التسلح بسلاح العلم الحقيقي .

غير أني أرى أن هناك سبباً آخر ربما كان أبعد أثراً وأشد خطراً من كل ذلك . هو ضعف ايماننا بقضايانا القومية ، وعدم إقدامنا على معالجة تلك القضايا بعزم وحزم .

إن الأمم الحية الوثابة تتعظ بالنكبات ، فتندفع إلى العمل وتواصل الكفاح بحرارة أشد وعزم أمتن ، كما أنها تغضب من الفشل وتستفيد من دروسه ، فتعيد الكرة لتضمن النجاح ولو بعد حين . □

قصة قصيرة

السائق الاحتياطي

بقلم : الدكتور محمد المخزنجي

وقع عليه بصري فور صعودي إلى الحافلة الكبيرة رقم ٢٦ ، فاندهشت . تصورته إنسانا آليا « روبوتا » وضعوه في المقعد خلف السائق ، وراء عجلة قيادة ثانية ، ليقوم بدور سائق احتياطي إذا لزم الأمر ، إذا أصابت السائق الحقيقي - على سبيل المثال - سكتة قلبية أو دماغية مفاجئة ، أو اختلت ردود الأفعال البشرية لدى السائق البشري ، نتيجة سهر أو توتر . تصورت ذلك ، وغذّى تصوري سابق انشغالي بغرابة ما أقرؤه عن الحاسوبات من الأجيال القادمة ، تلك العقول الالكترونية القادرة على التصرف الذاتي الحر ، وعلى الابتكار ، وعزّزت هيئته الفريدة تصوري ذلك ، فقد كان رشيقا كتماثيل عرض الملابس في الواجهات الزجاجية ، وعيناه الملونتان صافيتان صفاء يوشك أن يكون زجاجيا خلف زجاج نظارته الطبية الصقيلة ، بينما ملابسه شبه الرسمية منشاة ومكوية بعناية ، والقبعة جديدة تماما فوق رأسه المنتصب . جلسته مشدودة ، وشاربه دقيق أصفر كأنه مرسوم ، وابتسامته خفيفة ثابتة ، وأصابعه طويلة نحيفة بيضاء طولها ملفت للنظر ، وكذلك نحافتها ، وبياضها . وقد تسمرت أمامه دقيقتين أو أكثر دون حراك ، ثم مرت بي لحظة من شك ، خفت خلالها أن أكون في « هلوسة » ، أن يكون ما أراه مجرد تجسيد بصري خادع لهواجسي ، ولما انجابت لحظة المفاجأة ولحظة الشك ، وتبينت الفكاهة الجنونية في ما يحدث أمامي ، انفجرت ضاحكا . قهقهت كما لم أقهقه أبدا ، وأنا أضرب جبهتي براحتي ضاحكا من نفسي أيضا . وكانت قهقهتي هذه هي التي قادتني إلى الرجل أو قادته إليّ .

دعاني بإشارة آمرة مرحة إلى الجلوس في المكان الخالي بجواره ، ولم يكن هناك بد من طاعته ، على الرغم من إدراكي الأخذ في الاستضاءة والتحدد بأنه ليس إلا مجنونا هاربا أو خارجا من مصحة للأمراض العقلية ، يمارس جنونه في انطلاق وإن كان ذلك بهدوء شديد ورقة يوشكان أن يكونا لطفا بالغا وأناقة الكترونية . فقد كان يلعب دور السائق من خلف ظهر السائق الحقيقي ، وبعجلة قيادة يعلم الله من أين جلبها ، يحملها مرتكزة على إحدى ركبتيه ، وتكاد تبدو - لمن لا يتمعن فيها - كأنها عجلة قيادة مكررة داخل الحافلة ، تدور بنفس القدر ، وفي الوقت نفسه الذي تدور فيه عجلة القيادة الحقيقية .

وكان يعلق بجيب قميصه (ميكروفونا) صغيرا ، ينتزعه عند الوقفات (ليذيع) أسماء محطات الوصول عند فتح الأبواب ، وأسماء

المحطات المنتظرة بُعيد إغلاقها ، ويفعل ذلك بدقة لا متناهية ، وتزامن مذهل ، حتى انه لايدع أي مجال للشك لدى الناظر في أن الصوت الذي تذيعه سماعات الحافلة الداخلية ليس إلا صوته . ثم التفت نحوي مفاجئا إياي بسرعة إدراكه لكوني أجنبيا : « مرحبا بك في مدينتنا كييف » ، وأردف يسألني بصوته الأخن الهادىء : « من أي البلاد ضيفنا العزيز ؟ » .

كدت أعود إلى القهقهة عندما التقط « ميكرفونه » الصغير وراح (يذيع) : « حضرات الركاب المحترمين ، معنا ضيف عربي عزيز من مصر ، مصر بلد الأهرام وأبي الهول والتماسيح والبرتقال والشمس . باسمكم وباسم إدارة الحافلات الكبيرة في مدينة كييف أرحب به » . كبحت جماح رغبتي في الضحك ، وكان صوته لا يتعدى حدود سمعه وسمعي وسمع أقرب الركاب إلينا ، إذ كان « ميكروفونه » ذا سلك مقطوع لا يتصل بأي شيء ، ولم يكن من النوع اللاسلكي على أي حال . لم أضحك مخافة إخراجه عن هدوئه ، ثم إني بدأت أدرك توتر كوني الشخص الوحيد الذي وقع في مصيدته ، وقد صرت بذلك موضع نظرات كل الركاب الآخرين ، ونظرات السائق الذي كان يتابع الموقف عبر مرآته بهدوء ، قد يكون مبعثه وجود هذا الحاجز الزجاجي السميك وراء ظهره ، إضافة إلى السياج المعدني المحيط بمكانه . بعد ذلك وجدت نفسي أضيف إلى مصيدتي مأزقا أوقعت نفسي فيه دون انتباه ، أوقعت نفسي فيه وأنا أحاول تخفيف توتري بالمزاح ، فعندما سألني : « أي الأماكن يحب ضيفنا العزيز أن نمر بها في جولتنا ؟ » قلت : « السيرك » .

لقد كان خط الحافلة الكبيرة رقم ٢٦ يمر بشارع شيرباكوفا ، ولا ينعطف أبدا إلى طريق « بابيدا » ، حيث يوجد السيرك ، فمحطته الأخيرة تنتهي قبيل ناصية « بابيدا » ، حيث يدور ويرجع أدراجه عائدا إلى « شيرباكوفا » ، ومع ذلك أومأ لي سائقي المضياف موافقا بهدوء الواثقين . وأخبرني أنه لأجل خاطري وخاطر « مصر » بلد الأهرام وأبي الهول والتماسيح والبرتقال والشمس ، سيحول مسار الحافلة إلى طريق « بابيدا » ، لكن « بعد إيصال دفعة الركاب الموجودين معنا إلى أهدافهم حتى المحطة الأخيرة ، تبعا لما تقتضيه تذاكرهم ، وحقهم الذي يحميه القانون » .

وانسحب كل ما كان لديَّ من رغبة في الضحك ، وأخذتني هواجس الاحتمالات الخطرة التي ستترتب على إحباط رغبته في (إكرامي) ، وما قد يبدو له بأنه إهانة شديدة وإهدار لثقته بنفسه .

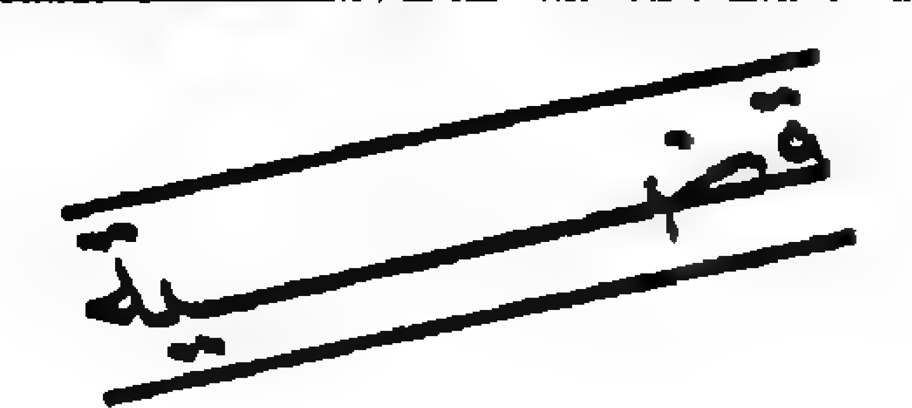
وصلت الحافلة إلى محطتها الأخيرة ، ونزل كل الركاب مشيعين (مضيفي) وإياي بنظرات ممسكة للضحك ، وعندما هممت بالنهوض في محاولة للنزول أعادتني إلى مكاني غمزة من يده لركبتي ، وكان السائق أمامنا يلتفت ويرى ويسمع مبتسما ، بينما صاحبي (يذيع) عبر « ميكروفونه » المنقطع النظير : « الحافلة ستتجه إلى طريق « بابيدا » ، وعلى حضرات الركاب المتجهين ناحية « شيرباكوفا » أخذ الحافلة التالية المتوقع وصولها بعد دقيقتين من الآن » . وجعل يكرر تنبيهه هذا ، لكن صوته كان يضيع في جلبة صعود الركاب الجدد ، وبين دبيب أقدامهم المتسارعة نحو المقاعد الخالية . ولذهولي بعدما أغلقت الأبواب لاحظت الارتجاجة التي شملت جسم الحافلة كله ، وسمعت زمجرة (الكابح) غير المألوفة في وقت يتعين عنده الانطلاق .

أخذ الأمر يتكرر ، ويتصاعد معه استهجان الركاب الجدد ، إذ تبدو الحافلة كأنها تنطلق ، لكنها سرعان ما تتوقف مرتجة ، وتُسمع زمجرة الكابح ، فهل يعقل أن السائق كان يعمل باتجاهين متضادين ، المضي قدما وإعاقة هذا المضي في اللحظة نفسها ؟ لم يكن ذلك منطقيا ،





منتدى العربي



قضية

هندسة الشخصية الإنسانية أو تقنية السلوك البشري

بقلم : اسماعيل الملحم*

مع تعقد حركة المجتمعات وتطورها ، بدأت ظاهرة استخدام العلوم للتنبؤ بالسلوك الجماعي للبشر ، ومحاولات التحكم فيه ، وضبط ردود أفعال الأفراد . وأصبحت هناك مؤسسات علمية كاملة تدرس وتبحث وتقترح ، كيف يصبح المواطنون وديعين مسالمين هادئين ، لا يثيرون اعتراضا ، ولا يبدون تذمرا ، وقد دخل السلوك البشري إلى المختبر وأصبح الصراع مع كيفية التحكم فيه إلى آخر مدى ممكن .

التقدم الذي أحرزته العلوم الإنسانية عامة ، وعلم النفس خاصة ، أخذ يطرح على الإنسانية مشروعات تقنية جديدة ، تتصل بسلوك الفرد البشري أو الجماعة البشرية بصورة مباشرة .

وبات من المألوف أن نقرأ أو نسمع عن طريقة أو طرائق في تكوين الشخصية الإنسانية ، أو هندستها وفق نماذج محددة سلفا . وأخذت مثل هذه الاتجاهات تقلق علماء الأخلاق الذين يخشون من المخاطر التي قد تنجم عن التدخل في سلوك الكائن البشري ، وعمليات تشكيل سلوكه . فبالإضافة إلى المخاطر التي يحذر منها المشتغلون والمهتمون بقضايا الإنسان والمجتمع جرّاء تقدم التقنية وطغيانها ، فإن الخوف يستبد

* كاتب وباحث تربوي من القطر العربي السوري

بهم من التدخلات المباشرة في سلوك الانسان ، وخاصة بعد تقدم ماصار يعرف في الدراسات النفسية بعلم « التعلّم » ، وما أنتجه هذا العلم من نظريات ، أخذت طريقها للتطبيق في المجال التربوي ، ومجال الإعلام ، ووسائل الاتصال المختلفة الأخرى .

تدخل للسيطرة

وتشتد هذه المخاوف وتتعاظم صيحات التنبيه والإنذار ، نتيجة تبني بعض الدول والمؤسسات في مشاريعها الرسمية لهذه المقاربات لتنفيذ سياساتها ، وتحقيق أهدافها في برمجة السلوك البشري ، بحيث يصبح أداة من الأدوات التي تسمح لها بإحكام سيطرتها وهيمنتها ، وزيادة استغلالها لمقدرات الأفراد والشعوب من جهة ، ولإحكام سيطرتها ونفوذها بحيث تسلس لها القيادة ، ولا تجد الأصوات الأخرى لها أنصارا في كبح سلطتها ، أو التقليل من سطوتها من جهة أخرى .

هذا مع العلم ، أن محاولات التأثير على سلوك الناس ، وهندسة تحركاتهم وتفاعلاتهم قديمة قدم الاستغلال وشهوة التسلط وممارسة القهر على الآخرين في هذا الكون ، فحيث تطمع السلطة إلى استمرار منهجها وزيادة سيطرتها تحاول أن تبتكر الوسائل والأساليب التي في ظنها تساهم في جعل أفراد المجتمع الواحد نسخا متشابهة لأنموذج محدد تريده . هذا ما كان يتمناه (نابليون بونابرت) من النظام التربوي الفرنسي في أيامه ، وما كانت تطمح إليه التربية الإسبارطية في العصور القديمة ، وما عملت جاهدة على تحقيقه الأنظمة الفاشية والنازية في العصر الحديث .

ولكن هذه الاتجاهات باتت أخطر في العصر الحاضر ، لما أضحت البشرية تمتلكه من وسائل تقنية متقدمة ، وتطور علمي مذهل . إذ أن دعوات تشكيل السلوك وهندسة الشخصية الإنسانية ، أخذت تجد لها مقدمات تشجعها على تحقيق دعاويها في المقاربات العلمية التي توصلت إليها العلوم الإنسانية المختلفة . ويقف دعاة المدرسة السلوكية في علم النفس في المقدمة في هذا المجال ، لشدة تفاؤلهم في الدور الذي تلعبه عناصر البيئة المادية والاجتماعية في تكوين الشخصية ، ونفيهم إلى حد بعيد لدور العوامل الوراثية . فما تزال الكتب المدرسية تردد مقولة (واطسن ، عالم النفس الأمريكي الشهير) في كتابه (السلوكية) ، الصادر عام ١٩٣٠ التي قال فيها :

« لو وضع تحت تصرفي اثنا عشر وليدا يتمتعون بصحة جيدة وبنية سليمة ، وطلب مني أن أعلمهم بالطريقة التي أعتقد أنها المثلى للتعلّم ، فإني قادر بطريقتي هذه ، بحيث يصبح أي من هؤلاء الأطفال مختصا في المجال الذي أختاره له . كأن يكون طبيبا أو محاميا أو فنانا أو . . ، بغض النظر عن مواهبه ، أو ميوله ، أو قدراته ، أو مهنة أبيه ، أو أي من أسلافه ، أو الجنس الذي ينتمي إليه » .

ويعتقد واطسن ومن أتى بعده من مدرسته ، أو ممن تأثروا بها بأن السلوك الإنساني ما هو إلا ردود أفعال ، أو استجابات لمنبهات أو مثيرات البيئة ، التي لا يقتصر تأثيرها على الدفع فقط ، وإنما هي تختار وتصطفي ، ودورها الاصطفائي هذا ذو أثر فعّال في تشكيل سلوك الفرد وحفظه . فالرغبة في تغيير سلوك شخص ما ، أو تعديله ، لا تحتاج سوى تغيير ظروفه البيئية . ويكون هذا الأمر ميسورا كلما ملكنا فهم العلاقة بين السلوك والبيئة بشكل أفضل .

دور البيئة في تحديد السلوك

فالإنسان ـ كما يقول (جيلبرت سلدز) ـ ابن الظروف : « فلو غيّرنا بيئات ثلاثين طفلا من أبناء قبيلة (الموتنتوت) ـ وهم شعب يعيش في

جنوب افريقيا ـ وثلاثين طفلا من أبناء ارستقراطيي انكلترا ، فسيصبح الارستقراطيون (هوتنتوت) من كل النواحي العملية ، كما سيصير الهوتنتوت محافظين صغارا » .

ومع تقدم الأبحاث السلوكية ، أخذ يتردد كثيرا الحديث عن تقنية سلوكية . ويعد (ف . ب . سكنر) رائد هذه التسمية ، كما أن أصحاب نظريات أخرى في التعلّم من أمثال (أ . ر.جثرى) و (ى . ل . ثورندايك) من خبرائها . ففي مقدمة كتابه (ما وراء الحرية والكرامة) ، يقول (سكنر) :

« ما نحتاجه تقنية للسلوك ، إذ لا يكفي أن ندعو إلى استخدام التقنية مع تفهم أعمق للقضايا الإنسانية . فتقنية الفيزياء وعلم الحياة لا صلة لها بقضايا انسانية ، مثل انهيار النظم التعليمية ، أو سخط الجيل الصاعد ، وما شابه ذلك » .

ولم يبخل (سكنر) ، المرة تلو المرة ـ عبر تجاربه المستمرة ـ في تقديم الأسس التي يقوم عليها ضبط السلوك وتشكيله ، مشيرا إلى أهمية ذلك في قدرتنا على حل مشكلاتنا كافة ، راسما بذلك الطريق التي يرى أنها الأصلح للتحكم بالسلوك البشري الذي لاتقتصر آثاره على الإنسان كفرد فحسب ، وإنما على الجماعات البشرية أيضا . واضعا نصب عينيه قيام تقنية للسلوك الإنساني تحكم كل تطورات الحياة بجميع جوانبها . وفي تحديده لأهداف هذه التقنية يقول :

« إذا ما استطعنا ضبط نمو سكان العالم بالدقة نفسها التي نضبط بها مسار سفينة الفضاء ، أو تحسين الزراعة ، فإنه سيصبح ممكنا حل مشكلاتنا بسرعة . » وإن قيام علم النفس يقتصر على دراسة السلوك الخارجي للكائن الحي ـ كما يقول واطسن ـ ذلك السلوك الذي يمكن إخضاعه للملاحظة والمشاهدة والقياس وذلك كفيل به ليكون علما موضوعيا محددا .

أما السلوك الذي هو موضوع هذا العلم ، فينظر إليه على أنه نوع من المخرجات التي يستتر خلفها العديد من العوامل ، ومن بينها العامل الاجتماعي دائما .

ويتحدد السلوك بالعامل الاجتماعي ، إذ يقوم الوسط الاجتماعي باستمرار ، بنوع من التحكم في استجابات (ردود أفعال) الفرد إزاء المنبهات الخارجية المختلفة .

وما على علم السلوك ـ في هذا المجال ـ إلا أن يأخذ بالمسار الذي انتهجته العلوم الطبيعية ، بحيث يلتفت مباشرة إلى العلاقة ما بين السلوك والبيئة ، دون إضاعة للجهد والزمن ، في البحث عن الحالات الذهنية الوسيطة ، أو السابقة للسلوك أو المرافقة له ، لأن هذه الحالات لاتتعدى كونها حالات مزعومة .

فكل مناحي السلوك ، وفقا لذلك ، يجرى تفسيرها من خلال العلاقة المعروفة (مثير واستجابة) دون النظر إلى الحالات الوسيطة بينهما . وعلى هذا الأساس ، يرى السلوكيون ، أن النبوغ ـ مثلا ـ ما هو إلا نتاج بيئة اجتماعية سابقة . حتى أولئك الذين يبرزون باعتبارهم ثوريين ، هم كلهم تقريبا نتاج تقليدي للنظم التي يطيحون بها . فهم ـ مثلا ـ يتكلمون اللغة ، ويستخدمون المنطق والعلم ، ويتقيدون بكثير من المبادىء القانونية والأخلاقية ، ويستخدمون المهارات العملية والمعرفة التي أعطاها لهم المجتمع . حتى أن ما يبدو في سلوكهم أنه استثنائي،مهما كان مثيرا في ذلك ، علينا أن نبحث عن أسبابه في تاريخهم المزاجي الغريب الخاص ، أما أن تعزى إسهاماتهم المبدعة فقط إلى شخصياتهم التي تصنع المعجزات ، باعتبارهم رجالا مستقلين ، فهذا بالطبع ليس تفسيرا صحيحا على الإطلاق . بكل هذا الوضوح يفسر (سكنر) السلوك الابداعي .

فمع وصف الظاهرة والتشديد على الرغبة في

ذلك ، فإن السلوكيين يتخذون من ذلك خطوة للتنبؤ بالسلوك ، ليس هذا فحسب ، وإنما يبحثون عن إمكانية ضبط السلوك وإخضاعه لعملية التحكم .

التحكم في سلوك شخص ما أو ضبطه مرتبط بتغير الظروف . وهذا يتطلب فهما دقيقا للعلاقة بين السلوك ـ موضوع البحث ـ وبين البيئة . على هذا الأساس يؤكد (سكنر) ، أن التعلم وزيادة الطاقة على العمل والانتاج لا يكونان بنفخ روح الافتخار والكرامة ، وإنما باكتشاف الخطأ في ظروف المتعلم أو المتدرب .

وهذا يعني أيضا معرفة بالبيئة وقوانينها كمقدمة ضرورية لأي فعل يهدف إلى ضبط السلوك والتحكم به ، فالتغيرات في المثيرات يترتب عليها تغيرات في الاستجابة .

دور الثقافة كنتاج اجتماعي

والثقافة بحكم أنها تتضمن طرائق العيش في مجتمع ما ، وتنشئة الأطفال ، وأساليب جمع الطعام وانتاج ما يتعلق به عن طريق الزراعة والصناعة ، ونوع المساكن ، واللباس ، والألعاب ، وكيفية التعامل بين أفراد المجتمع ، وأساليب حكمهم ، إنما تفسر بتأمل الظروف التي أنتجتها بحيث شكلت عادات أو أنماطا سلوكية لها خصوصياتها وثباتها النسبي .

ويسمي السلوكيون الأنماط السلوكية ، والظروف والطوارىء الاجتماعية التي تولد فيها (أفكار الثقافة) . أما التدعيمات ـ التعزيزات ـ التي تظهر فيها هذه الطوارىء والظروف ، فتسمى (قيم الثقافة) . وعلاقة الثقافة مع البيئة علاقة تكيفية ، فهي تخضع باستمرار لعملية اصطفاء . وفحص الممارسات الثقافية لجماعة ما ، يعود تاريخه إلى حوادث عرضية . ثم إن أي ثقافة من الثقافات لا تكون دائما في حالة توازن دائمة ، لأن الظروف في تغير مستمر . تتغير البيئة المادية نتيجة انتقال الناس من مكان لآخر ، ونتيجة تغير في المناخ ، أو حينما تستهلك الموارد الطبيعية ، أو تتحول إلى استعمالات أخرى ، أو عندما تصبح غير قابلة للاستعمال .

وتتغير البيئة الاجتماعية وذلك بتغير حجم الجماعة ، أو باتصالها بجماعات أخرى ، أو بانقطاعها عن جماعة كانت على علاقة معها ، أو عندما تصاب المؤسسات المتحكمة بالقوة أو بالضعف .

ولكن السلوك لا يتشكل نتيجة علاقة المثير بالاستجابة ، بل من خلال عمليات التدعيم أو التعزيز . أي ما يعقب الاستجابة (أو الأداء) ، مما يؤدي إلى زيادة احتمال صدور الاستجابة أو نقصانه . إذ أن الأحداث المجزية بعد الاستجابة تؤدي إذا أحكم ترتيبها إلى زيادة احتمال صدور الاستجابة . وهو ما يسمى (التدعيم أو التعزيز) ، وللتدعيم الذي يلعب دورا رئيسا في تشكيل السلوك: قوانينه التي تتحكم بالسلوك ، وتضبطه ، وذلك من خلال قانون (اقتران زمني بين الاستجابة والتدعيم) . ولذلك شروط محدودة ، منها أن يحصل التدعيم في دائرة انتباه الفرد ، وأن يكون هذا الأخير في حاجة إليه . فالسيطرة السلوكية تتم بوساطة الكبح المفروض بظروف التدعيم والتقوية ، أو بوساطة العقاب الذي يحث على الاقلاع عن سلوك ما ، ويتخذ العقاب شكل اللوم أو التوبيخ . ولكن لذلك حدودا لأن السلوك المعاقب قد يتكرر عندما تزول الطوارىء العقابية ، مع الإشارة إلى أن التدعيم السلبي الذي يأخذ شكل العقاب ، قد ينجح في جعل المتعلم يقلع عن سلوك ما ، ولكنه قد يدفعه إلى سلوك ذي طابع عدواني أو عصابي تدميري .

وقد أرجع (جون لوك) منذ أكثر من قرنين كراهية الكتب والمطالعة عند بعض الناس إلى تلك العقوبات التي كانوا يتعرضون لها . فالكتب التي كانوا يخطئون في قراءتها هي سبب الضرب ، فعزفوا عن حبها ، وعمموا ذلك على سائر

الكتب . وهذا يفسر أيضا - حسب رأي جون لوك - إعراض بعض الناس أو عدم استطاعتهم الشرب من الأكواب الجميلة والنظيفة لأسباب مشابهة ، إذ أن ارتباط بعض الأفكار بالأشياء تجعل هذه الأشياء منفرة .

وهذا العقاب قد يدفع بالمعاقب إلى تغيير البيئة إلى بيئة لايعاقب فيها السلوك نفسه . أو أنه قد يلجأ في سبيل تغيير احتمالات حدوث السلوك الذي استحق العقاب إلى التحكم بإحداث تغيرات فيزيولوجية ، كتناول المهدئات ، أو قمع هذا السلوك بتدعيم قوي إيجابي لأي سلوك آخر قد يحل محله .

أما بالنسبة للتدعيم الإيجابي الذي يتخذ شكل المكافآت ، فإنه حدث ذو تأثير قوي في ضبط السلوك . ويكون بمكافأة الاستجابات التي تقترب في البداية من الاستجابة النهائية المرغوب فيها . ويكون التدعيم في البدء قويا ، بتدعيم أي ميل في الاتجاه الصحيح ، بعد ذلك لا تدعم سوى الاستجابات المحددة في ذلك الاتجاه .

وقد أوضح (سكنر) أهمية التدعيم في إنعاش حياة الناس ، أن إهماله يؤدي للعذاب في قوله :

« إن المعاقبين في العذاب في جحيم دانتي ، هم أولئك الذين عاشوا دون أن يتلقوا أي لوم ودون مديح » .

ويتراوح التدعيم الإيجابي عادة بين كلمات الاستحسان والتشجيع وكيل المديح ، وبين المكافأة المادية . وقد يلعب أي حدث آخر دور المدعم بما في ذلك الاشباع المعرفي والانجاز .

ومن الملاحظات التي تؤكدها أبحاث التعلّم ، أن الاستجابة المدعمة إيجابيا يكون تكرارها أكثر حدوثا من تلك الاستجابات التي لا تتلقى التدعيم المناسب لها مما يؤدي بها الأمر لما يُعرف في كتب علم النفس بالانطفاء . ولكن بعض الاستجابات التي تثبت إلى حد ما ، في سلوك الفرد نتيجة للتدعيم قد تختفي نتيجة عدم الممارسة .

فطريقة تقديم التدعيم ينبغي لها أن تجري وفق منهج محدد ، لتكون فعاليتها أشد في تشكيل السلوك أو ضبطه والتحكم به .

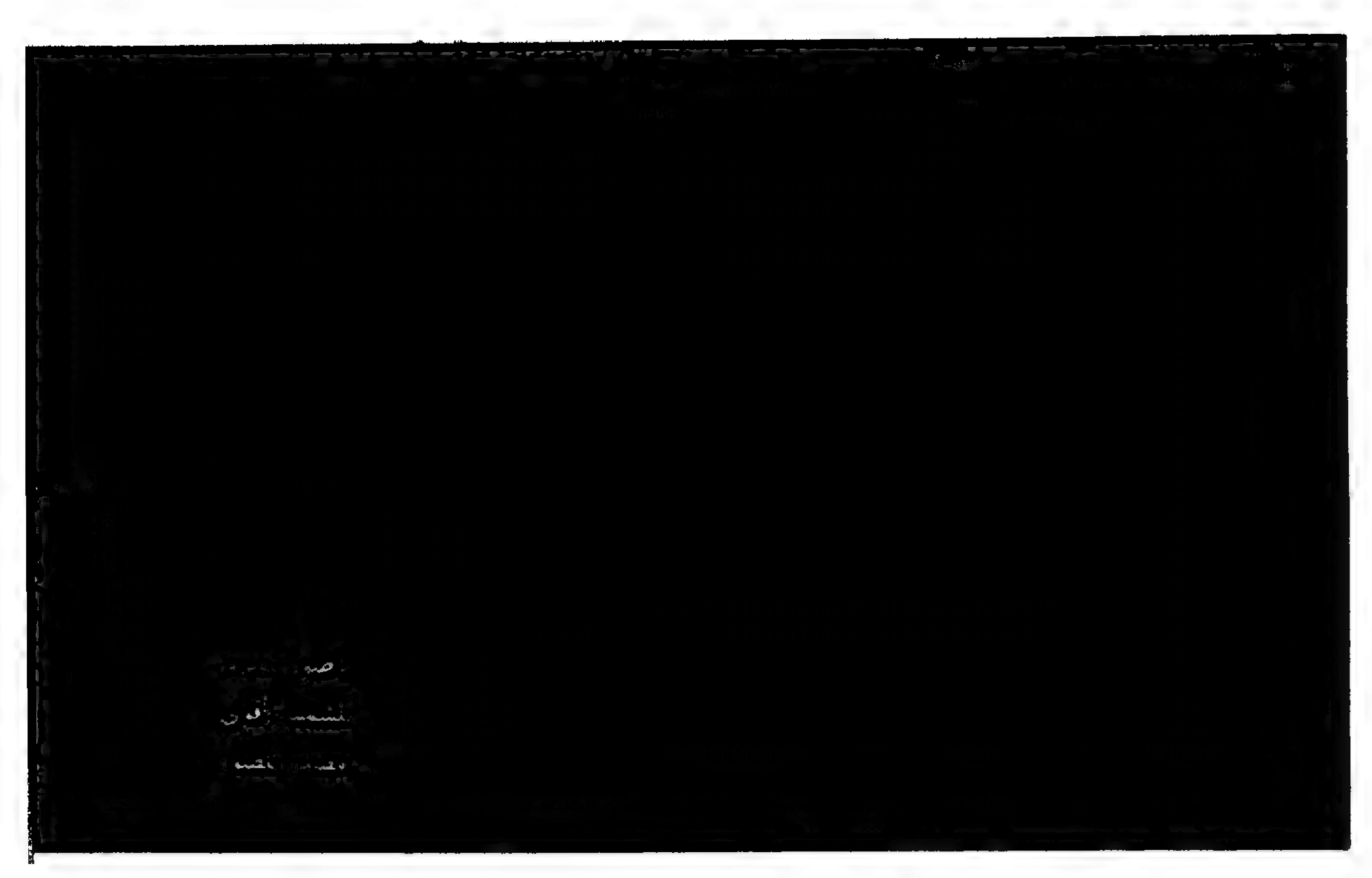
وكما قلنا في البداية ، يرى السّلوكيون أن غالبية سلوك الراشدين هو سلوك متعلم . لذلك فإن تقنية السلوك البشري يجب أن تجري وفق منهج مرسوم ، لا أن تترك للمصادفات .

وهكذا فقد ساهمت نظريات ضبط السلوك والتحكم به في تطوير عمليات التعلم والعلاج النفساني ، وفي بعض حالات العلاج الجسماني . ولكنها - كأي مقاربة علمية - سيف ذو حدين ، بالإضافة إلى مساهمتها في تحسين ظروف التكيف البشري ، فإنها قد تكون لها آثارها التدميرية عندما تبتعد أفعال المستخدمين لها ، وأهدافهم عن قيم اخلاقية أرست دعائمها نضالات البشرية المستمرة منذ أقدم العصور . وفي هذا المجال تندرج الطرائق المتطورة التي ينهجها البعض في عمليات غسل الدماغ ، ودفع المجتمعات - بخاصة المتخلفة منها - إلى مبارحة القيم والأهداف التي تشكل أساس تماسكها ووجودها ، وترويج عادات المجتمع الاستهلاكي وقيمه بدلا منها . □



● قال الشعبي : كنت جالسا عند شريح القاضي ، إذ دخلت امرأة تشتكي زوجها وهو غائب ، وتبكي بكاء شديدا ، فقلت : ما أراها إلا مظلومة ، قال وما علمك ؟ قلت : لبكائها .

قال : فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم ظالمون !!



العلاج بالضوء

بقلم : الدكتور وليد السباعي

مع الانجازات العلمية المبهرة في ميدان العلاج ، واكتشاف الدواء وتصنيعه ، يزداد الاتجاه للعلاج بالأعشاب ، والطب الطبيعي ، واستخدام عناصر الطبيعة التي كان يستخدمها الأقدمون في مقاومة الأمراض وعلاجها ، ومنها الضوء الذي تبين أن له فوائد علاجية كثيرة رخيصة .

يعد ضوء الشمس من أقدم العوامل الفيزيائية في العلاج الطبيعي ، فقد عرفت تأثيره كثير من الشعوب القديمة ، كالآشوريين والمصريين القدماء ، وهم أول من استعمل حمامات الشمس والطين ، ثم اليونانيين والرومانيين . أما أكبر مدرسة لذلك فقد كانت في مدينة هليوبوليس ، أو مدينة الشمس التى استغلها هيوقراط (٣٤٠ - ٣٧٧ ق . م) لعلاج سرعة التئام الجروح وجبر الكسور ، وتخفيف الألم . وفي القرون الوسطى منعت الكنيسة الناس من تعريض أجسامهم للشمس فكثر مرض الخرع . وفي عام ١٨٠٠ اكتشف هرتسل الأشعة تحت الحمراء ، وبعده بعام اكتشف ريتر

الأشعة فوق البنفسجية . وهكذا مرورا بقانون نيوتن ، وقانون ماكسويل ، ثم نظرية بلانك التي أكملها العالم اينشتاين عام ١٩٥٠ تتكامل النظرية حول تحول المادة إلى طاقة وبالعكس .

الفوتون والموجة الكهرومغناطيسية :

وحدة الاشعاع الكهرومغناطيسي هي الفوتون الذي يتكون أثناء اصطدامات الذرات أو الجزئيات بعضها ببعض ، فيحدث تغير في مسار الالكترونات ، فتتحول الطاقة الحركية للألكترونات إلى فوتونات ، وعند التصادم يخرج الفوتون من مصدر الضوء بسرعة (٣٠٠,٠٠٠) كم في الثانية ، في الفراغ .

وللفوتونات خلال نفاذها في الوسط الخارجي خواص الموجة الكهرومغناطيسية . والضوء طاقة تنتشر على شكل موجة كهرومغناطيسية ، وكلما قصر طول الموجة كانت ذبذبتها أكبر وبالعكس ، وتختلف بعض الأمواج الكهرومغناطيسية عن بعضها بالذبذبة وطول الموجة والصفات والتأثير ، ونحصل بترتيبها على الطيف الكهرومغناطيسي ، أي سلسلة إشعاعات الطاقة الضوئية حسب الذبذبة وطول الموجة .

منابع صناعية للأشعة فوق البنفسجية

وسوف نتناول هنا العلاج بالاشعاعات فوق البنفسجية والمرئية وتحت الحمراء ، وهي الأمواج الكهرطيسية ذوات الأطوال التي تتراوح بين (١٥٠) نانومترا وحتى (٣٠٠) نانو متر .

وأقوى مصدر طبيعي لكل أنواع الطاقة الضوئية هو الشمس وما عداها فإن كل جسم محمى لدرجة الاحرار يمكنه إرسال ضوء ، وذلك منذ اللحظة التي تصل فيها درجة حرارته (٢٧٣) درجة مئوية . وفي درجة (٣٠٠ ـ ٥٠٠) مئوية نراه يشع إشعاعا أحمر ، وفي (١٠٠٠) مئوية يصدر إشعاعا أصفر ، وفي أكثر من (١٢٠٠) مئوية يصدر إشعاعا أبيض وفي كل درجة حرارة تصدر إشعاعات بأطوال مختلفة :

أولاً : تحت الحمراء الطويلة ، ثم الأقصر . وعند الاشعاع الأحمر تصدر الأشعة المرئية ، وتحت الحمراء . وعند الاشعاع الأبيض تحت الحمراء والمرئية وفوق البنفسجية . ونظرا لصعوبة تحديد الجرعة الشمسية وقوتها ، واختلاف أحوال الطقس فإننا عادة نستخدم منابع صناعية ضوئية فنحصل على الأشعة تحت الحمراء حينما نحميها لدرجة الاحرار ، فإذا ما سخنت إلى أكثر من (٣٠٠٠) درجة مئوية حصلنا على فوق البنفسجية .

والموجات الكهرومغناطيسية تخضع للقوانين الفيزيائية المعروفة نفسها : كالانحراف ، والانعكاس والامتصاص والفلترة ، وأن الجزء النشيط بيولوجيا هو الجزء الذي يمتصه الجسم فقط ، وهذا يعتمد على طول الموجة ، والذبذبة ، والزاوية التي يقع فيها الضوء على الجسم ، ومدة التأثير ، وشدته ، والامتصاص والنفاذية ، ووضعية الجسم ، والحساسية الخاصة لكل جسم . وبهذا فلكل أشعة تأثير مختلف « بيولوجيا » « وفيزيولوجيا » عن الأخرى . فالأشعة فوق البنفسجية تخترق الجلد مسافة عدة أجزاء من المليمتر ، والمرئية تدخل عدة مليمترات ، وتحت الحمراء عدة سنتيمترات .

الأشعة المرئية :

اكتشف العالم نيوتن أنه بمرور أشعة الشمس خلال الزجاج تتحلل إلى حزم من أشعة ضوئية مختلفة ، لكل منها طولها وخواصها ، وبهذا فالأشعة

المرئية من الضوء ، تتألف من سبعة ألوان أساسية مؤتلفة تكوّن الضوء الذي نراه ، وهي البنفسجي ، والأزرق الغامق ، والأزرق ، والأخضر ، والأصفر ، والبرتقالي ، والأحمر . ونسمي هذه الألوان طيف الشمس الذي يبلغ طوله الموجي من (٩٠ ـ ٧٧٠ نانومترا) ، وخارج هذه الأطوال فإن العين البشرية لا تميز الأشعة التي لها إشعاع قوي جدا ، ونثبت وجودها بالتجارب فقط .

ولاستمرار الحياة على كوكب الأرض كان من الضروري جدا وجود الأشعة المرئية وغير المرئية ، فالمرئية ضرورية للنمو وعمليات التمثيل الخلوي للنباتات ، ولا يخفى على أحد أهمية أشعة الشمس للانسان والحيوان والنبات ، وهنالك العديد من الأمراض التي تحدث بسبب نقص التعرض للشمس ، كالخرع ، وازدياد القابلية للاصابة ببعض الأمراض السارية .. الخ .

الجزء المرئي من الأشعة يخترق الجسم من ١ ـ ١٠ ملم . ولكل نوع من الطيف تأثيره الخاص به ، فالأصفر والبرتقالي لهما تأثير مهيج للأعصاب ، بينما للأزرق والبنفسجي تأثير مهدىء . والأخضر يكثر عمليات البناء ، بينما الأصفر والبنفسجي يكثران عمليات الهدم الخلوي . أما الأزرق والأحمر فيساعدان على تقليل الألم ، والبنفسجي منفرداً يقلل النبض ، بينما البنفسجي والأزرق يساعدان على التئام الجروح وتهدئة الألم . وبالحرارة الواصلة لأعماق النسج ترتفع القدرة المناعية للجسم ، وتتسارع العمليات الحيوية فيه ، وتتحسن الدورة الدموية ، ويكثر نشاط غدد التعرق ، وتهدأ الأمراض الجلدية التي تحدث نتيجة الحصبة والجدري ، أما الأزرق فيستعمل في الطب النفسي والعصبي ، خصوصا عند آلام الأعصاب .. الخ ، إضافة لاستعمالاته في طب العيون للتشخيص .

أما الأشعة فوق البنفسجية فهي أشعة باردة غير مرئية نشيطة كيماويا وفعالة ، لها أشكال ثلاثة (A.B.C) أهمها « B » وبتأثيرها يحمر الجلد ، ثم يكتسب لونا برونزيا ، ولها تأثير قوي على البكتيريات ، ونحصل عليها من الشمس أو من مصادر صناعية ، بلمبات من زجاج الكوارتز والأرغوان أو بخار الزئبق . وأحيانا نضطر لاستعمال موصلات دقيقة لاستعمالها داخل الأنف أو الحلق أو الأذن أو الاعضاء المفرغة والنسائية .

وبتأثيرها يتحول الفيتامين D إلى فيتامين D3 وهو ما يُثبّت الكلس في العظام ، أي تقوية تكلّس العظم . وتحسّن زمن التخثر ، وتقلل تهيج العضلات وتُحسن قابلية غشاء الخلية لامتصاص الأشعة ، وتحويل الكولوايد ، وتُكثر الهموجلوبين وهو أهم عناصر المقاومة في الجسم ، وتزيد نشاطة ، وتفتح الشهية ، وتحسن النوم ، وتقلل التوتر والقلق .

هذه التأثيرات تحدث بسبب تغير أماكن الذرات ، وتغير التعادل الكهربي للذرة ، وتحول الالكترونات إلى مدار آخر .

التأثير والاستخدام

احمرار الجلد ، واكتساب اللون البرونزي ، واكثار قدرة التجدد للخلية ، والاسراع في تشكيل النسج التالفة ، والقضاء على البكتيريات ، ولذلك تستخدم في حالات الجراحة ، والمختبرات ، وفي التعقيم ، بما في ذلك تعقيم الحليب .

وفي كل مكان يمكن أن تتكاثر فيه البكتيريات : كصالات الانتظار ، والمستشفيات والمستوصفات ، وصالات الولادة ، ومصحات السل ، والصيدليات ، وفي الصناعات الغذائية ، والكيماوية والصيدلانية .. الخ .

وتأثيرها الانعكاسي يتم عن طريق المنعكسات الجلدية والعضوية ، وخلال مناطق « هيد » في الجلد ، وتصل للأعضاء الداخلية ، فنلاحظ هبوط الضغط الشرياني (١٠ ـ ٣٠) مليمتراً زئبقيا ، وتحسين الدورة الدموية في الأعضاء واكثار إفرازات المعدة .

أما تأثيرها العام فهو : إكثار نسبة الهيموغلوبين ، وعدد الكريات الحمراء والبيضاء ، وتغير PH نحو الأساسي ، وتغير نسبة أنزيمات الدم والكولسترول والكالسيوم والفوسفور ، وكثرة ترسب الكالسيوم في العظام ، وكثرة افراز حمض البول وطرحه .. الخ .

وتستخدم الأشعة المرئية في علاج القروح والجروح التي لا تندمل ، والأمراض الجلدية : كحب الشباب ، واكزيما داء المنطقة ، والدمامل ، وبسوريازا (أكثر من ٣٠ مرضا جلديا) ،

والـروماتيـزم الاستمـالي وخـارج المفصـلي : اللومباغو ، وأوجاع العضلات ، وارتروز المفاصل والظهر ، وفبرو زيت ، والنقرس ، والأمـراض العصبية : آلام الأعصاب ، والعصب الوركي ، وما بين الأضلاع ، والتهاب الأعصاب ، والأمـراض النسائية : قلة فرز الحليب عند الأم ، وعدم انتظام الدورة الشهرية ، والتهاب المبيض المزمن (تقلل الـورم والألم) ، والـربـو القصبي ، والخـرع ، وتخلخل العظام ، وبطء النمو ، والتعظم ، وخروج الأسنان ، وللجسم المنهك بعد مرض صعب ، وفقر الـدم ، والتسمم بأول اكسيد الكربـون ، والسل خارج الرئة (سل العظام والغدد والمفاصل والأعضاء التناسلية) .

وتستخدم أيضا في تشخيص الأمـراض الفطرية للجلد والشعر والأسنان (السن الميت يعطي لونـا غـامقا والحي لـونا أبيض والمنخـور قـرميديـا) ، ولفحص الدورة الدموية في الأطراف ، وتشخيص الـسرطان ، وفي الكيميـاء الحيـوية ، والتشـريـح المرضي ، وعلم الجراثيم .

ويجب الاحتـراس الشديـد من استعمالهـا وقتـا طويلا ، وبشدة عالية حتى لا تحدث حروقاً جلدية ، كما أنها إذا استمرت أكثر يتفحم الجلد ويموت .

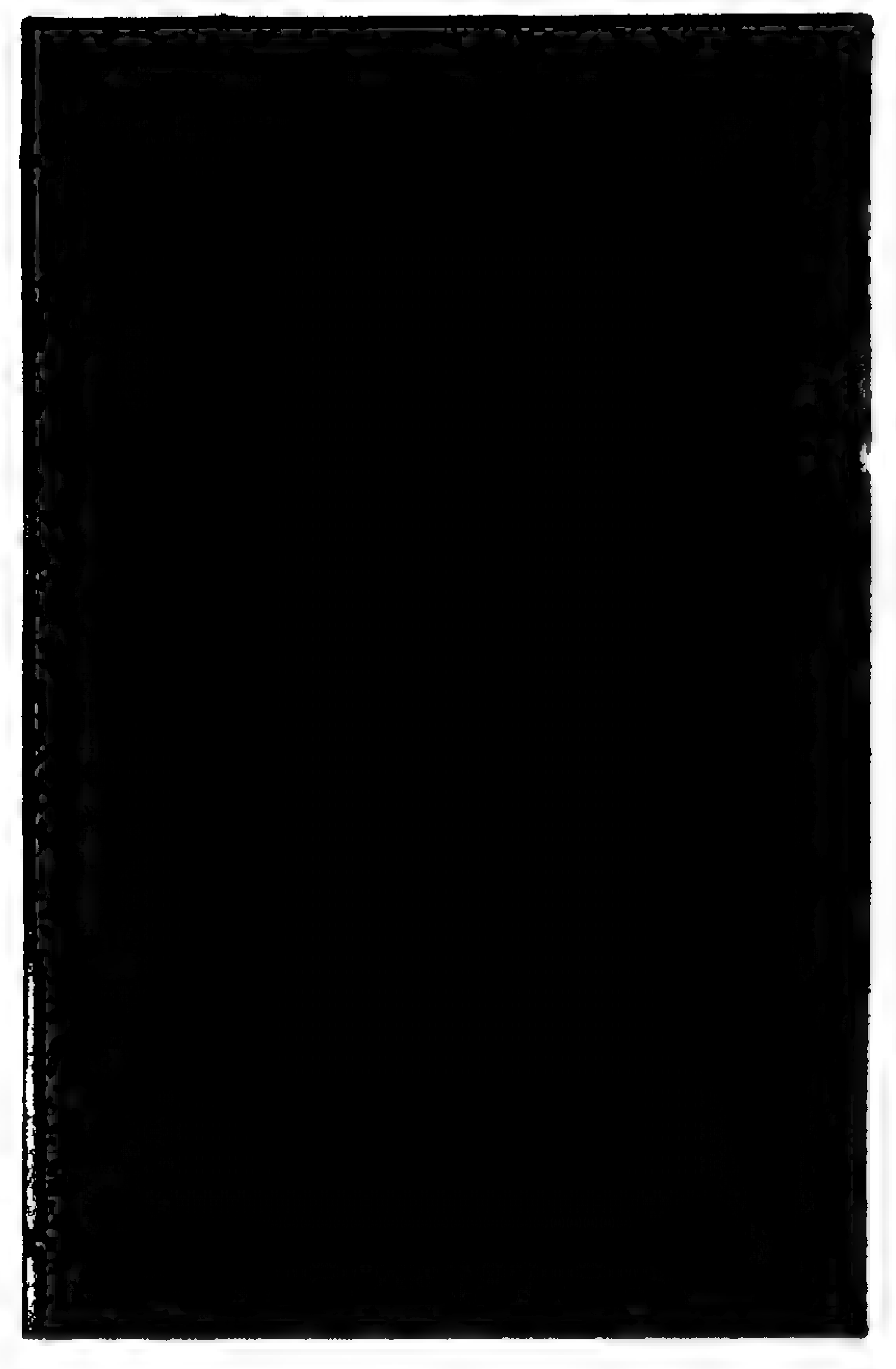
ويمنع استعمالهـا في حالات الحـرارة ، وبعض الأمـراض السـارية ، وقصـور القلب ، وتصلب الشرايين ، وفرط التوتر الشرياني ، والنزيف ، وسل الرئة النشط ، وسرطان الجلد ، والحساسية بالأشعة ، وبعض الأمراض الجلدية ، وفرط إفراز العرق ، وأخذ فيتامين D بكميات كبيرة ، والتعرض لأشعة (×) ، والتهاب الكلى المزمن ، وبعد تناول الأنسـولين والادرينـالين ، ومضـادات الحيـويـة ، ومـركبـات السلفـا ، وأمـلاح الـذهب والفضـة ، ومدرات البول .

الأشعة تحت الحمراء :

أشعـة غير مـرئية حـرارية ، نحصـل عليها من الشمس أو من المنابع الاصـطناعيـة ، تنفذ خـلال الزجاج .

ومن مؤثراتها الفزيولوجية أنها تؤثـر على سـطح الجلد ، ومنه عن طـريق الـسـوائـل تـدخـل الى الأعمـاق ، فيحمـر الجلد بسبب تـوسـع الأوعيـة الدموية . وتحسن مسيرة الـدم ، واللمفا ، وتنشط الهضم والأيض الخلوي ، وتُسْرِع تجدد الأنسجة المتضـررة والأنسجة الضـامة . وتـرخي العضلات والجلد ، وتسـاعد عـلى تغذية الجسم بالأكسجين والمواد الغذائية ، وتصريف المواد الضارة بسرعة ، وامتصاص الورم ، وتقليل الألم ، وإكثار إفرازات الكلى ، ولها تضاد مع الأشعة فوق البنفسجية ، فهي تحطم فيتامينD، وتزيل أعراض الحروق التي تسببها هذه الأشعة .

وتستعمل لعلاج أمراض الروماتيزم ، وأوجـاع الأعصاب ، وبعد الاصابات الرياضية أو إصابات العمل ، والتمهيد قبـل العلاج الحـركي والتدليك والتشريد الدوائي ، والتهاب الجيوب بعد إفراغها (مـع فلتر) ، والـرشـح ، والتهـابـات الجلد



منابع صناعية للأشعة تحت الحمراء

والحروق ، وتهدئة الألم ، خصوصا آلام الوجه الشديدة .

أما في التشخيص فتستعمل في كشف التهابات الأعضاء ، خصوصا الجهاز الحركي ، ومراكز التقيح ، وأمراض الأوعية الدموية ، والدوالي ، والجلطة ، والنزيف والكتل الورمية والسرطانات .

ولها استعمالات كثيرة جدا ، في مركبات الفضاء ، والتصوير الأرضي من الفضاء ، والأجهزة الاستراتيجية ، وجهاز التحكم عن بعد ، وفي التلفاز .

ويمنع استعمالها في حالات الالتهاب القيحي المفتوح ، وسرطان الجلد ، وارتفاع الحرارة ، وقصور القلب ، وتصلب الشرايين ، وارتفاع الضغط ، والنزيف والسل الرئوي النشط ، والجلطة ، ومرض بازيدو ، والتعب الشديد العام والانحلال .

العلاج بالشمس :

بما أن طبقة « يونوسفر » الجوية تمتص كل ما هو ضار بالانسان والحياة كالأشعة الكونية الضارة وغيرها ، فإن ما يصل إلينا نافع دون شك ، بشرط أن تكون جرعاته مدروسة ، أما الجرعات الكبيرة ، والتعرض الطويل لأشعة الشمس فهو ضار جدا ، وأحيانا مميت . ويختلف تأثيرها حسب الفصل والوقت واليوم ، ونظافة الهواء ، ورطوبته ، والغيم ، والارتفاع عن سطح البحر ، ومدة التعرض . . . الخ . وبما أنه لا يمكن التحكم بالجرعة ينصح بالتعرض لأشعة الشمس بالتدريج ومراعاة الغرض الذي نتعرض من أجله للشمس ، وهل هو علاجي أم لمجرد الصحة العامة .

وأفضل الأوقات لاستخدامها علاجيا من ٧ - ١٠ صباحا والسادسة مساء ، وفي غير أيام الصيف من الساعة ١٠ صباحا إلى ٤ مساء . ويجب ألا تشمس بعد تناول الطعام مباشرة ، وإنما بعده بساعتين على الأقل ، ويجب تغطية الرأس ، ودهن الجسم بمادة واقية . ووضع نظارات غامقة ، والحرص الشديد على الأطفال . وإذا لاحظت قلة شهية أو ارتفاعاً في الحرارة أو قلقا ليليا ، أوقف التعرض للشمس كما يجب عدم تعريض من تقل أعمارهم عن سنة للشمس مباشرة .

ونبدأ بالتعرض مدة خمس دقائق ، ثم نزيد كل يوم حتى نصل إلى أقل من ٣ ساعات ، وبعد ذلك نذهب للسباحة ثم نستلقي في الظل ، ويجب الاحتراس الشديد من الحروق الجلدية أو الاصابة بضربة الشمس التي تؤدي إلى الوفاة .

ومن تأثيرات العلاج بالشمس فزيولوجياً ، زيادة قدرة الجسم العامة وتقويتها ، وزيادة النشاط وتحسين النوم والشهية وتقليل التعب ، وزيادة القدرة الدفاعية للجسم ضد الأمراض ، ومرونة الجلد ، واكتسابه لونا برونزيا ، وزيادة صلابته وتقويته ، وتقوية العضلات وزيادة كفاءتها ، وتحسين تبادل الغازات ، وتقوية التنفس وتنشيط انتاج الهيموغلوبين ، وعدد الكريات ، وتعديل العلاقة بين الكالسيوم والفوسفور ، والمساعدة في التئام الجروح ، وتقليل الألم .

ويستفاد من التعرض للشمس والرمل والهواء الحار وممارسة السباحة والرياضة على شاطيء البحر أو البحيرة في علاج الخرع ، وقلة التعظم ، والتخلخل العظمي ، وبعد الأمراض الصعبة ، وفقر الدم ، والجروح والقروح والدمامل ، وسل العظام والغدد ، وكل أنواع السل خارج الرئة ، والروماتيزم بأنواعه المفصلية وغير المفصلية خصوصا الاستحالي منه . ويمنع استعمالها في حالات الأشعة فوق البنفسجية نفسها . □



ما يبكيك ؟

● بكى أحد الصالحين يوما ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة .

مستبشراً بشروقٍ ، ثورةٌ يجثو

[illegible] لَهَا سَكِرَتْ

أطرافُه [illegible] من فوقِه يصبو

[illegible] النبعِ [illegible]

قد شكّلتها يدٌ يهفو لها القلبُ

للمستقبلِ موسيقاً مجنحةً

من كلِّ أغنيةٍ يسري صدىً خِصْبُ

ينسابُ فوقَ مياهِ النبعِ في دعةٍ

كأنه الحلمُ مبهورٌ به السلبُ

أسندتُ رأسي على العشبِ الطريِّ لكيْ

أصغي لِمَا في عروقِ الأرضِ ينصَبُّ

فحاصرتْني مُدَى الأشواكِ جامحةً

وأيقظَتْ في دمي نيرانَهَا الشُّهْبُ

صرختُ : يانبعُ ، قلبي جمرةٌ خفقتْ

فهل يرقُّ لها إشراقُكَ العذبُ ؟

فجاوبتْني مياهُ النبعِ هامسةً

انهضْ عن العشبِ يطفىءْ جمرَكَ الحبُّ

وطُفْ بروحِكَ في أُفْقٍ له لغةٌ

تسمو بها النفسُ لا شوكٌ ولا كَرْبُ

واشربْ من الصفوِ إذْ يأتيكَ مُؤْتلقاً

والحُسْنُ في وجههِ يحْلُو به القربُ

واستنهضِ الروحَ بالآمالِ تطلِقُهَا

وَانْشُرْ جناحيكَ ، إنَّ المُرْتَقَى صَعْبُ

اعداد : يوسف زعبلاوي

العضلات الكهربائية البديلة

يولد الطفل أحياناً مفتقراً إلى طرف واحد من أطرافه أو أكثر ، والذراع هو العضو الذي يفتقر إليه أولئك الأطفال التعساء ، وقد درج الطب على معالجة هذه الحالات بالخطّاف الذي يذكرنا بالقراصنة . وقد وجدوا في هذا الخطاف سلاحاً فتاكاً يمكنهم من التغلب على خصومهم في معارك الأيدي التي طالما خاضوها في البر والبحر . ولعلنا لا نذكر في مخيلتنا قرصاناً إلاّ ونذكر يده الحديدية الخطافة ذات الرأس الحاد المقوس ، فضلاً عن ساقه الخشبية .

على أن الطب تقدم كثيراً في أمريكا وفي غيرها ، حيث لم يعد الخطاف يليق بالمستوى الرفيع الذي أحرزته الخدمات الطبية في السنوات الأخيرة . فهو لا يغني عن اليد في أعمالها كلها أو أكثرها . ويسيء إلى الطفل نفسياً أكثر مما ينفعه ، وحسبك الكآبة التي يولدها في نفسيته تبعاً لسخرية الناس من خطافه ، وتذكر الاحصاءات أن طفلاً واحداً من كل ٢٥٠٠ طفل يولد ناقص الأطراف في الولايات المتحدة الأمريكية .



من هنا حظي الابتكار الجديد بأقصى الترحيب ، حقاً لقد استغرق تطوير الأذرع والعضلات الكهربائية (myoelectric arms) سنوات عديدة ، ولعل في النتيجة النهائية ما قد يبرر الجهود التي بذلت في سبيلها ، وتجدر الإشارة هنا إلى أفلام « السينما » و « الفيديو » التي راحت قبل بضع سنين والتي دارت أحداثها حول القوة الخارقة التي تمتع بها البطل (ستيف أوستن أو غيره) بفضل الذراع الكهربائية .

تعتمد الذراع ذات العضلة الكهربائية على بطارية صغيرة ، وأقطاب كهربائية صغيرة (electrodes) ، ومن شأن هذه الأقطاب ـ التي تلامس نصف الذراع الذي جاء به الطفل من بطن أمه، بل قل العضلة العاملة فيه أن تقويها ١٠٠٠ مرة ، وترسلها إلى نصف الذراع الآخر ذي العضلة الكهربائية ، وذلك بواسطة البطارية التي تعمل بدورها على تشغيل محرك صغير معد لفتح الطرف الكهربائي وإغلاقه ، ولا يخفى أن الإشارات التي تلتقطها الأقطاب يبدأ توليدها في المخ ، فهو يرسل إلى عضلة الذراع الطبيعية ما يثيرها ، فتتقلص العضلة وتفرز مادة كيماوية قادرة على توليد الكهرباء .

وتتميز هذه الأذرع الكهربائية بأنها تثبت على المرفق بواسطة تجويف أو محجر Socket ملائم تماماً ، ودون حاجة إلى الأشرطة أو الكابلات التي لا غنى عنها لتركيب الخطاف ، والتي غالباً ما تسبب تقوساً في العمود الفقري تبعاً لاضطرار الطفل إلى الالتواء بظهره وكتفيه كلما أراد استعمال خطافه .

على أن الذراع الكهربائية ليست بلا سلبيات ، فهي بحاجة إلى استبدالها بأخرى أكبر حجماً لتلائم الطفل الذي ينمو ويكبر ، ويستحسن أن يجري هذا الاستبدال مرة كل (١٠) شهور ، ولو ذكرنا أن قيمة الذراع الواحدة تتراوح بين ١٠ - ١٥ ألف دولار ، لتجلت لنا مشكلة هذه الذراع التي قد لا يقوى على حلها إلاّ القلة من الناس ، وهذا في الوقت الحاضر فحسب ، إذ أنهم ماضون في الولايات المتحدة في إنشاء مصرف للأطراف الجديدة يسمح باستبدال الصغير منها بأكبر وبتكلفة قليلة .

وتجدر الإشارة إلى أن الذراع الكهربائية الجديدة بحاجة إلى ما يكسوها ، ولو نظرت إلى يدها لبدت لك أشبه بيد الهيكل العظمي ، لذلك كان القفاز البلاستيكي الذي طوروه من أجلها بمثابة الجزء الذي لا يتجزأ منها .

ويكسو القفاز اليد ويغطي نحو ٢/٣ الذراع الكهربائي ، وهو ذو أظافر وبراجم ، ويتميز - إذا كان قفاز كبار - بما يشبه الأوردة والطبقات الجلدية ، وهو رخيص الثمن نسبياً (٤٧ دولاراً للقفاز الواحد) .

بقي أن نذكر أن الذراع الكهربائية سهلة الفك والتركيب ، إذ المفروض بها أن تفك قبل النوم ، ثم تركب عند اليقظة ، ولولا سهولة فكها وتركيبها لما أقبل الناس عليها ، حتى في الحالات التي لا يكاد يبلغ عمر الطفل فيها سنة أو دون ذلك .

■■□□



● ارتخاء جفون العين آفة مزعجة ولا ريب ، وهو إما وراثي أو مكتسب . والوراثي منه يصيب في الغالب كلتا العينين في آن واحد ، وهو مرتبط بما قد تتعرض له نواة العصب البصري الثالث من نمو غير سوي ، ويكثر هذا الارتخاء الوراثي في الشعوب التي تعيش في منأى عن الغير - كاليابان - وفي الجماعات التي تحرص على زواج الأقارب .

أما الارتخاء المكتسب فغالباً ما يصيب عيناً واحده دون الأخرى ، وقد يصيب الكبار ، فيكون سببه - في الغالب - قصوراً في امدادات الدم ، أو جلطة صغيرة في منطقة نواة العصب البصري الثالث التي ذكرنا . وقد يصيب الصغار ، وعندئذٍ يكون السبب أحد احتمالات كثيرة ، نذكر منها ضيق الأوعية ، والعصب البصري الذي قد يتعرض لتلف بسبب حادث أو مرض .

وقد يكون الارتخاء حاداً ، بحيث يتعذر على المرء النظر مالم يرفع رأسه



ويميل به إلى الوراء ، وفي تلك الحالة لا سبيل إلى التخلص من الآفة بغير العملية الجراحية ، وهي عملية عادية غير خطيرة .

على أن الارتخاء غير الحاد يمكن التخلص منه باستعمال القطرة المستحضرة من مادة الدموع كما يقول بعض الأطباء . نذكر هذا كله في إطار الأخبار التي ترددت مؤخراً عن « هيروهيتو » امبراطور اليابان الراحل ، فقد تميزت تعابير وجهه أكثر ما تميزت بجفونه المرتخية ، وبعينيه اللتين بدتا نصف مغلقتين بسبب ذلك الارتخاء ، والظاهر أن تلك التعابير كانت نتيجة محاولات الامبراطور المتواصلة لرفع جفنيه المرتخيين بقدر ما كانت نتيجة الارتخاء الذي فطر عليه جفناه العلويان ، هذا على الأقل ما أكده التدقيق الذي أجروه مؤخراً في الآفة التي عانى منها الامبراطور ويعاني منها أكثر رعاياه ، إن لم نقل جميعهم .

■■□□

أمراض الحساسية والاقتراب من الكشف عن سرها

ثبت للعلماء والباحثين في أمريكا أن ثمة مادة واحدة فقط تفسر حالات الحساسية جميعا ، وأن لا حاجة بعد اليوم للبحث عن المصادر أو المواد المختلفة التي يقترن بها التحسس من أجل تحديد العلاج الناجع الذي يحتاج إليه المريض .

والمادة المذكورة لا تعدو كونها « المتقبل »Receptor الذي يوجد على سطح الخلية ، والذي تلتحم به الأجسام المضادة ، في أكثر حالات التحسس ، لا سيما في المرحلة الأولى من تلك الحالات ، وهي المرحلة الحاسمة دون ريب .

لا عجب إذن أن انصبت جهود العلماء في البحث عن عقار يعطل عمل المتقبل ، فيبطل ردود فعل التحسس كلها وخاصة في بداياتها ، عوضاً عن الأدوية الكثيرة التي تحاول القضاء على تحسس المرء المقترن بمادة معينة ، وذلك بإفقاده تحسسه لتلك المادة ، أي أنهم يسعون إلى العثور على عقار فعال واحد لحالات الحساسية كافة ، بدلاً من المستحضرات العديدة التي تتعامل والمواد التي تقترن بها تلك الحالات وهي كثيرة أيضاً . □

قالوا في القلم

● القلم أنف الضمير ، إذا رعف أعلن أسراره وأبان آثاره .
(سهل بن هارون)

● سئل أعرابي : ما القلم ؟ فقال : لا أدرى . فقيل له : توهمه ، ففكر ، ثم قال : « هو عود ، قلم من جانبيه ، كتقليم الأظفور » ، فسمي قلما .

سلامة البشرية في سلامة البيئة

هل من تعارض بين حماية البيئة والتنمية ؟

● تجري أعمال ترميم البيئة في أمريكا على نحو منقطع النظير ، والمقصود هنا إبطال أثر التنمية الزراعية والصناعية ، والرجوع بعقارب الساعة إلى الوراء ، أو إن شئت إبطال التقدم والعودة إلى التخلف . إنه الإنقلاب في المثل العليا الذي أحدثه الوعي البيئي ، والذي أدى إلى معارضة المشاريع الإنشائية ، كاستصلاح الأراضي ، وتجفيف المستنقعات من أجل الزراعة ، والتحطيب من أجل شق الطرق وتعبيدها ، كل هذه المفاهيم التي كانت مثلا عليا في الستينيات أصبحت معاول هدم ودمار في الوقت الحاضر ، وذلك وفق ما تمليه مفاهيم ومصلحة البيئة ، وهي مصلحة البشرية العليا التي نضحي في سبيلها بسائر المصالح الأخرى ، بما في ذلك المصالح القومية والسياسية ومصلحة النمو والازدهار الاقتصادي أيضا .

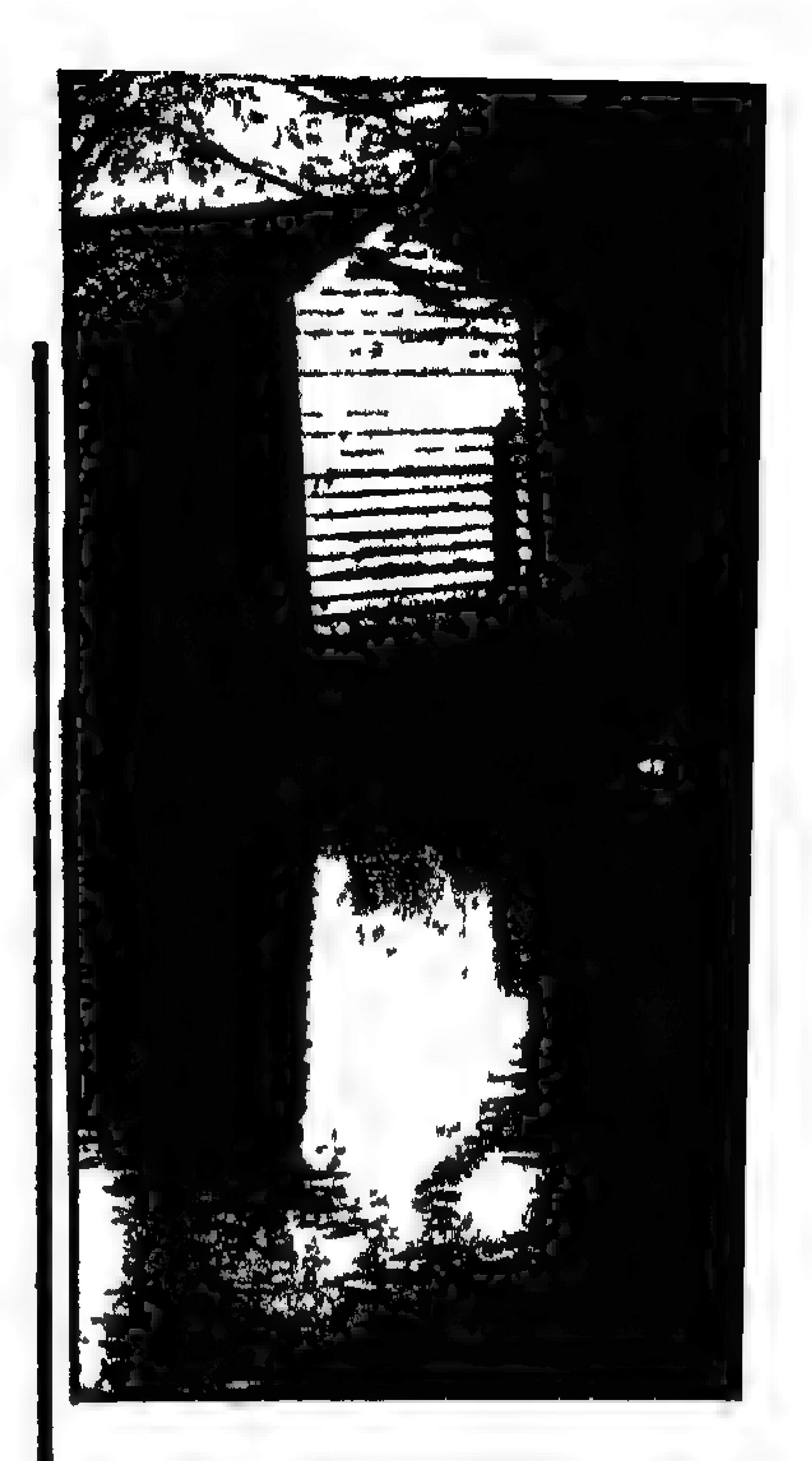
على أن الذي يتولى أعمال ترميم البيئة هذه ليس وكالة البيئة الحكومية ، ولا هيئات حماية البيئة الأهلية ، كهيئة أصدقاء الأرض مثلا ، أو هيئة السلام الأخضر ، وكلها هيئات طوعية خيرية تعمل ما تعمل دون أجر وبلا مقابل ، فالذي يمارس أعمال ترميم البيئة في الولايات المتحدة إنما هي شركات تسعى إلى جني الأرباح ، وتشبه في ذلك شركات البناء والتعمير أو المقاولين ، ولكنها تشبه أيضا الهيئات العلمية والجامعات والمختبرات بقدر ما تنطلق بأعمالها تلك على أسس علمية وتجارب وأبحاث، وبقدر ما تعتمد في ذلك كله على علماء ، إن لم نقل على كبار العلماء والمختصين في القارة الأمريكية كلها .

وحسبنا الإشارة هنا إلى بعض الأعمال الترميمية التي قامت بها ومازالت تقوم شركات ـ تجارية ـ علمية ، إن جاز لنا التعبير .

المستنقعات والأراضي البص : لقد فقدت الولايات المتحدة منذ استقلالها ٥٠٪ من أراضي البص فيها (Wetlands) ، وهي تفقد نصف مليون فدان من هذه الأراضي سنويا . فمن أجل الزراعة ، وبقصد الاستصلاح الزراعي أقبل المستعمرون الأوائل على التحطيب ، وقطع أشجار الأرز التي كانت منتشرة قبل مجيئهم من أوربا إلى العالم الجديد .

وهكذا فقدت المستنقعات والأراضي المبتلة مزاياها ، فغطاها البوص الذي يبلغ في ارتفاعه أحيانا ١٥ قدما . وأدى ذلك إلى تشريد الأحياء البرية لا سيما البط البري .



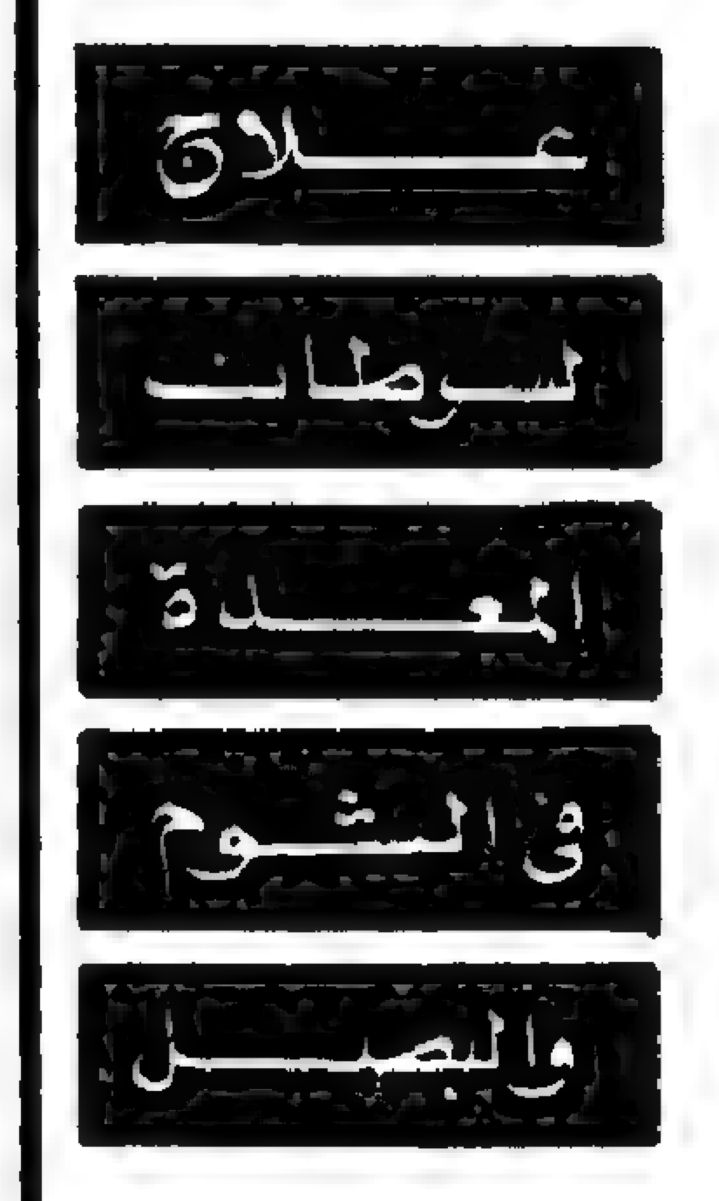


وجاءت سنة ١٩٨٥ وإذا بإحدى شركات الترميم البيئي تباشر أعمال العـودة بعقارب السـاعة إلى الـوراء ، وذلك في « نيـوجرسي » عـلى وجـه التحديد ، وبـاشراف أحـد علماء الكيمياء المختصـين واسمه « جـاربش » (Garbisch) ، فمضت في حفر الأقنية لضمـان وصول المياه العذبـة إلى المنطقة ، وقد حرمتها منها سدود حيوان القندس ، ولضمان وصول مـاء المحيط المالح ، مرة بين الحين والحين أثناء المد ، ومضت أيضـا في إقامـة المرتفعات التي تتطلبها أعشاش البط البري ، ثم مضت في زراعة حشيش المستنقعـات (سبارتينـا) على نـطاق واسع ، والأعشـاب المعروفـة بـاسم (Pickerelweed) وكذلك بطاطس البط ، ونجحت الشركة حتى الآن في إعادة تكوين حوالي ٢٠٠ مستنقع، وفي إعادة البط والعصافير إلى مواطنها في المنطقة .

ويمكن القول بأن الشركة قد أنجزت حتى نهاية ١٩٨٨ حوالي ٥٠٪ من أعمال الترميم التي التزمت بها مقابل ٤ ملايين دولار .

الغابات الاستوائية : مازالت الغابـات الاستوائيـة في العالم الجـديد ماضية في التحول إلى مراع أو سافانا ، أو تربـة تالفـة ، بسبب التعريـة ، ويصدق هذا ـ بخاصة ـ على المناطق الشمالية الغربية في كوستاريكا ، حيث باشرت إحدى شركات الترميم أعمال إعادة الغابات وكائناتها البرية إلى ما كانت عليه ، ويتولى الاشراف على هذه الأعمال العالم جانزن Janzen عالم البيولوجيا من جامعة بنسلفانيا ، وهو يقـول إن أعمالـه الطمـوحة تلك : « ستحقق في غضون مائة عام ما قد لا تستـطيع الـطبيعة تحقيقـه في ٥٠٠ عام » .

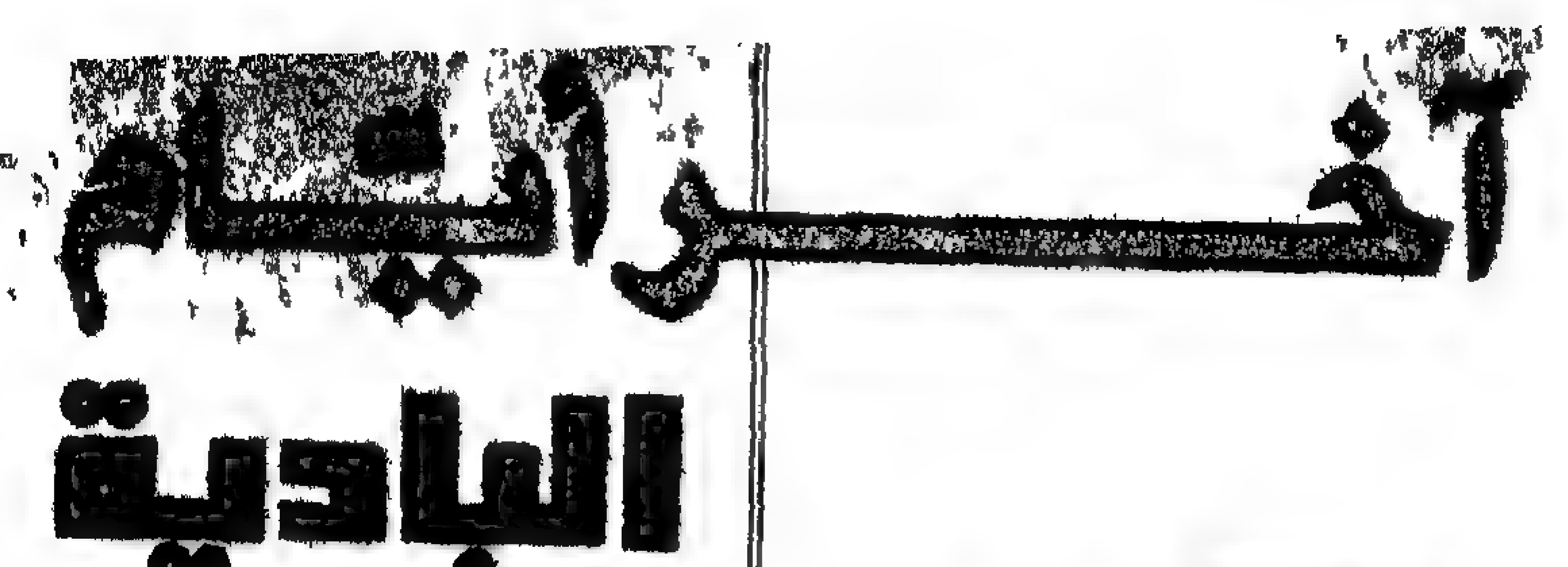
■■□□



مازال الثوم والبصل يحظيان باهتمام الأطباء والعلماء في كل مكان . فقـد نشرت مجلة المعهـد الوطني للسـرطان في الصـين دراسة شملت ١٧٠٠ رجل صيني ، وأجريت الدراسة بقصد الكشف عن مخاطر سرطان المعدة في منطقة « ساندونج » حيث نسبة الوفيات ـ بسبب سرطان المعدة - مرتفعة .

أما النتيجة التي تمخضت عنها الدراسة فهي أن تناول الثوم والبصل يتناسب تناسباً عكسياً والإصابة بسرطان المعدة ، ناهيك بالموت بسبب هذا الورم الخبيث .

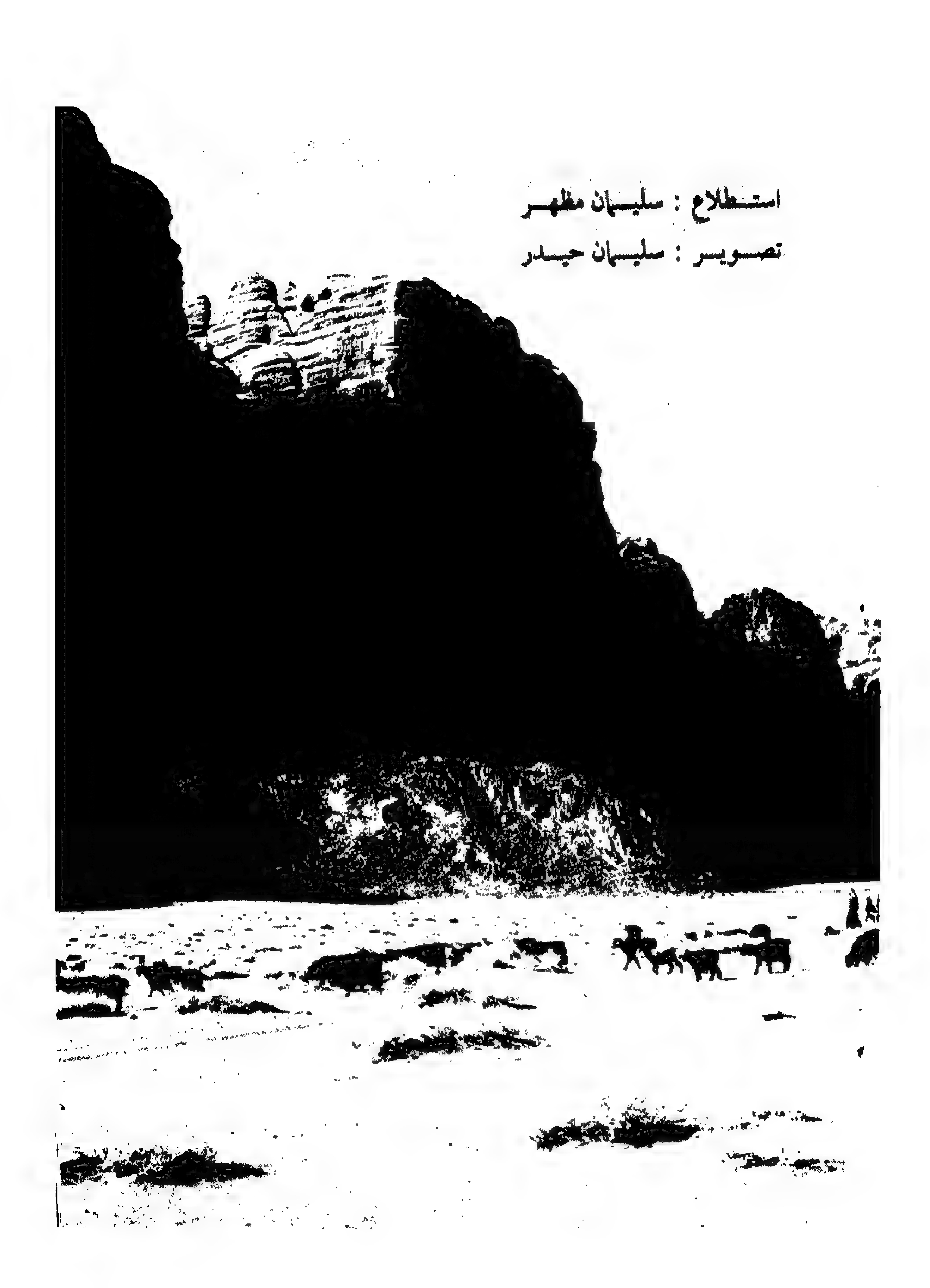
وتجدر الإشارة إلى أن ممثلين عن معهد السرطان الوطني الأمريكي قد انتشروا في مراكز السرطان في « بكين » وغيرها من مدن الصين . وأجـروا مقابلات واستجـوابات مـع ٦٨٥ مريضـاً من المصابـين بسرطـان المعدة ، و ١١٣١ رجلاً معافى من تلك الأورام ، وثبت لهم أن الذين يتناولون المزيد من الثوم والبصل في منأى عن الإصابة بسرطان المعدة ، فهم أقلّ عرضـة للإصابة بنسبة لا تقل عن ٤٠٪ . □



آخر أيام البادية الأردنية !







استطلاع : سليمان مظهر

تصوير : سليمان حيدر

عندما تزور بادية الأردن ، فما من سبيل أمامك إلا السير على خطين متوازيين . فالتاريخ بأحداثه وآثاره ومعالمه يسير متوازيا مع البداوة بإنسانها وخيامها ومراعيها ، لا تستطيع أن تفصل أيا من الخطين عن الآخر . فهما يمتدان جنبا الى جنب حينا ، ويلتقيان في اختلاط غريب حينا اخر ، منذ عاش البدوي الأصيل على هذه الأرض قبل خمسة آلاف سنة . واستقبل العديد من العصور والحكام على مدى التاريخ .

التاريخ يتغير وتتوالى أحداثه ، وتتدرج معها اثاره ومعالمه ، ولكن الأرض تظل هي نفس الأرض ، والبادية هي نفس البادية ، والانسان هو نفس الانسان .

حين يكون هدفنا هو استطلاع ما يجري في بادية الأردن ، وما يشهده إنسانها من تحولات ، فإن علينا أول الأمر أن نعرف على تلك الأرض ، التي يعرفها الناس باسم البادية . فهذا الاقليم الصحراوي الذي يشكل امتدادا للصحراء العربية ، يشتمل على أكثر من ثلثي مساحة الأردن . ويضم صحراء مرصعة بالأحجار السوداء في أجزائه الشمالية والشمالية الشرقية ، تمثل الامتداد الواسع للحمم البركانية والبازلت من جبل الدروز في سوريا ، مع جبال وتلال في الأجزاء الجنوبية ، تنتشر فيها الصخور الرملية والجرانيت ، وكل ذلك يشرف على مساحات سهلية منبسطة تتخللها أودية تصب جميعا في الداخل ، حيث منخفضات واسعة تطل عليها تلال ترتفع قليلا عما يجاورها .

في هذا الاقليم الصحراوي نخترق أنحاء البادية الأردنية في الشمال والوسط والجنوب ، لنتعرف على الأرض ، والانسان ، والتاريخ .

« الفيديو » في بيت الشعر

وقف الرجل حاملا كاميرا الفيديو ، وراح يسلط عدستها في ثبات على أعضاء بعثة التليفزيون اليابانية ، الذين افترشوا الطنافس القطنية واستندوا على جدران البيت الحجرية ، وهم يحتسون الشاي المخلوط بالميرامية والزهورات البرية ، بينما كان مصور البعثة يقوم بالتقاط صور مزرعة الزيتون والتين والفاكهة الممتدة على مساحة خضراء لا يكاد يشملها البصر وعاد المصور ، ووقف يحملق في ذهول الى البدوي الشيخ ، ثم انقض عليه ليأخذ الكاميرا من بين يديه وهو يصيح في زملائه :

ـ أهكذا تحافظون على كاميراتي التي تركتها في عهدتكم ، وتدعون هذا البدوي يعبث بها فيفسدها ؟ .

ومع حيرة رجال البعثة المذهولين من تصرف زميلهم ، سلط الشيخ عدسة الكاميرا على وجه المصور الياباني وهو يقول في بساطة :

ـ لا تنزعج ، إنها آلة تصويري ، والصور التي التقطتها لكم بهذه الكاميرا الحديثة ستكون أفضل من كل ما صورته أنت بكاميراتك . . !

وتلعثم المصور بعد أن سقطت عيناه على أجهزته فوجدها كاملة كما تركها ، ولم يجد أمامه إلا أن يعتذر للشيخ وهو يقول :

ـ لم أتصور قط أن البدو قد تطوروا إلى هذا الحد ، فاعذرني يا شيخ جليل على جهلي !

بالكاميرا التليفزيونية نفسها راح شيخ العشيرة البدوي جليل الزوايدة يصورنا نحن أعضاء بعثة « العربي » وحولنا عدد من أحفاده وأبنائه الثلاثين الذين أنجبهم من زوجاته الثلاث وأخذ ينقل العدسة بيننا وبين أشجار مزرعته « بالديسى » غير بعيد من سيارته المرسيدس وعربة « البيك آب » المليئة بأكياس حصاد الزيتون المعد للنقل الى المعصرة . !

ولمحنا الشيخ ونحن ننقل بصرنا من بيته الحجري المستلقى وسط الأشجار الخضراء ، والذي لا يختلف كثيرا عن أي فيلا عصرية ، الى « بيت الشعر »

الأسود الذي أقيم غير بعيد عن المزرعة ، وابتسم الشيخ في بساطة وهو يقول :

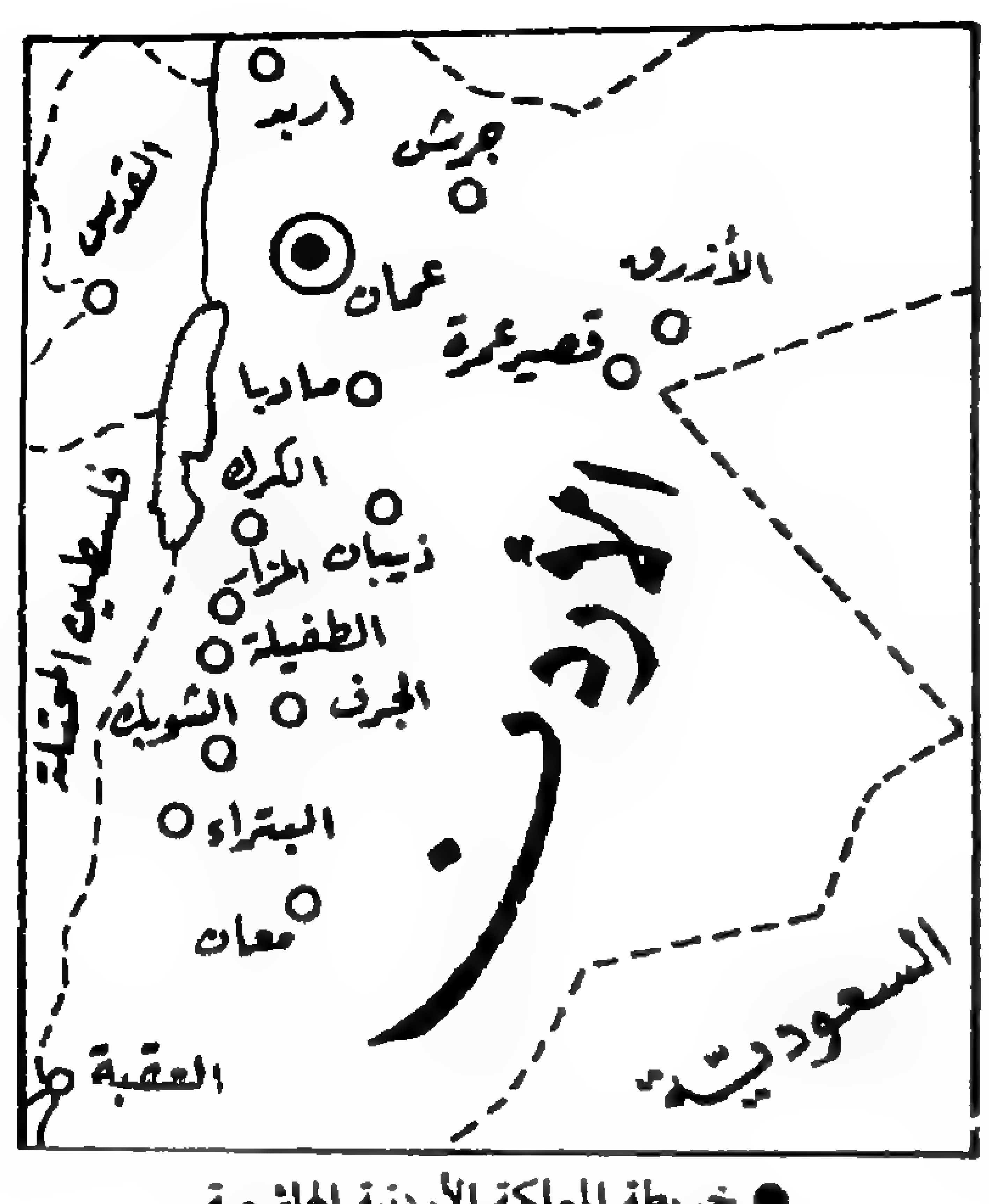
ـ إننا لا نهجر ماضينا وعاداتنا وتقاليدنا ، وإذا كنا قد أصبحنا نقيم في بيوت مبنية من الحجر ، إلا أننا لا نستغني عن بيت الشعر ، فهو رباطنا بماضينا وهو موئلنا ومقامنا كلما ضقنا بهذه البيوت الحجرية الخانقة .

ويأخذ الرجل بأيدينا الى بيت الشعر ونحن نتابع وصفه له وكأنه يتغزل فيه وهو يتحسس جوانبه . البيت منسوج من شعر الماعز الأسود الذي يتم نسجه محليا في شقاق ، كل شقة أو قطعة منها بعرض حوالي نصف متر ، وتقوم النساء بخياطة هذه الشقاق بعضها إلى بعض لتشكل بيتا طويلا متوازي الأضلاع .

وعند نصبه يتم فرشه على الأرض أولا ، ثم تدق الأوتاد وتمد الحبال من حوله ، ثم تولج الأعمدة على طول خط المتن مما ينتج عنه خط طولي ضيق من الظلة فوق الرءوس . وتغلق المقدمة والمؤخرة بستائر من النسيج ذاته حيث تتدلى حول البيت تماما من السقوف العليا الى الأرض . ويتم تقسيم داخل البيت إلى قطاعات بقواطع في الوسط بحيث يكون ثلث البيت تقريبا « محرما » للنساء بينما يخصص الباقي للضيوف فيما يسمى بالمضيف . وصدر البيت مفتوح أو مرفوعة ستائره لمواجهة النسيم البارد . وفي الشتاء ينصب بيت الشعر في انحناءة واد ضيق محمي بالتلال من جميع الجهات ، محاط بالأشجار والجذوع اليابسة التي تزود البدوي بحطب النار . وفي المدن والقرى التي تحضرت وتقيم عشائرها في بيوت الحجر أو الطوب الترابي ، مايزال البدو يحتفظون ببيوت الشعر للإقامة فيها في فصل الربيع ، عندما تتوافر المراعي على مسافة بعيدة من القرية أو المدينة فيأخذ بعض أفراد العائلة مواشيهم ويخيمون مع أغنامهم لمدة شهر أو يزيد .

البادية أحيلت إلى التقاعد

كان المعروف أن بيت الشعر هو أحد أربعة أركان للبداوة ، هي الصحراء ، والبدوي ، والقطعان ، وبيت الشعر . وكانت متابعة هذه الأركان الأربعة هي ما نستهدفه ونحن ننطلق لاجتياز بادية الأردن ،



● خريطة المملكة الأردنية الهاشمية باقليمها الصحراوي الذي يمثل البادية .

ولكن الصورة التي شهدناها كانت تستبعد هذا التعريف للبداوة بعد أن أصبح التطوير والتحضير والتوطين والتحديث هي السمات الغالبة . فمنذ منتصف الخمسينيات وبداية الستينيات أخذت البداوة بصورتها التقليدية تتلاشى ، ونكاد نقول إنها بدأت مرحلة الإحالة إلى التقاعد . حول هذا المعنى قال لنا الدكتور أحمد عويدي العبادي الذي تخصص في دراسة البادية ، وأبى إلا أن يرافقنا في جولتنا : لقد تغيرت نظرية تعريف البداوة ، وأصبحت الآن تقوم على مثلث من ثلاثة أضلاع . الضلع الأول هو الروحية وأعني بها الشعور الذاتي للانسان البدوي ، والضلع الثاني هو البيئة الطبيعية المحيطة به بكل ثوابتها ومتغيراتها ، والضلع الثالث هو نمط حياته اليومية الأكثر تغيرا وترددا بحيث إن الكثير من العادات القديمة تلاشت وانتهت واندثرت بسبب عدم الحاجة اليها . وبرزت معطيات جديدة في الحياة الاجتماعية وفي الحياة اليومية استدعتها ظروف الحياة الجديدة ، واستدعت قيام عادات جديدة . وكانت القفزة الرئيسية ترتبط بمطالع عام ١٩٧١ ، فقد كان الأردن في ذلك الوقت يمر بطفرة اقتصادية ارتفع فيها المنحنى البياني لدرجة لا يتصورها العقل ، واستمر





مشاهد لحياة البادية . بيت الحجر حل محل «بيت الشعر» وارتفع فوقه السخان الشمسي وهوائي التلفاز ، ورافقت السيارة

ذلك حتى عام ١٩٨٥ حيث ثبت الخط البياني ، ثم بدأ يتراجع بعد ذلك العام بما يسمى العودة الى الظروف الطبيعية الجديدة التي تغيرت معها العادات القديمة .

فقد تلاشى ركوب الجمل لقطع المسافات أو للانتقال من مكان إلى آخر ، وأصبحت السيارة الخاصة أو « البيك آب » هي الوسيلة ، السيارة استلزمت ظروفا جديدة ، فالإبل كانت تحتاج للعلف والمرعى بينما السيارة تستلزم وجود البنزين وقطع الغيار والزيوت والطرق المعبدة ومحطات الوقود ، كما أن وجود السيارة سهل أن يكون هناك مذياع مما يتيح الاتصال بالعالم الخارجي . إذن نمط الحياة تغير ، فالبدوي الذي كان يستخدم المرسال لابلاغ الخبر أصبح يستخدم الهاتف ، والذي كان يمتلك قطيعا من الماشية أصبح يستهدف أن يحصل ابنه على شهادة علمية عالية . وأنا أضرب بذلك مثلا بسيطا جدا ، فأنا بدوي ، رعيت في بداية عمري الغنم والابل وأنا حافي القدمين ، وكنت أقيم بشكل دائم مع أهلي وأبناء عشيرتي « الحوارث من بني عباد » في بيوت الشعر ، بكل ما يستلزمه هذا النمط من الحياة . الآن معي دكتوراه من كمبردج ببريطانيا وأقوم بالتدريس في الجامعة بدرجة استاذ ولي ٣٦ مؤلفا ، وأخي راشد جراحة النخاع العظمي في الأردن ، وقد أجرى حوالي ١٥ عملية جراحية عالمية . وبقية إخوتي مهندسون وأطباء كانوا من قبل يعيشون حياة البداوة ، في وادي السير .

كانت هذه هي نقطة الانطلاق التي أردنا أن تكون بداية جولتنا ، ففي وادي السير ـ حيث منطقة إقامة أبناء قاسم العويدي أحد أفخاذ عشيرة بني عباد ـ توجد دار مرافقنا ، وهي مناسبة لنشهد التحول الذي يحدثنا عنه على الطبيعة .

حوار في وادي السير

انطلقت بنا السيارة من عمان في طريقنا إلى وادي السير . . على طول الطريق الذي ترتفع على يمينه التلال العالية ، وتهبط على يساره الوديان ، كنا نشاهد غابات خضراء من أشجار الزيتون حلت كلها محل أشجار البطم والبلوط التي تم اقتلاعها لاستصلاح الأرض وتحويلها الى مزارع للخضراوات والفواكه ، بعد أن انتقلت عشائر البدو الرحّل الى الزراعة بدلاً من الرعي ، وصاروا مزارعين مستقرين ، وعملوا في مهنة الفلاحة التي كانوا يحتقرونها من قبل ، ويتأففون من ممارستها . ولعل مازاد اقتناعهم بهذا التحول خصوبة التربة مع توافر الأمطار والآبار ، بالاضافة إلى قربهم من المدينة التي تؤمن لهم بيع منتجاتهم وشراء حاجاتهم .

تحت خيمة من خيام الشعر المتناثرة على أطراف وادي السير ، والمطلة على المزارع الخضراء بعيدا عن البيوت الحجرية ، جمعنا لقاء مع مجموعة من شيوخ وشباب عشائر بن عباد . ودار الحديث وتلاحمت الآراء وتوالت المعلومات . . .

قال الشيخ : المجتمع الأردني الأصلي هو مجتمع العشيرة التي كانت في مرحلة من المراحل مرحلة بداوة بدائية ، قضية البداوة الآن تكاد تكون قد انتهت ، ونحن نعيش حياة تحضر كاملة .

هز الدكتور أحمد رأسه وقال : إن أكبر دليل على ذلك أنكم شاهدتم بأنفسكم ذلك البدوي الذي يعيش بجانب بيت الشعر ، وعنده الناقة والعنزة ، ومع ذلك فإن عنده (موتور) الكهرباء (وموتور) المياه ، وعنده أيضا كاميرا الفيديو ، وبالتالي فعنده القدرة على الجمع ما بين العصرية المتطورة وبين التقليدية المتناهية . فالانسان البدوي لديه قدرة المزج ليجمع بين الجانبين .

قال أحد الشباب : نحن نتوجه الآن نحو شيئين مهمين : الأول هو تحسين الذات ، بمعنى الاتجاه إلى الدراسة والعلم وتحسين الوضع المادي ، من خلال الوظيفة ، ومن خلال المساعدات الحكومية ، ومن خلال العمل . والشيء الثاني هو التجذير في الأرض ، فصاحب الأرض أصبح يستغلها ويحفر فيها البئر ويمد لها القناة ، وهو يقوم بزراعتها لأن الزراعة ـ وبخاصة تلك الشجيرات التي تراها حولنا مثل العنب والتين ـ مجدية ومربحة جداً .

قال فتى آخر : هناك نقطة مهمة جدا في حياة ابن العشيرة وهي الغيرة ، فالناس تغار من بعضها البعض ، من ينفذ مشروعا يجد أن عشرين أو ثلاثين يقلدونه ، ثم يقلدهم مائتان وثلاثمائة ، ثم ألفان وثلاثة آلاف وهكذا دواليك . فأنت تجد البيوت الخضراء قائمة في الصحراء مثلما هي في الغور . لقد

أصبحت الحياة هكذا في متناول أيدي البدو كلهم .

قال الشيخ : الحقيقة أن كلمة البداوة قد اختفت منذ بداية الثمانينيات ، معنى البداوة لم يعد موجودا لا في البيئة ولا في المجتمع . إنما هناك مع ذلك التركيبة العشائرية وهي التركيبة السائدة . انظروا أمامكم الى هذه السهول تروا مئات البيوت الحجرية ، ولا يظهر بينها سوى بيوت شعر قليلة متباعدة ، قبل عشرين أو ثلاثين سنة كان في هذا المكان عشرون أو ثلاثون بيتا من بيوت الشعر ، الآن كما ترون ليس فيه سوى هذا البيت الذي نجلس فيه .

من يكره الحلال

واصلت السيارة الصعود بنا من وادي السير إلى عراق الأمير في الطريق الى السويسة . البيوت الحجرية المتناثرة يعلو كلا منها سخان شمسي إلى جانب هوائي التلفاز وموتور الكهرباء . بينما في المزرعة حول كل بيت تمتد الصوبات حيث الزراعة المغطاة للخضر والفواكه . مشهد الوادي الأخضر صورة رائعة من الجمال ، بينما تطل على الجوانب الجبال والوديان تعلو بعضها أبنية حجرية أكثرها قصور يقضي فيها أصحابها فترات الصيف حيث أجمل البقاع في الأردن مناخا ونسيما . وكان من النادر أن نرى بيتا لا توجد أمامه سيارة أجرة أو خاصة أو نصف نقل . أبدا لم تعد هذه هي صورة البادية التي نعرفها . لقد أحيلت البداوة بالفعل الى التقاعد . . !

بقرب مزار « بلال بن رباح » الذي يقال إنه مات ودفن في السويسة ، التقينا ببدوي عجوز كان قد انتهى من الزيارة وقراءة الفاتحة ، ثم وقف يتأمل الوادي أسفل المزارع في حسرة ، أردنا أن نبدأ معه الحديث فقلنا له :

ـ الخضرة على سفوح التلال رائعة والأعشاب تنمو بشكل كثير كبير

قال وهو يتأفف : وما فائدة هذا العشب إذا لم توجد مواش ترعاه ؟

قلت : وهل تحب الماشية ؟

قال : إنها الحلال . . ومن يكره الحلال ؟

قال له مرافقنا : وهل رعيت في حياتك أو اقتنيت الأنعام ؟

قال : نعم . . كلاهما

وسألناه : وكيف ؟

قال : كان عندي مائتا رأس من الغنم وسبعون نعجة ، إلاأن زواج الأولاد وذهابهم للوظيفة بعد إكمال دراستهم وتقدم السن بي قد قلل من « الوالي » ؟

نظرت الى مرافقنا متسائلا : هل كان هنا ولاة ؟

قال : الوالي هو من يرعى شئون القطيع . ولعدم وجود من يقومون بهذه الرعاية بعد أن تركه الأبناء الى المدينة اضطر الى بيعها .

ونظر إلينا البدوي الشيخ وهو يقول : أحلف لكم برأس بلال الذي خرجت من مزاره الآن ، أنني أتحسر كلما رأيت مرعى جيدا وأتمنى على الله أن يتحول الى صوف وزبدة ولبن . . !

نساء بني حميدة

الصورة التي شاهدناعليهاوادي السير والسويسة كانت مخالفة تماما لما شاهدنا في منطقة عشائر بني حميدة .

كان الدكتور هاني الخصاونة وزير الإعلام حين استقبلنا بحفاوته قد أشار علينا بخط السير لزيارة معالم البادية وقال :

ـ صحيح أنكم ستشاهدون على الطبيعة جوانب متطورة من معالم البادية ، وستلمسون بأنفسكم مدى النقلة الحضارية والتحديثية في حياة البدو . ولكني مع هذا أوصيكم بألا تضيعوا فرصة زيارة مشروع بني حميدة للصناعات التقليدية في مكاور . فهناك ستشهدون صورة رائعة للعمل الاجتماعي . .

وهكذا كان . اتجهنا أولا الى جبل اللويبدة حيث مؤسسة إنقاذ الطفل التي تتولى إدارة التجربة وتشرف عليها الملكة نور الحسين .

في البداية نتعرف على مشروع بني حميدة من الآنسة غادة حيش :

المنطقة التي ينفذ فيها المشروع ، تقع في مكاور حيث مجموعة من أفخاذ عشائر بني حميدة هم العقايدة والشورة . فقبل حوالي عشر سنوات استقرت ٤٠٠ عائلة من بدو هذه العشيرة مع قطعانهم على سفوح جبل مكاور . وعلى الرغم من أنهم نصبوا بيوت

● نساء بني حمدة صورة موحية للعمل الاجتماعي التعاوني وحين تتحدث «أم خلف» إلى مندوب العربي فإنها تؤكد وهي تغزل الصوف وتنسج البسط أن العائد المادي الذي ينتج زيادة الدخل لأسرها ليس وحده ما يهمها فهناك ربح أهم وهو المحافظة على التراث البدوي البلدي حتى لا يضيع مع الزمن





الشعر على السفوح إلا أنهم لم يستخدموها إلا في فترات الصيف أثناء رعي الأغنام ، بينما بنوا مساكن بسيطة لإقامتهم الدائمة من الأسمنت والحجر ، وبدأوا يرسلون أبناءهم الى المدارس الحكومية القريبة . ولكن تحولهم من حياة الترحل إلى التحضر لم يكن سهلا ، فشح الأمطار وقسوة الأرض لم تشجعهم على الزراعة ، واضطر رجال العشيرة الى القيام بأعمال يدوية ضئيلة ، أو المغادرة إلى مناطق أخرى يجدون فيها عملا ، تاركين نساءهم وأبناءهم أياما وشهورا . وكان على النساء القيام برعاية شئون أنفسهن وأبنائهن خلال فترات الغيبة الطويلة للرجال .

وفي سبتمبر من عام ١٩٨٥ زارت المنطقة لجنة من المؤسسة التعاونية لإنقاذ الطفل التي تساهم فيها اليونيسيف ، وشاهدت مقدار معاناة هذه الأسر البدوية التي تقضي أيامها في شظف من العيش . وكانت الوسيلة الوحيدة لإنقاذها هي إمدادها بدخل معقول لمواصلة تحمل أعباء الحياة . وهكذا تم تنفيذ مشروع لتشغيل الأمهات في الصناعات التقليدية التي تتيح لهن دخلا يقيم أودهن ويسهل لهن رعاية أطفالهن .

تقول السيدة (ريبكا سالتي) مديرة المؤسسة : سألنا أنفسنا كيف نستطيع مساعدة هؤلاء الأمهات؟ وشاهدنا أمامنا مشهدين : الصوف الذي يغطي ماشيتهن ، والبسط التي تغطي أراضي بيوتهن . حينئذ وجدنا الاجابة .

فالنساء البدويات يستطعن غزل الصوف . وقد عودتهن حياة البداوة على نسج بيوت الشعر وجوانب الخيام ، وأسرجة الخيول ، والحقائب والطنافس والبسط والأشغال اليدوية التقليدية . وما ينقصهن هو تزويدهن بأصواف ملونة ، وتقديم الإمكانات التي تتيح لهن الإنتاج وبيع هذه المنتجات .

هكذا كان مولد المشروع الذي ذهبنا لمشاهدة أروع مظاهر نجاحه عندما قمنا بزيارة أمهات بني حميدة في قراهن الإحدى عشرة المتناثرة على سفوح جبل مكاور . .

صحبتنا السيارة الجيب الخاصة بالمؤسسة ، يقودها المشرف التنفيذي على المشروع هايل الحنيطي ، ومعه المشرفة على التصنيع مي منصور ، ومعها بعض احتياجات التشغيل ورسوم التصاميم الجديدة المطلوبة للتنفيذ .

مكاور ورأس المعمدان

الطريق إلى مكاور ومشاهد البادية على امتدادات الوديان والسفوح والجبال تستحق التسجيل ، في البداية سرنا على سفح جبلي فوق طريق متعرج وسط الوادي المزروع بالقمح تارة والزيتون تارة أخرى ، حتى وصلنا إلى تلة عالية فيها خزان ماء بجوار خرائب أثرية هي بقايا « الدير » يسكنها بدو من أفخاذ الربطة والفقهاء من الحمايدة ، يعيشون على الزراعة التي تتيحها لهم مياه الخزان . وتدل المؤشرات على سفوح التل الأثري القديم أنها كانت أرضا عامرة بالكروم والسكان ، كما تعج التلة بالكهوف والآبار التي ماتزال قادرة على الاحتفاظ بالماء حتى الآن . وتوجد دور قديمة من الطين والحجر تستخدم الآن للتخزين .

ونصل إلى جبل مكاور في النهاية . الجبل بارتفاع ٧٣٠ مترا عن سطح البحر ، و١٢٢٥ مترا عن سطح البحر الميت المطل عليه ، ونقف لنطل أمامنا إلى القلعة التي تشرف من الجانب الآخر على الغور وعلى جبال جنوب فلسطين والقدس .

يقول مرافقنا وهو يشير الى قمة الجبل : إن الاعتقاد السائد هو أنه في هذه القلعة حدثت مأساة قطع رأس النبي يحيى « يوحنا المعمدان » بعد أن سجنه هيرودس ، ولـــذلــك تسمى « المشنقة » .

ويقال لنا : إن من الصعب الوصول الآن إلى الجبل لوعورة الطريق إليه . ولكن الحفريات الأثرية أكدت وجود القلعة عليه حيث اكتشفت آثار قديمة وأسوار وبنايات ، وقد كان يحيط بالجبل عدد من الكهوف التي كان بنوحميدة يسكنونها في الشتاء ويستخدمونها لإيواء الحيوانات . .

حديث أم خلف

ونغادر المكان لنواصل سيرنا إلى قرى بني حميدة ونلتقي بنسائها ونشاهدهن أثناء قيامهن بالعمل . .

قالت لنا « أم خلف » وهي تجلس عادة ساقيها أمام النول اليدوي وتنسج بساطا طويلا بديع الألوان : شاركت في المشروع منذ بدايته . فقد دعت مديرة

المؤسسة عددا من نساء بني حميدة ممن يجدن الغزل والنسج ، وأبدين استعدادا للعمل . وكانت هذه هي أول مرة في حياتنا نحضر مثل هذا الاجتماع لمناقشة إمكانية مشاركتنا مع غرباء في الغزل والنسج . كنا حذرات وغير مقتنعات بالعمل الذي يمكن أن يشغلنا عن رعاية أبنائنا . ولكن المديرة قالت لنا بعد أن بدأت وعدد من زميلاتي تستجيب للفكرة : نحن كلنا أمهات وكلنا نريد أن نهتم بأطفالنا ، فالعمل لن يتم خارج بيوتكن ، ونستطيع أن نجلب إليكن الأجهزة والأدوات اللازمة الى البيوت ، فتنجزن العمل وتقمن في الوقت نفسه برعاية أبنائكن وأفراد أسركن .

تواصل أم خلف قائلة : اقتنعت بالفكرة وعرضت أن أضع نفسي تحت التجربة ، فقد كانت لي خبرة جيدة في غزل ونسج حاجاتنا في بيت الشعر . وتبعتني خمس نساء أخريات ، وأمدتنا المؤسسة بالأنوال وبدأنا نعمل داخل بيوتنا . وخرجت من بين أيدينا أعمال تقليدية كثيرة كانوا يشترونها منا بالثمن على الرغم من أنهم يحضرون لنا الخيوط الصوفية ويصبغونها ، ويمدوننا بالرسوم والتصاميم ولا نتكلف أي عبء إلا العمل وحده . وأنا أحصل كل شهر على ما يتراوح بين ستين وثمانين دينارا حسب الكمية التي أنجزها وأسلمها للمشرف التنفيذي والمستشارة الفنية التي توجهنا وتساعدنا باستمرار .

في بيت آخر وجدنا أسرة بكاملها تشارك في العمل . الأم تسلمت بكرات الغزل الملونة التي جلبتها المشرفة وبدأت تمد مغزلها . ابنتها الكبرى كانت تجلس على النول وتنهي نسج سرج ملون وإلى جانبها بعض طنافس لنسجها وحياكتها لتسليمها الى المشرفة لتحصيل قيمتها . الأخت أمامها وعاءان فوق النار تسقط فيهما كرات غزل بيضاء تسلمتها لصباغتها ، فهي إحدى أربع فتيات يتولين صباغة الصوف بالألوان . الابنة الصغرى لجأت إلى ركن معطل على التلة تستذكر دروسها استعدادا للامتحان بينما إخوتها الصغار يتقافزون ويلعبون دون أن يعطلوا أحدا أو يشغلوه عما يؤديه من عمل .

قالت لنا المشرفة نهى منصور : مراحل العمل تبدأ منذ شراء الصوف الخام محليا ، ثم نعطيه للنساء هنا فيقمن بغزله ثم تبدأ عملية الصباغة . وحسب التصميم الذي تكون قد جهزناه نحضر كمية الصوف اللازمة للمفرش أو البساط ونضعها في أكياس ، كل كيس منها لاحدى نساء الأسر اللاتي يقمن بالنسج . ونعطي الإنتاج عندما نتسلمه منهن أرقاما ونرسله الى المؤسسة التي يقدر المتخصصون فيها قيمة كل قطعة . أما البيع فتتولاه المؤسسة وخاصة بعد أن أصبح الإنتاج متميزا ، وبدأ السائحون والزوار وأعضاء السفارات الأجنبية يشترون القطع التي تعبر عن الفنون الشعبية والصناعات التقليدية الأردنية .

وأضاف هايل الحنيطي : الانتاج الذي تقدمه نساء البادية في بني حميدة يعبر عن التراث الشعبي والتقاليد البدوية الأصيلة ، تنقل من الماضي الى الحاضر للاحتفاظ بهذا التراث حتى لا يضيع مع الزمن . بالاضافة إلى إتاحة الفرصة للنشاط الاجتماعي وزيادة الدخل الأسري الذي يعين البدوية على العمل والانشغال به ، كما يتيح لها فرصة الحصول على عائد مادي يزيد دخل الأسرة . هذا الانتاج التراثي يباع محليا في مدن الأردن كما يسوق في الخارج . العمل يجري في القرى تحت إشراف إحدى الفتيات المتعلمات من نفس العشيرة ، تقوم بتدريبهن وتعليمهن الرسوم والمخططات المطلوبة ويتولين بعد ذلك تدريب النساء ، ومتابعة العمل .

إن عدد النساء العاملات المشاركات في مشروع بني حميدة يبلغ ٣٧٥ امرأة بالاضافة إلى ١٧ مشرفة وعاملة في التحضير والإعداد والأعمال المكتبية ، وكلهن من نفس العشيرة ومن بنات نفس النساء . .

حمامات ماعين

ونطلق عائدين من بني حميدة لنمر في طريق عودتنا بإحدى معالم البادية الأردنية المثيرة . . حمامات ماعين . .

فمن قمة جبل بازلتي على مسافة سبعة وثلاثين كيلومترا من مأدبا ، تنحدر شلالات من المياه المعدنية الكبريتية الحارة تصل سخونتها من ٥٥ الى ٦٠ درجة مئوية . هذه المياه استقطبت الباحثين عن الاستجمام والمتجمين منذ أكثر من ألفي سنة عندما كان الملك هيرودس الأدومي يطلب الشفاء في حمامات زرقاء ماعين وينابيعها المعدنية الحارة .



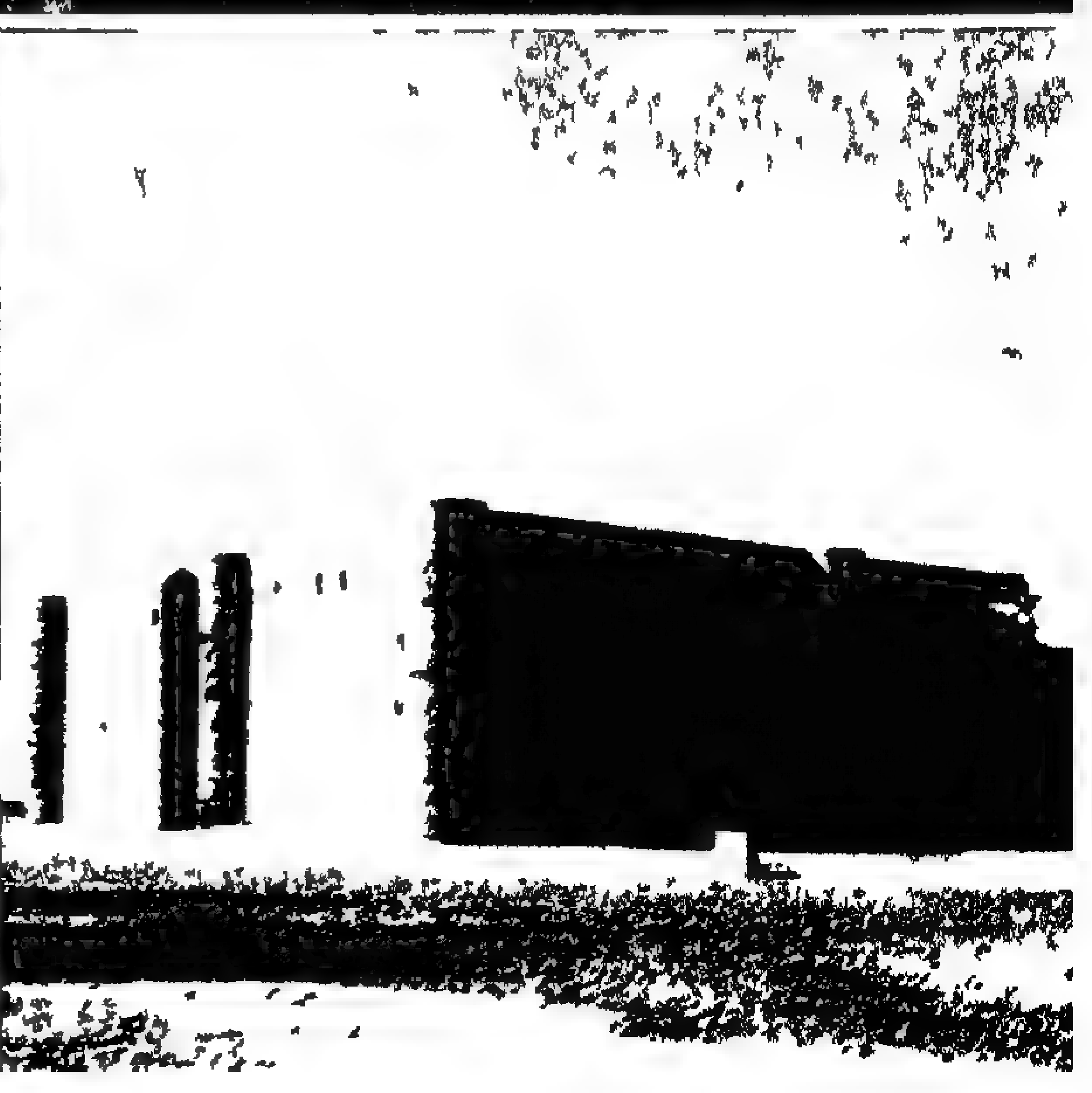
● الفجوة . في داخل مغارة أصحاب الكهف ، حيث قضوا ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا . وعلى الجانبين حفرت في الصخر قبورهم التي دفنوا فيها قبل إغلاق الكهف عليهم «الصورة العليا» أما الى اليسار فيبدو قصران من القصور الأموية الصحراوية ، قصير عمرة ، ثم قصر الخرانة



● الشيخ عيس بور بعير من عشيره الزلابيه مأبى الا أن يواصل العيش بأسلوب البدو متنقلا في صحراء وادي رم (أعلى) وشيخ عشيره الحدود سلامه النقه أمام بيت شعره في البيداء (اسفل)







وكانت الشلالات تتساقط من أنحاء كثيرة ، ويبدو أن أغلبها ناله الجفاف إذ لم يبق منها إلا شلالان يتساقط الماء منها بغزارة ، ويتمدد المستحمون تحت مصب الشلال الرئيسي للاستمتاع والاستشفاء بالمياه المعدنية الحارة . أصبحت الحمامات الآن من أشهر المنتجعات المعدنية في الشرق الأوسط ، ويؤمها الناس من الداخل والخارج للراحة والاستجمام . وقد قامت الحكومة بتطوير هذا الموقع السياحي المهم وتزويده بالمرافق والمنشآت حيث أقيم فندق ومجموعة من الشاليهات والمطاعم ، وأمكنة خاصة للاستحمام في مياه الشلالات والينابيع .

قال لنا أحد أبناء البادية المتحضرين التقيناه بعد أن قضى عدة أيام للإستجمام : إن البدو الذين يعيشون قرب هذه الحمامات يأتون إليها مرة كل سنة على الأقل حيث ينصبون خيامهم على مسافة غير بعيدة منها ، كما أن العشائر المقيمة في بيوت الحجر في القرى القريبة منها يأبون أن يدعوا الاستمتاع بها للسائحين فيشاركونهم بالزيارة والاستجمام في مياهها . وهم يسمونها حمامات « سليمان بن داهود » اعتقادا منهم بأن سليمان الحكيم أقام هنا حماماته . وكان البدو قبل سنوات يعتقدون أن الجن تسكن في ينابيع المياه ، وأن بعض الجن المقيمين في منابع المياه « مؤمنون » لذلك قدسوا بعض تلك الينابيع ، واستشفوا بها وكرموها بالذبائح ، وبخاصة مياه زرقاء ماعين ومياه عين زارة التي تبعد عنها بحوالي ٤ كم ويسمونها « عين الحياة » .

حين كنا نطل على مياه البحر الميت في طريق عودتنا من حمامات ماعين ، رحت أقلب صفحات في كتاب « معلمة التراث الأردني » لروكسي بن زايد العزيزي حيث أورد إجابة لأحد طلاب الدراسات العلمية للمعتقدات الشعبية ، حين سئل عن ما هي « عين الحياة » فقال : « في معتقداتنا البدوية الشعبية أن الله خلق بحيرة كانت في مكان البحر الميت ، ماؤها عذب مقطر والغرض منها أن يشرب ماءها كل كائن بلغ الشيخوخة لاستعادة شبابه ، لكن آدم وحواء لما أخطأ حول تلك البحيرة تحولت إلى بحر ميت لا يعيش فيه حي ولا يمكن شرب مائه . ولما تكاثرت جرائم بني آدم أمطرهم الله نارا وكبريتا وأبقى البحيرة المنتنة شاهدا على قدرة الله . ورفع البحيرة الأولى التي فيها « مية الروح » أو « مياه الحياة » الى السماء الاولى . يمر عليها الانسان الصالح بعد موته ويشرب منها فترد له الحياة وينتظر الدينونة . . . ! »

مغارة أهل الكهف

ونترك « مياه الحياة والخلود » لنلتقي بإحدى العبر السماوية لمعنى الحياة والبعث . . أصحاب الكهف .

فعلى مسيرة حوالي ١٣ كم جنوب شرقي عمان ، وعند منطقة « الرجيب » في « خربة السوق » التي تسمى « الجويفر » نصعد الى ربوة مرتفعة عن الطريق العام ، يقوم على جانبها كهف منحوت في الصخر ، على مدخله لوحة كتب عليها « كهف أهل الكهف ، قبور بيزنطية ، وردت قصتهم في القرآن الكريم » . وأمام مدخل المغارة الذي يرتفع ١٩٠ سم نقف عند بقايا شجرة زيتون أحيطت بسياج ، ذكرت في كتاب ابن اسحق الثعالبي .

قال لنا الامين على الكهف الشيخ عبدالله حمد الشوبكي : « هذا المدخل كان عليه قبل ذلك باب من الصخر حين أغلق على أصحاب الكهف بعد موتهم ، وهذه الزيتونة كانت قائمة في زمنهم لما دخلوه وبقيت حتى زماننا . وقد صدرت الأوامر بقطعها بعد أن وجد أن بدو المنطقة يقسمون بها ويقدسونها ويتبركون بملامستها » .

ونحني رءوسنا لندخل من باب الكهف مارين بالعتبة التي تسمى « الوصيد » وكان يرقد عليها « كلبهم » كما جاء في القرآن الكريم . يبلغ عمق الكهف حوالي ثمانية أمتار ، وفي صدره الفجوة التي اتخذها أصحاب الكهف مرقدا لهم حين دخلوه هاربين بإيمانهم من طغيان الملك دقيانوس . في الجدار الخلفي للفجوة عرضت مجموعة من الآثار التي وجدت في الكهف عند اكتشافه ، فيها قطع نقد رومانية وبقايا أوان فخارية وجمجمة كتب تحتها أنها الفك الأعلى لرأس الكلب الذي كان يحرس أصحاب الكهف . الجدران مليئة بالخطوط والنقوش الثمودية واليونانية القديمة والكوفية . في ركن الجدار الأيمن توجد كوة تتجه نحو الجنوب الغربي توصل من قلب الكهف مخترقة الصخر فوقه إلى السماء . على الجانبين من الفجوة في ساحة الكهف نحتت قبور محفورة في

الصخر ، أربعة على اليمين وأربعة على اليسار ، يقول لنا الشيخ الشويكي إن حفرها تم بأمر الملك البيزنطي الذى بعثوا في عهده ثم ماتوا وكان عددهم سبعة بينهم الراعي الذي كان معهم وثامنهم كلبهم . ولكن قبل أن يغلقوا عليهم الكهف تدارك الملك الأمر حين قال له رجاله إنه لايجوز دفن الكلب مع الصالحين ، لأن الملائكة لاتدخل مكانا فيه كلب ، فتركوا الكلب خارج ساحة الكهف ، ودفن على الوصيد ، أي عتبة الباب .


أدلة قرآنية

قال لنا عالم الآثار الذي صحبنا أن اكتشاف الكهف وتحقيق المكان قام به الأثري رفيق وفا الدجاني المساعد الفني لمدير الآثار ، حيث ابتدأ الحفر في ١٠ يونيو ١٩٦٣ وانتهى منه في ٣١ اغسطس في نفس العام . وقد سجل ذلك التاريخ على لوحة ثبتت عند الجدار الأيمن وكتبت تحتها الآية الكريمة « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه » (الكهف)

وقد كان علينا أن نرجع الى من يمكن أن يفتينا حول انطباق ما جاء في القرآن الكريم على كهف الرجيب . فقال لنا الدكتور عبدالعزيز كامل الذي زار المنطقة مرتين : قرأت عن الكهف قبل الزيارة ، وراجعت ما كتب الزملاء الأردنيون الذين قاموا بالحفر العلمي ، وتولوا مناصب مسئولة في دار الآثار ، كما أعانني الإخوة في وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية والمقدسات الاسلامية على القيام ببعض القياسات والأرصاد العلمية الوثيقة الصلة بتفسير هذه الآية ، والتي تذكر بتفصيل حركة الشمس طلوعا وغروبا وعلاقة أشعتها بالكهف ومن فيه وهم في فجوة منه .

فالكهف في موقع من المناطق الجبلية في الأردن كثيرة الكهوف ، وفي تصوري أن الفتية ـ والله أعلم ـ اختاروا كهفا منه ، وأكثروا من الذهاب اليه وعرفوه واطمأنوا له . هو مكان إيواء ، وهو غير بعيد من المدينة بحيث استطاعوا هم أن يذهبوا إليه راجلين ، واستطاع أحدهم بعد الاستيقاظ أن يذهب راجلا إلى المدينة ليحضر الطعام . وقد درست قبل ذلك عددا من الكهوف التي تنسب إليها أهل الكهف ، وأهمها في إفسوس وطوروس فاستبعدتها لأنها ذات فتحات لا تتفق في سقوط الشمس عليها مع ما جاء في الآيات الكريمة ، ولكن ذلك ينطبق على كهف الرجيب ، أي الفتحة الجنوبية ، ويقع على خط عرض ٣٢ درجة شمالا تقريبا . وعند زيارة الكهف ورصد الفتحة وجدت أنه لم يكن نحو الجنوب الجغرافي مباشرة وإنما كان نحو الجنوب الغربي . وكان وقت الزيارة في الأصيل وشعاع من الشمس الهادئة يدخل باب الكهف . فإذا كنت في الكهف وطلعت الشمس وكانت الفتحة نحو الجنوب الغربي تزاورت الشمس عن الكهف ذات اليمين وتمر أشعة الشمس بقوتها أمامك تكشف المرائي والآفاق . وحين تتوسط السماء لا تدخل الكهف . ثم عندما تميل الى الغروب تدخل بعض أشعتها في فجوة الكهف . وشمس الأصيل هادئة غير قوية كشمس الصباح . ثم هناك الفتحة أو الكوة الموصلة بين قلب الكهف مخترقة الصخر فوقه إلى السماء ومن فوقها صخرة . ومن الممكن قفل الكوة أو إطلاق الهواء فيها حسب حاجة من بالكهف . هذه الفتحات العمودية معروفة في كثير من الأقطار المعتدلة والمدارية ، والذين استخدموا هذا الكهف أفادوا من الفتحة إن كانت على عهدهم وهذا هو الأقرب ، أو أفاد منها من جاءوا من بعدهم . وأفادوا من الكهف إقامة أو عبادة أو استراحة على طريق الرحلة .

ونعود الى ما قاله مكتشف الكهف رفيق الدجاني في كتابه « اكتشاف كهف أهل الكهف » : كهف الرجيب ذكره المقدسي في أحسن التقاسيم ، وياقوت الحموي في معجم البلدان ، كما ذكره البيروني في كتابه « الآثار الباقية » وغيرهم . وإذا كان المسلمون منذ صدر الاسلام ، هم في شك من مكان أهل الكهف ، فإن حفريات الرجيب ألقت ضوءا مرجحا لهذا الكهف في الأردن على الكهوف الأخرى . وبقايا الكنيسة (أو المسجد) فوق كهف الرجيب تماما كما جاء في القرآن وعلامات الصليب على الحجارة واضحة وكذلك على الحجارة التي كانت تغطي المدفن . وقد ظهرت في الكهف عند الحفر ثمانية مدافن أساسية منحوتة في الصخر ، وهي بيزنطية استدل عليها من الزخرفة التي عليها ومن النقود





● واجهه «حزنه فرعون» في قلب البتراء (الصفحه المقابله) والجره في وسط الطابق الثاني كانت هدفا لرصاص البدو الطامعين في الذهب . وإلى أعلى يجلس البدوي متأملا سفوح الجبل . بينما أحد أبناء باديه البدول منهمك في صناعه القلنديه تملأ الزجاجات الصغيره بالرمال الملونه مشكلا منها لوحات فنيه رائعه يتلهف عليها السائحون

النحاسية التي عثر عليها أثناء الحفر ، ومن قطع الفخار أيضا . وقد أعيد ترميم الفجوة في عهد الأمويين ، وكانت جدرانها من الحجارة فهدمها الأمويون وبنوها بشكل أقواس إسلامية وشكلوا مكان سقوط أشعة الشمس .

وقد ثبت أن المسلمين الأوائل بنوا المسجد فوق جدران الصومعة تماما دون تغيير في المساحة وأضافوا المحراب الى الحائط الجنوبي وهو حائط القبلة . وأقدم تاريخ للمسجد يرجع الى عهد عبدالملك بن مروان .

القصور الصحراوية في البادية

على طول بادية الوسط الممتدة من منطقة زيزيا الى منطقة البويضة في لواء إربد ، تحتل عشيرة بني صخر أقوى العشائر الأردنية مساحات واسعة عامرة بالمزارع وبالخضرة والمراعي الشاسعة بإبلها وماشيتها . وهي عشائر تتوزع بين المدينة والقرية والحياة البدوية وشبه البدوية تزاوج بين بيت الشعر وبيوت الحجر المقامة على أحدث أنماط العمران والتقنية . على مشارف هذه المنطقة نجد أنفسنا مع بداية الخط الأثري المتوازي مع البادية . حيث يأخذنا مرافقنا الى القصور والحمامات الصحراوية المنتشرة في ربوع البادية الواقعة الى الشرق من عمان . وتنسب هذه القصور الى الأمويين الذين عملوا على إقامة منشآت لها علاقة بجمع مياه الامطار وخزنها وأبرز ما شهدناه من هذه القصور قصير عمرة بلوحاته الجدارية الملونة وحماماته وكذلك قصر المشتى وقصر الخرانة .

ولاشك أن القصور الصحراوية في البادية الأردنية معالم بارزة على جانب من الأهمية لأنها أكثر الأبنية فخامة وأصالة من العصر الاسلامي المبكر . .

قلاع على سيف البادية

الخط المتوازي الذي يسير جنبا الى جنب مع البداوة هو المعالم الأثرية التي تمتد بطول البادية الأردنية من الشمال الى الجنوب وفي الشرق والشمال الشرقي والتي كانت أغلب مغاراتها أماكن إقامة بديلة للبدو الى جانب بيوت الشعر .

الآثار والقلاع كما زرناها توجد على طول ما يسمى بسيف البادية ، وهي سلسلة الجبال الشرقية لنهر الأردن بدءا من قلعة الربض في عجلون وقلاع عمان وحصبان ثم ذيبان ثم قلعة الكرك والشوبك ومعان والعقبة . هذه القلاع موغلة في القدم منذ أن كانت الشعوب والأمم والدول تقوم في شرق الاردن . فقبل الميلاد قامت اربع ممالك هي مملكة الأدوميين وعاصمتها بصيرة بجانب الطفيلة ، ومملكة المؤابيين وكانت عاصمتها الكرك ثم ذيبان قرب منطقة عشائر بني حميدة ، ومملكة العمونيين وعاصمتهم عمان ، ومملكة الحشبوسيين وعاصمتهم الحصبان ، ثم مملكة البيسانيين وعاصمتهم في منطقة شمال الأردن ، وفيما بعد جاء الأنباط وجعلوا عاصمتهم البتراء . تعاقبت هذه الأمم على الأردن باعتبارها منطقة ممر ومستقر ، وبالتالي نقطة التقاء للمنطقة الصحراوية من الشرق والجنوب والبوابة العسكرية الرئيسية لمنطقة شمال الجزيرة العربية ، والبوابة الشرقية للمنطقة الخضراء وهي فلسطين والشام وكذلك مصر . من هنا فإن جميع الدول التي سيطرت على فلسطين حاولت أن يكون لها قلاع في شرق الأردن لكي تحمي نفسها من هجمات البدو ، سواء بدو الأردن أنفسهم أو بدو الجزيرة العربية ، بما فيهم بدو الخليج العربي وبدو منطقة العراق عندما كانوا يأتون الى هذه المنطقة . ولذلك فإن هذه القلاع الكثيرة في بادية الأردن تشكل خط المواجهة سواء بالنسبة للأمم الخضراء مع الصحراء أو بالنسبة للأمم الصحراء مع الخضراء .

البتراء . . والعرب الأنباط

على ان الأبرز من العواصم والقلاع في بادية الاردن هي البتراء التي كانت عاصمة الانباط ، وهم البدو القادمون من شبه الجزيرة العربية ، ويبدأ بهم تاريخ البادية العربية الأردنية . .

الأنباط كانوا قبيلة كبيرة ذات زعامة قوية جاءت من شمال شبه الجزيرة العربية ، وحطت رحالها عند عيون وادي موسى جنوب الأردن كمصدر دائم للماء ، علاوة على توافر الكلأ والأشجار في المنطقة ، وهو ما تعتمد عليه حياة ماشيتهم الكثيرة ، وهكذا أقاموا بالمنطقة حيث طيب الهواء والماء والخيرات في أرض صالحة للزراعة ، فتعايشوا مع الأدوميين حتى

تمكنوا بالتدريج من السيطرة على المنطقة ودفع الأدوميين الى جنوب فلسطين ، واتخذوا البتراء كمكان مقدس لدفن موتاهم ، ثم حولوها فيما بعد الى عاصمة لأول مملكة بدوية عربية .

في آثار البتراء « المدينة الوردية » عاصمة العرب الأنباط القدامى ، كانت لنا وقفة وجولة لا نستطيع أن نتجاهلها ، وبخاصة أنها كانت المستقر الأول للبادية الأردنية التي جئنا لاستطلاعها .

لا نكاد نترك فندق « الفوروم » القائم على مدخل المدينة حتى نجد أنفسنا نتحدر تدريجيا نحو الوادي ، لنواجه في طريقنا الى باب المدينة المسمى « بالسيق » بثلاث كتل ضخمة مقطوعة من الصخر يطلق عليها اسم « صخور الجان » قال لنا عنها مرافقنا السياحي نيازي أنها قبور نبطية مبكرة لم يكتمل حفرها ، كما نجد إلى يسارنا ضريح المسلات في أسفله قاعة الاحتفالات الجنائزية . المسلات عددها أربع ذات تأثيرات مصرية واضحة .

وندخل « السيق » وهو مدخل المدينة وطوله ألف ومائتا متر وعرضه في بعض الأماكن لا يزيد عن مترين وارتفاع جدرانه الصخرية يتراوح بين ثمانين ومائة متر . ونظل حولنا في ذهول الى أجمل اللوحات الطبيعية .

فهذا المدخل عبارة عن شق ضيق وعميق بين صخور جبلين شاهقين تتراكب فيه الألوان بين الأبيض والأصفر والأحمر المخملي والبنفسجي ، وفيه آثار قنوات محفورة بالصخر لجلب المياه من عين موسى إلى وسط المدينة .


أرضية السيق رصفت بحجارة ضخمة لا يزال بعضها قائما حتى الآن . قطعنا الطريق سيرا على الاقدام على أرضية كلها من كسر الحجارة التي يصعب السير عليها ، ولهذا يلجأ أغلب السائحين الى قطع المسافة فوق ظهور الخيول . على جانبي السيق محاريب صغيرة حفرت في الصخر تمثل الإله « ذو الشرى » إله العرب الأنباط . وما نكاد نصل نهاية هذا الممر الضيق حتى نقف أمام أجمل مكان أثري في البتراء « خزنة فرعون » !

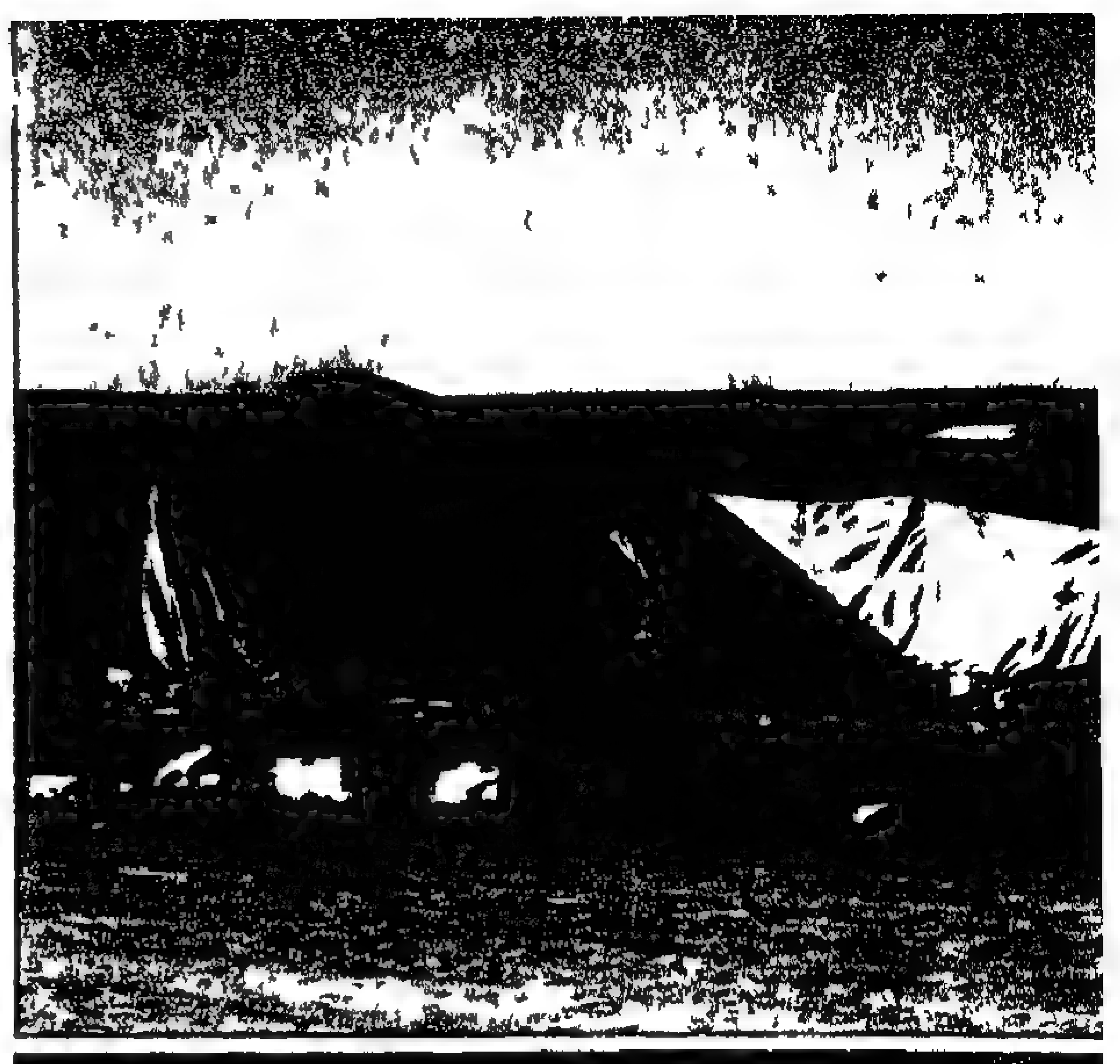
الخزنة بناء حفر في صخر رملي لونه وردي فاتح ، وهو عبارة عن واجهة قبر بالغة الروعة تزينها الأعمدة والتماثيل المنحوتة في الصخر الوردي يعود تاريخها إلى القرن الأول الميلادي . أما سر التسمية فيرجع إلى أن بدو المنطقة اعتقدوا خطأ أن فرعون وضع كنوزه في الجرة الموجودة في الطابق الثاني ليبعدها عن أيدي الطامعين فيها . وهذه الجرة كانت هدفا لرصاص البدو الذين أغراهم المال . أما البناء نفسه فقد قال لنا مرافقنا إن تاريخه يعود إلى ملك الأنباط الحارث الثالث (٨٤ ـ ٥٦ ق.م) الذي كلف ببنائه مهندسين وفنيين يونانيين ذوي مهارة في الفن الهليني . وهو يتكون من طابقين ، الأسفل واجهة من ستة أعمدة من الطراز الكورنثي تحمل فوقها سطحا نقش عليه رسمان لأبي الهول ورسم آخر لأسد وفهد . وعلى الجانب الأيمن نرى رجلا حافي القدمين يقود جملا . وعلى اليسار حية تحاول لدغ رجل في قلبه . وأما الطابق الثاني فيتكون من ثلاث أسطوانات تحمل الوسطى الجرة وفوقها تمثال للإلهة إيزيس ، وتزين شرفة الطابق رسوم الزهور والثمار والنسور وصورة لنساء مقاتلات يسمونهن « الامازونات » كن يقطعن الثدي الأيمن ليسهل عليهن استعمال القوس في الحرب ، وهن يبدون رافعات سلاحهن من البلطات فوق رءوسهن .

داخل المدينة يحتاج لحديث طويل . ولكن المهم هو المسرح الروماني وآثار الشوارع المرصوفة والمعابد والحمامات والمنازل والبوابة التذكارية ، ثم قصر البنت وهو من أهم المعابد الموجودة في البتراء وغير منحوت في الصخر ، وقد زخرفت جدرانه الخارجية بالزخارف الجصية الملونة ، وغطيت جدرانه الداخلية بالرخام . وهناك أيضا المحكمة والدير والمذبح وقلعة الحبيس وقبر النبي هارون وهو يحتاج لبلوغه الى تسلق الصخور الوردية الملونة .

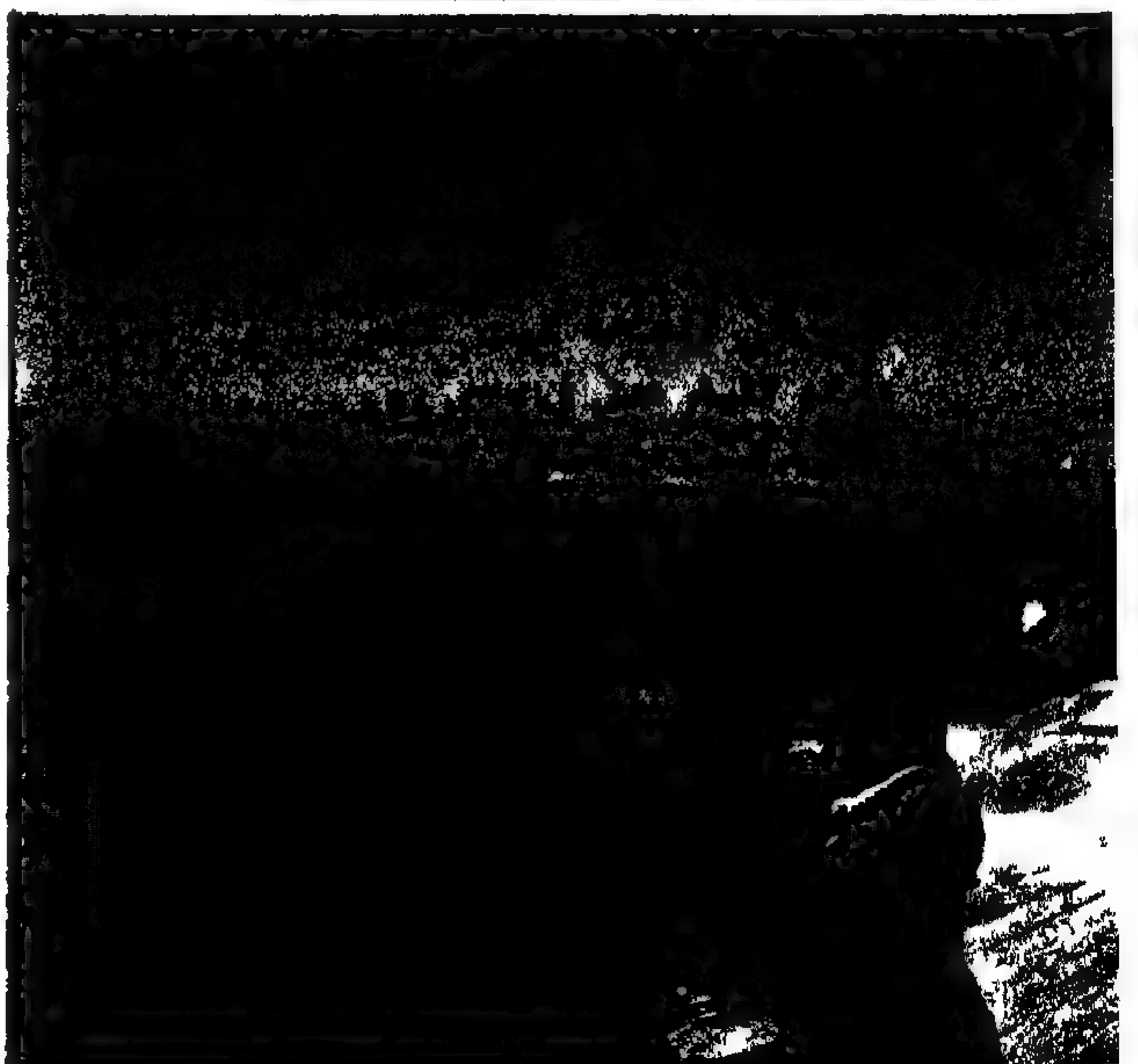
أجداد العشائر البدوية

إن مدينة البتراء ذات جمال طبيعي لا يتوافر في أي مكان في العالم ، فالألوان المختلفة في الصخور ، التي تزيدها جمالا أشعة الشمس ، استغلها العقل العربي البدوي النبطي لكي يجعل منها مكانا رائعا لكل من يهوى الجمال . وأما طرقها الوعرة والضيقة والمتعرجة التي أوجدتها الطبيعة فتنبثق منها الموسيقا الخالدة عندما تمر بها الرياح العاصفة أو النسيم الناعم . .









● آخر أيام البادية الأردنية

ولا نريد أن ننساق مع جمال البتراء وآثار العرب الأنباط المهم أن الزمن قد استغرق من الأنباط منذ نزولهم في جنوب الأردن حوالي قرنين حتى تمت لهم السيطرة على جنوب الأردن كله ، وأقاموا حياتهم على التجارة وتربية الماشية واستخراج القطران من البحر الميت ، بل قاموا إلى جانب ذلك باستخراج وصهر معدن النحاس

هؤلاء هم العرب الأنباط أجداد العشائر العربية الأصيلة التي تعيش في بادية الاردن وقد عاشوا بمحاذاة طرق القوافل التجارية المحملة بالبخور والتوابل والحرير التي كانت تربط بين مراكز الانتاج في الصين والهند وجنوب الجزيرة العربية ، وبين الأسواق الاستهلاكية الغنية في مصر وسوريا واليونان وروما وكان من أشهر ملوكهم الحارث الثاني والحارث الثالث

استمر البدو العرب الأنباط في مملكتهم بين مد وجزر سواء في التجارة أو الزراعة أو العمران حتى غزاهم الرومان ثم البيزنطيون ، واختلطت بذلك عناصر الحضارة الفنية اليونانية الرومانية مع الحضارة العربية النبطية ، وهي التي تبدت أثريا في البتراء

واستمر ذلك حتى نزلت جحافل القوات الاسلامية في جنوب الأردن قادمة من الجزيرة العربية ، واشتبكت مع القوات البيزنطية في معارك عدة انتهت بانتصار المسلمين في شمال الأردن في معركة اليرموك عام ٦٣٦م واستعادت مدينة البتراء دورها الأساسي كمركز هام على طرق القوافل التجارية بين الجزيرة العربية من ناحية وبين مصر وسوريا من ناحية أخرى ، حتى ضاعت في عالم النسيان بخضوع المنطقة لنفوذ الدولة العثمانية تلك هي البتراء وهؤلاء هم العرب الأنباط أجداد العشائر العربية الأصيلة التي عرست جذورها في بادية الأردن ، وبينها أفراد عشيرة البدول ، الذين التقينا بهم خارج البتراء الحالية في « البيضاء » حيث أقامت الدولة قرية خاصة لعرب البدول الذين كانوا يتخذون من كهوف البتراء مسكنا لهم ، وتم ترحيلهم عنوة الى منازلهم الجديدة ، حيث بدأوا يتحولون من البادية الى الحضر ، وإن كانت بيوت الشعر ما تزال منصوبة بجانب بناياتهم الحديثة

بدو البدول

في قرية البيضاء ، وفي بيت شيخ عشيرة البدول ، رحب بنا الشيخ سلامة عيد الفقير ، ودار حديث طويل عن التحول والتغير الذي طرأ على تقاليد البادية وعاداتها . قال : قبلنا الاستقرار ، ولكننا ما نزال على عاداتنا وتقاليدنا ، الكرم العربي والضيافة وحسن المعشر واحترام الجار ومساعدة المظلوم والمحتاج كلها لم تتغير . وحين تحضرنا كان ذلك عن اقتناع لأننا نريد أن نعلم أولادنا ، وكذلك حتى تأتينا الكهرباء ونحصل على الماء . لم نتحضر لننسى عاداتنا أوتقاليدنا ، لا وإنما لكي نلحق بركب الحضارة .

بالنسبة لتعليم البنات كنا نعارضه ، وعندما أخرجنا من البتراء الى قرية البيضاء سنة ١٩٨٤ لم تكن لدينا بنات تتعلم في المدارس ، وكان اختلاط البنات لأقلية من العائلات التي دخل أبناؤها الجيش ، وعرفوا التعليم في المدن .

هنا في البيضاء حصل تجاوب بيننا وبين الحكومة التي أقامت مدرسة خاصة للبنات حولها سور وتدرس فيها معلمات . وبعد أن كان عدد البنات في العام الأول لا يتجاوز ١٥ تلميذة أصبح الآن يتجاوز مائة . فنحن نحب العلم لأن العلم هو الطريق الصحيح الى الحياة الصحيحة ، وأصبح الجميع يوافقون على التعليم وعلى التطور والازدهار والتقدم . لكن مسألة الاختلاط التي تتم في الجامعة مثلا نحن ضدها ، فكيف تجلس ابنتي مثلا مع شاب غريب عنها ، وكيف أقبل أن تذهب إلى رحلات مشتركة مع الشباب ؟ لا هذا غير ممكن . ولكن من يدري ربما نخضع مع المزيد من التطور للأمر الواقع ، وأولادنا يمكن أن يتغيروا أكثر منا كما تغيرنا نحن عن آبائنا .

فهل تغيرت أيضا تقاليد الزواج ؟

أفضل هذه المرة أن تكون الاجابة بنفس ألفاظه البدوية إلا ما يحتاج الى تبسيط . قال شيخ البدول :

« كان الزواج على المحبة ، إذا أردت أن تأخذ بنتي غصب ، أفرض عليك مهرا كبيرا ، وإذا أردت أن أعطيها لك فممكن حتى ولو على علوة غليون . ممكن نكون قاعدين على شرب قهوة وأقول لك والله انت بتعز علي وأنا بأعز عليك ونفسي أعطي بنتي لابنك . فمن العزة التي بيننا تقول لي : خذها هدية ماوراها حزية . ممكن تجيب لي عشر معزات وخمس نعاج وكفى . مرت فترة لم تكن تعرف فيها قاضي الشرع . إنما على سنة الله ورسوله وهذه هي القاعدة عندنا اليوم . كل الاختلاف هو أن قاضي الشرع الآن يكتب على ورق أبيض . أبي كان قاضي الشرع في عشيرتنا . وكانت المرأة حين تختلف مع زوجها تحضر لأبي . يقول لها شو بدك ؟ تقول أنا داخله وبدي هذا الرجل مش رافضاه . لكن ينقصني طعام وما عندي شي ألبسه . بدي حقوقي . كانت حقوق المرأة عندنا هي حمار وكلب و١٠ معزات وعجل وسكر وشاي وبيت شعر . كان أبي ينادي الزوج ، إذا استجاب كان بها ، إذا رفض يطلقها منه ، كان حكم القاضي عندنا أشد من حكم المحكمة ، ممكن المحكمة تأجل ، لكن عندنا كان الحكم فورا . في القديم لم يكن هناك مهر ، ولا مؤجل . كانت البنت لما يجبروها على الزواج من شخص لا تريده تشرد عنه يعني تهرب منه . ولو تريد شخصا وليس عنده شيء إنما يكون رجلا شهما تأخذه . وكان الشاب يخطف البنت خطفا . ولكن الخاطف عندما يهرب بها يكون معه شخص آخر . يعني لو أنت خطفت بنتي وأخذتها لوحدك ممكن أذبحك . إنما إذا خطفتها ومعك آخر يشفع لك ، فهو يعتبر حارسا عليها وأنك لم تمسها ، وذلك طبعا صيانة للعرض . . ! »

في وادي رم

نسمع أشياء أخرى عن تقاليد البادية حين تذهب إلى « وادي رم » .

وادي رم من أكبر الأودية في جنوب بادية الأردن ، وتمثل فيه أروع المظاهر الجيولوجية المتكونة من صخور رائعة شاهقة . الميزة الرئيسية هنا أن كل شيء فيها من صنع الطبيعة ، ولا دخل للانسان في تكوين لوحاتها الطبيعية ، مناظر الجبال والصخور تثير العجب ، فالصخور فيها مواد معدنية مختلفة تشكل ألوانا متباينة . فعند الشروق وقبيل الغروب تنعكس أشعة الشمس على الجبال فتتباين الألوان على الصخور فتراها مرة سوداء ، ومرة أخرى بنية ، ومرة فاتحة ومرة زهرية . فالصور التي تلتقط لسفح الجبل تختلف ألوانها حسب اختلاف أوقات النهار .

الوادي جبل فريد في جماله يملأ النفس بالاعجاب ، ويبعث فيها المهابة والجلال ، وزيارته في الواقع تجربة مثيرة .

كان أحد أهدافنا في وادي رم أن نلتقي بالشيخ عتيق أبو ربعين من عشيرة الزلابية . فعشيرته ما تزال تعيش بالاسلوب البدوي لم تغير من طبيعتها إلا القليل ، وهو يأبى إلا أن يعيش متنقلا في صحراء الوادي ومعه بيت شعره وأسرته وماشيته .

مضت بنا السيارة الجيب يقودها مرافقنا السياحي (جمال أصحاب) عبر تلال وكثبان تغطي أرضيتها حجارة صوانية وأودية مليئةبالأشجار الصحراوية . في النهاية نجد أنفسنا في مواجهة حائط جبلي يمتد يمينا ويسارا نصبت تحت سفحه خيمة سوداء ترعى حولها الماشية . هنا نلتقي البدوي الشيخ بأعوامه الثمانين التي يحملها فوق كتفيه . استقبلنا وأجلسنا على الطنافس الممتدة داخل بيت الشعر والنار مشتعلة في وسطه ، وفوقها دلاية القهوة . كان الشيخ يقلب الأحطاب المشتعلة بملعقة طويلة قال حين سألناه عنها : هذه يد المحماسة التي نحمص بها البن على النار ، وهي نفسها ما كان يستخدمه « المبشع » حين يجري الاحتكام الى النار بما يسمى « البشعة » . فحين تكون القضية أمام القاضي غامضة ولا يعترف المتهم بارتكاب جرمه يحتكم الى « البشعة » . وحين نسأله كيف كانت تجري عملية البشعة يجيب : يجلس المبشع على الأرض بجانب النار ويضع يد المحماسة المسطح في قلب الجمر ثم يجلس المتهم بجانبه بينما يجلس بقية الخصوم والشهود يشاهدون ما يجري .

ويستغرق تسخين الملعقة وقتا طويلا بينما يواصل المبشع استخراجها وهي حمراء ثم ينظر إليها ويقلبها ثم يضعها ثانية في النار . ويتم هذا كله أمام ناظري المتهم ، وخلال هذه الفترة فإن المبشع يتحدث باستمرار طالبا إلى المتهم إظهار حقيقة الجريمة التي ارتكبها مبينا له مدى خطورة حرق النار ، بينما يراقب المبشع ملامح وجه المتهم أثناء ذلك . وأخيرا تصبح الملعقة جاهزة ، فيطلب من المتهم أن يمد لسانه حيث يقوم المبشع بوضعها على اللسان بسرعة ثم ينتظر بضع دقائق يطلب بعدها من المتهم أن يمد لسانه ثانية أمام الناس . وإذا ظهرت البثور على اللسان فإن ذلك يعني تجريم المتهم . وإذا بقي لسانه سليما فذلك يعني براءته . ومن الناحية العملية فإن المتهمين يفقدون أعصابهم أثناء رؤيتهم للملعقة فيعترفون .

أما في ضوء المعطيات العصرية وحركات التنوير فإن ملعقة « البشعة » لم تعد مستخدمةبشكل عام بين العشائر الاردنية.وعلى الرغم من أن القانون الصادر عام ١٩٧٣ قد منع اللجوء الى البشعة ، فإن بعض قضاة العشائر والبدو قد استمروا بالاعتماد عليها واللجوء اليها عندما تقتضي الضرورة .

يارب بدّله

أراد مرافقنا ونحن نمضي أن يخفف عنا وعورة الطريق في مسيرة العودة الطويلة ، فراح يستعيد حكايات «العزيزي» عن الزواج والنساء وقال : هل سمعتم عن حكاية « يارب بدّله » ؟ إنها عبارة معروفة عند النساء في البادية ، فإذا تمنت المرأة أن تتخلص من زوجها من غير أن تنكشف أمنيتها أو يعلن أنها ناشز ، لبست ثوبها عند النوم مقلوبا وراحت تردد في سرها « يارب بدّله » وتظل تفعل ذلك أربعين ليلة متتالية ، وتلقى كل ليلة في حفرة تخفيها حصاة الى أن تتم الأربعين حصاة . وتقول النساء إن الذي يحدث هو واحدة من اثنتين : أن يموت الزوج ، أو تطلق الزوجة . . !

ومن بين الحكايات التي يروونها أن المرأة المحبة إذا أرادت إرغام شخص ما على حبها تلجأ الى امرأة وصلت إلى سن اليأس فتأخذ رأس هدهد ودجاجة سوداء وشمعتين صغيرتين وتذهب ليلا الى قبر ميت دفن حديثا ، فتنبش قبره وتدفن الدجاجة السوداء ورأس الهدهد وخمس ريشات من حواف جناحي الهدهد وتشعل الشمعتين في منخري الميت وهي تقول « فلان يحب فلانه » ، وتكرر ذلك في جلسة واحدة أربعين مرة ثم تسوي القبر كما كان . وقد سمعت أن رجلا مات له أخ يحبه ، ولشدة حزنه لم يستطع أن ينام فذهب ليقضي ليله ساهرا عند قبر أخيه ، وعندما اقترب شاهد نورا قريبا من القبر ، فلما قصده أحست المرأة بافتضاح أمرها ، فنهضت من عند القبر ونفضت شعرها وهي تصرخ صراخا شديدا ، ولشدة ما اعترى الرجل من الرعب والذهول ، قضى بقية حياته مجنونا ، وأصبح يعرف عند البدو بمجنون البادية . □



عن النسور والعقبان

بقلم : الدكتور محمد رشاد الطوبي*

مع أن النسور والعقبان ترد أسماؤ ها في كثير من الأحيان مرتبطة بعضها ببعض ، إلا أن هناك اختلافات واضحة فيما يتعلق بطبائع تلك الطيور أو طريقة معيشتها ، كما أن هناك أيضا بعض اللبس وعدم الوضوح فيما هو متداول بين عامة الناس عن تلك الطيور ، فقد يقال مثلا عن الطيارين البواسل الذين يخوضون غمار الحرب دفاعا عن أوطانهم إنهم « نسور الجو » . والأصوب من ذلك أن يقال عنهم إنهم « عقبان الجو » ، وهو ما سوف يظهر بوضوح في هذا المقال .

* استاذ علم الحيوان بكلية العلوم ـ جامعة القاهرة ـ عضو مجلس العلوم الأساسية بأكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا



العقاب النسوري الذي يغتذي على الأسماك

ينقض على فريسته من الزواحف في سرعة مذهلة

الصقر حاد الإبصار، سريع الطيران، مخالبه حادة ملتوية، ومنقاره ينتهي بصنارة حادة عمودية.

العقبان هي أقوى الطيور وأكثرها شجاعة على الاطلاق ، وهي تتغذى على الحيوانات التي تنقض عليها في سرعة خاطفة من الجو مباشرة ، ولا يقتصر غذاؤها على الحيوانات الوديعة كالماعز والخراف والغزلان ، بل يمتد أيضا إلى بعض الحيوانات المفترسة مثل الكلاب البرية والذئاب والثعالب وبنات آوى وغيرها ، وقد تنشب بينها معارك طاحنة ، وعندئذ تلجأ العقبان إلى فقء عيون تلك الحيوانات إذا كانت المعركة في غير صالحها ، وذلك يكون تمهيدا للتغلب عليها وكسب المعركة ، وهي لا تتغذى على الفرائس التي تصيدها في أماكن صيدها ، بل تحملها بين مخالبها لتطير بها إلى أماكن أخرى آمنة ، ثم تبدأ في التهامها . ولا يفوتني التنويه بأن من بين ضحايا تلك الطيور بعض الأطفال الذين تركتهم أمهاتهم في الخلاء ، وقد سجلت عدة حالات من هذا القبيل وخصوصا في الهند .

وتمتاز العقبان بحدة الإبصار ، وبمخالب طويلة حادة ومدببة ، كما أن مناقيرها غليظة ملتوية ، وتنتهي بصنارة عمودية حادة ، ومن أهم صفاتها الخارجية أن الرأس والعنق مغطيان بالريش ، وهناك عدة أنواع من العقبان منها العقبان الذهبية وملك العقبان والعقبان السفعاء الكبرى والعقبان المسيرة وغيرها .

كاسر العظام

أما النسور (VULTURES) فهي طيور مسالمة ، لا تهاجم الحيوانات أو الطيور الأخرى ، ولكنها تقنع بأجساد الحيوانات الميتة التي تعد غذاء أساسيًا لها ، ولذلك فهي في الواقع من « آكلات الجيف » ، فإذا وقعت على جسد حيوان ميت فإنها تستمر في نهشه حتى تمتلىء حوصلتها الكبيرة ، فلا تكاد تستطيع الطيران ، وهي تتمتع بإبصار حاد ، لكن مخالبها ضعيفة قليلة التقوس ، تنتهي بأطراف غير مدببة ، وهي أكبر حجماً من العقبان ، وتختلف عنها في أن الرأس والعنق عاريان من الريش غالبا أو يغطيهما زغب دقيق ، وتوجد منها أنواع كثيرة ، نذكر منها الرخمة المصرية (ويطلق عليها أحيانا اسم النسر المصري) ، والنسر الأسمر والنسر ذا الأذن ، والنسر الأسود والنسر ذا اللقن (كاسر العظام) .

ومما يدعو إلى الدهشة والإعجاب أن كثيرا من الكتاب العرب الأقدمين الذين اهتموا بدراسة الحيوان مثل الجاحظ والدميري والقزويني وغيرهم ، كانوا على معرفة طيبة بالاختلافات الموجودة بين النسور والعقبان ، فيما يتعلق بالصفات الخارجية ، والطبائع السائدة في كل منها ، ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما ورد في كتاب الدميري « حياة الحيوان الكبرى » عن « النسر » كنموذج لتلك المجموعة من الطيور التي سبق ذكرها ، وكانت الأوصاف التي أوردها الدميري كما يلي :

ـ « النسر طائر معروف ، وسميّ نسرا لأنه ينسر الشيء ويبتلعه ، والنسر ذو منسر ، وليس بذي مخلب ، وإنما له أظفار حداد كالمخالب ، وهو من أطول الطير عمرا ، ولذا قالت العرب : « أعمر من نسر » . وهو حاد البصر ، يرى الجيفة من أربعمائة فرسخ ، وهو أشد الطير طيرانا ، وأقواها جناحا ، وهو شره نهم رغيب ، إذا وقع على جيفة امتلأ منها ، ولم يستطع الطيران حتى يثب وثبات يرفع بها نفسه طبقة بعد طبقة في الهواء حتى يدخل تحت الريح ، وليس في سباع الطير أكبر منه جثة » .

وهو وصف لا يحتاج إلى شرح أو تعليق ، أما ما أورده الدميري في كتابه عن العقاب فهو كما يلي :

« العقاب طائر معروف ، وقال في الكامل العقاب سيد الطيور ، والنسر عريفها ، والعقاب حاد البصر ، ولذلك قالت العرب : « أبصر من عقاب » ، كما قيل أيضا « أمنع من عقاب الجو » ، والعقاب من ذوي المخالب ، وإذا صادت شيئا لا تحمله على الفور إلى مكانها ، بل تنقله من موضع إلى موضع ، ولا تصعد إلا على الأماكن المرتفعة ، وهي أشد الجوارح حرارة ، وأقواها حركة ، وأيبسها مزاجا ، وهي خفيفة الجناح سريعة الطيران ، تتغدى بالعراق ، وتتعشى باليمن ، ومن شأنها أن جناحها لا يزال يخفق . قال عمرو بن حزام :

(لقد تركت عفراء قلبي كأنه
جناح عقاب دائم الخفقان) » .

وكان العرب كثيرا ما يطلقون على العقاب كلمة العنقاء ، وهو ذلك الطائر الأسطوري الذي كان محورا لكثير من القصص والخرافات ، ومن ذلك ـ



رتبة الصقريات تسعى للحصول على غذائها أثناء النهار ، وهي تشترك في صفاتها وطباعها مع العقبان ، ولكنها أصغر منها حجما .

على سبيل المثال ـ ما ورد في شعر أبي العلاء المعري :

(أرى العنقاء تكبر أن تصادا
فعاند من تطيق له عنادا)

كما ذكر العقاب أيضا في شعرنا المعاصر ، ومن ذلك مثلا بيت الشعر الذي بدأ به شاعرنا الكبير أحمد شوقي إحدى قصائده الرائعة ، وتلك هي القصيدة التي أنشدها احتفالا بأول رائد للطيران في الشرق العربي ، حيث يقول فيها :

(أعقابٌ في سماء الجو لاح
أم سحاب فر من هوج الرياح؟)

وقد جاء في « كتاب الحيوان » للجاحظ أن العقاب يطلق عليه أيضا اسم « العنقاء المُغْرِب » لأنه يجيء من مكان بعيد ، ومن الأقاصيص التي ورد ذكرها في هذا الكتاب الشامل ، أنه قيل لأعرابي : « لو خيرك الله أن تكون شيئا من الحيوان أيّ شيء كنت تتمنى أن تكون ؟ » قال الأعرابي : « عقاب » ، قيل « ولم تمنيت ذلك ؟ » قال : « لأنها تبيت حيث لا ينالها سبع ذو أربع ، وتحيد عنها سباع الطير » .

● من النسور والعقبان

وقال أعرابي آخر : « أما علمت أن الشدة والشجاعة ، والبأس والقوة من الحيوان في ثلاثة أصناف : العقاب في الهواء ، والتمساح في ساكن الماء ، والأسد في مساكن الفياض » .

الصقريات

وتنتمي كل من العقبان والنسور على اختلاف أنواعها إلى رتبة كبيرة يطلق عليها علماء الحيوان اسم « رتبة الصقريات » (Falconiformes) . وتحتوي تلك الرتبة بالاضافة إلى النسور والعقبان على جميع الطيور المفترسة التي تسعى للحصول على غذائها أثناء النهار ، والتي يطلق عليها اسم « جوارح الطير » ، ومنها الصقور العديدة كالبازي والباشق والبيدق والدراع والشاهين والحر وصقر الغزال (وقد أطلق عليه هذا الاسم لاشتهاره بصيد الغزلان حيث يستخدمه البدو في هذا الغرض) ، ومن الصقريات أيضا الحدأ المختلفة كالحدأة المصرية التي هي من طيور مصر الأوابد ، والحدأة السوداء ، والحدأة الحمراء وهما تهاجران في موسم الشتاء من شمال أوربا إلى كثير من بلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط .

وتشترك تلك الصقور والحدأ في كثير من صفاتها وطبائعها مع العقبان ، ولكنها أصغر منها حجما ، فهي-على سبيل المثال- حادة الإبصار ، سريعة الطيران ، ولها مخالب حادة ملتوية ، كما أن المنقار ينتهي بصنارة حادة عمودية ، وأرجلها مكسوة بالريش حتى الأصابع ، وهي عادة لا تعيش في جماعات ، بل تكون فيما بينها أزواجا متآلفة ، وقد تستمر العشرة بين الذكر والأنثى طوال الحياة .

ومن الصقريات أيضا ما يعرف « بالعقاب المنسوري » ، وهي تمتاز عن غيرها من طيور تلك الرتبة بأنها تعيش بالقرب من سواحل البحار ، وتتغذى على ما تصيده من الأسماك ، وهي تستخدم في عملية الصيد . أقدامها المجهزة بأشواك كبيرة حادة لا تستطيع الأسماك الإفلات منها على الاطلاق ، وفي بعض الأحيان لا تستطيع تلك الطيور تخليص مخالبها من جسم السمكة إلا بصعوبة فائقة ، فإذا كانت السمكة كبيرة الحجم فربما سحبت الطائر



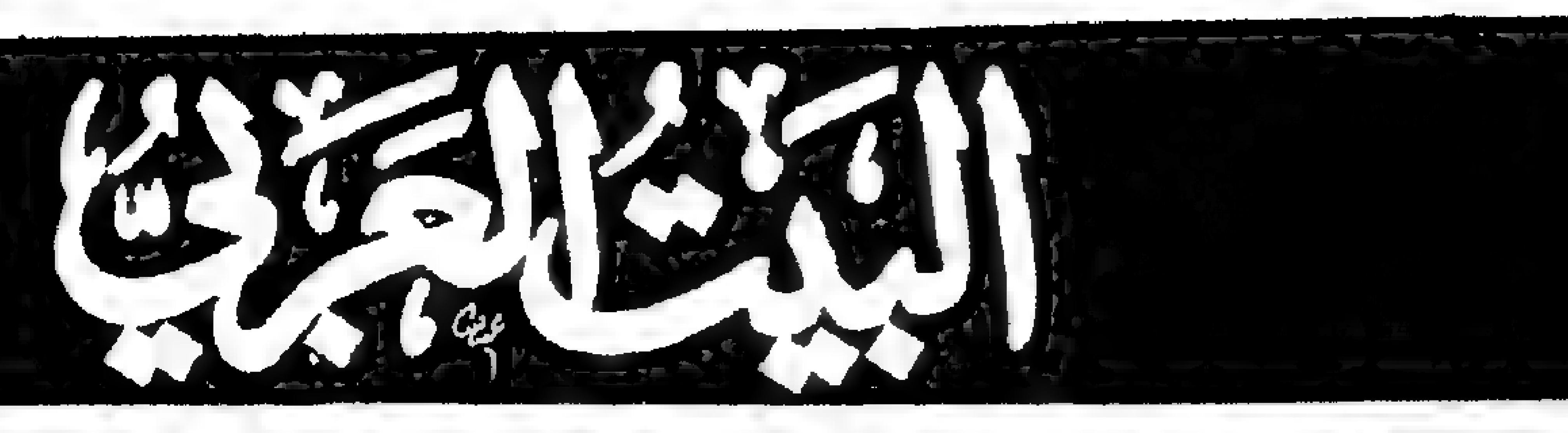
العقاب الذهبي طائرا في السماء ومعه صيده

معها إلى الأعماق ، حيث تموت غرقا ويكون مصيره الهلاك

الأنواع الكبيرة من « الصقريات كالنسور والعقبان والرخم تبني لنفسها أعشاشا كبيرة الحجم فوق قمم الجبال أو الأشجار العالية ، حتى تكون في مأمن من الهجوم عليها ، واختطاف البيض منها أما الطيور الصغيرة فتقنع بالأماكن الآمنة بين الصخور ، أو في تجويفات الأشجار ، وأحيانا فوق الأرض مباشرة بين النباتات المتشابكة في الغابات والأدغال ، ويتم بناء تلك الأعشاش من الأعواد الجافة وفروع الأشجار وغيرها ، ثم تقوم الطيور بعد ذلك بتبطينها من الداخل بالقش أو الصوف أو الشعر أو الريش لتكون مهدا لينا

وتضع الأنثى في معظم الأنواع بيضة واحدة أو بيضتين ، ولكن هناك أنواعا قليلة تضع عددا أكبر من ذلك ، يصل أحيانا إلى ثماني بيضات ، وتستمر حضانة البيض فترة تتراوح بين ٣ - ٦ أسابيع حسب النوع ، وبعد الفقس لا تخرج الأفراخ الصغيرة من العش ، بل تبقى بداخله فترة طويلة نسبيا ، وقد تصل إلى أربعة أشهر ، تقوم الطيور الكبيرة خلالها بإطعامها والحفاظ عليها حتى تكبر ويشتد عودها

وتعد بعض الأنواع من تلك الطيور كالنسور والعقبان من الحيوانات المعمرة ، فقد يمتد عمر الفرد منها إلى مائة عام ، وقد سجلت فعلا بعض الحالات في حدائق الحيوان وصل عمر الطائر فيها إلى هذه السن ، وهو رقم كبير بالنسبة لأعمار الطيور الأخرى □



مجلة الأسرة والمجتمع

دور الأهل في اختيار المهنة المناسبة لأولادهم



دور الأهل في اختيار المهنة المناسبة لأولادهم

بقلم : الدكتورة هدى طحلاوي*

هل ينشأ أولادنا ويكبرون وهم على معرفة بإمكانياتهم الذهنية والعملية بحيث يكونون قادرين على اختيار مهنهم بأنفسهم ؟ أم أنهم يظلون منذ سني المدرسة الابتدائية وحتى مرحلة متقدمة من العمر بحاجة لتوجيه وإرشادات الأهل ؟ المقال التالي محاولة للإجابة عن هذين التساؤلين المهمين .

إن عصرنا الحاضر هو عصر العلم بكل ما فيه من اكتشافات ومخترعات حديثة ، أدهشت الناس وبهرت عيونهم فافتتنوا بمنتجاته واختراعاته ، وركضوا وراءها بكل ما يملكون من قوة ، تاركين خلف ظهورهم كل ما خلفته عصور التخلف والجهل الماضية ، وسعى الناس حثيثاً إلى ما فقدوه هم ليجدوا العوض لهم بأولادهم فدفعوا بهم دفعا إلى العلم وتخصصاته ، بجميع درجاته ظنا منهم أنهم بذلك ينالون أربهم ورغباتهم ، معتبرين أولادهم عجينة طرية ، يستطيعون صبها في القالب الذي يريدون حتى تجف وتأخذ الشكل المطلوب . فمن أراد لولده مهنة الطب حمله على دراسة الطب بشتى الوسائل ، وإن كان كارها لهذه المهنة ، وكذلك يختار له ما شاء من المهن .

ولكن النتيجة المخيبة للآمال صفعت الجميع ، وكانت الكارثة ، وهي فشل غالبية أبناء هذا الجيل ، وصار في مجتمعنا جيل من

* طبيبة وكاتبة من القطر العربي السورى

الشباب يغرق في الكسل والبطالة حتى أذنيه فهل من منقذ ؟!

تعالوا معنا أيها الآباء نستعرض معا تطور الانسان منذ الطفولة وحتى الشيخوخة ، ونرى كيف أن لكل إنسان طباعاً خاصة وشخصية مميزة له ، وكل شخص مقتنع تماما بطريقته في الحياة وبآرائه ، ولا يسير في طريق إلا برغبته وأهوائه.

نحن وأولادنا

تعالوا نتعرف على حقيقة أدوارنا تجاه هؤلاء الأشخاص الذين هم قسمتنا وحصتنا في هذه الحياة ، أولادنا ، ماذا نقدم لهم ؟ وإلى أي حد يحق لنا التدخل في حياتهم ؟

لا شك أن حنان الأبوين والمربين ضروري لنمو الطفل بجسده وروحه قلبا وقالبا ، ولا غنى للأطفال عنه . إذ يولد الطفل ضعيفا ، لا يعي ولا يفهم شيئا مما يفهمه الانسان البالغ ، وهو غير قادر على تأمين ضرورات حياته إذ لا بد من مرب مساعد له في هذه المرحلة حتى تقوى مداركه ، ويشتد عوده ، وهنا يجب أن نفهم أننا لسنا نحن الذين نعلمه كل شيء ، ونقوي جسده ونساعده بإرادتنا . ولكن من الضروري أن نعرف أن الطفل إذا قدمت له المساعدة كي يحيا فإن تطوره سيمر بمراحل لا بد منها ، ولا نستطيع نحن التدخل فيها . وهذه المراحل متقاربة بين كل الأطفال ، ودرست من قبل علماء متخصصين ، وضعوا لها جداول خاصة للمقارنة بين الطفل الطبيعي وغيره . فمثلا هناك جداول خاصة لتطور الأطفال الطبيعيين من حيث الوزن والطول ومحيط الرأس ومحيط الصدر ، وكذلك جداول للتسنين (لمواعيد بروز الأسنان) وجداول للنطق ، وعدد الكلمات في مختلف مراحل الطفولة الأولى ، وهكذا نستطيع أن ننظم جداول كثيرة لمعرفة التطور الروحي والحركي ، ومعدل الذكاء عند الطفل ؛ وكل هذه الدراسات مبنية على أن الإنسان خلق هكذا ، يتطور وينمو بهذا الأسلوب رغم أنوفنا . فهل سمع أحدنا أن عند بعض الآباء طريقة في التربية تجعل الطفل يتكلم فيها بعمر شهر ، ويمشي بعمر شهرين ، ويصبح رجلا بعمر سنة ؟! .

هنا نقف لحظة متفقين على أن وظيفة الأهل والمربين في البداية هي مراقبة تطور نمو الطفل وبذل ما في وسعهم من رعاية وحنان لتغذية جسمه وروحه ولزرع بذور الأخلاق التي سيتسم بها مستقبلا ، وثمار هذه البذور التي نزرعها تتأثر في المستقبل بعدة عوامل : بالتربة الموجودة أصلا في ذات الطفل ، وبالسقاية والرعاية المقدمتين من الأهل ، ثم بالعوامل المحيطية في مجتمع الطفل ثالثا .

وخير مثال وشاهد على ما سبق هو أنه في الأسرة الواحدة لا يوجد ولد كأخيه أبدا مهما حرص الأهل على مساواة أولادهم في التربية .

دورنا كآباء

والآن ، لنتابع المسير في ملاحظة تطور الطفل ودورنا فيه كآباء . عندما يتجاوز الطفل مرحلة الطفولة الأولى ومرحلة ما قبل المدرسة ، أي في السنة الخامسة من عمره تقريبا ، فإننا نكون أمام انسان أصبح يميز بين الخير والشر ، ويقضي حوائجه بنفسه ويمارس هواياته المحببة ، ويفصح عما بداخله ، وماذا يحب وماذا يكره ، ففي هذه المرحلة يحتاج الطفل للقيادة والتوجيه إلى الطريق الصواب ، ويتقبل القيادة ، ولكنه يرغب بأسلوب مريح ومقنع ، إذ يكثر من الأسئلة ويحاول تقليد الآباء وإقناع نفسه بالسبيل الذي سيسلكه ضمن إطاره الصغير وعالمه المحدد ، وفي

هذه المرحلة تبدأ قابليته وقدرته على التعلم ، ولكن معدل الذكاء يختلف بين طفل وآخر ، ويجب إلحاقه بمدرسة للتعليم تدرب حافظته بالأغاني والأناشيد ، وعد الأرقام وكتابة أحرف الأبجدية ، واكتساب التأقلم مع الجماعة . ويجب على الأهل الاشراف على ما يتعلمه الطفل وتثبيت معلوماته ، وتنميتها كدور مساعد للمدرسة ، وهنا يبدأ دور التمايز بين الأطفال المجدين منهم والمقصرين والكسالى . وظاهرة الكسل هذه يجب أخذها بعين الاعتبار لمعرفة أسبابها ، فإن كان السبب ضعف معدل الذكاء عند الطفل وجبت مراعاته بشكل خاص ، وتعليمه ببطء وتكرار أكثر ، وفرزه مع أمثاله عن الأطفال المجدين حتى لا يكونوا عائقا لهم ولمدرسيهم ، وإن كان سبب كسلهم قلة العناية والاهتمام بهم وجب المزيد من الاهتمام ، وخاصة في المراحل الأولى للتعليم حتى لا يعتاد الطفل الكسل . فإن التشجيع والعناية يقعان على عاتق المدرسة والبيت معا .

عند مفترق الطرق

في مرحلة المدرسة الأولى التي تسمى المرحلة الابتدائية ، يتلقى الأطفال جميع العلوم الأساسية الضرورية في حياتنا العملية ، كالقراءة والكتابة والحساب الضروري فقط في إدارة شؤوننا ، وكذلك التاريخ الضروري عن مجتمعنا خاصة والعالم من حولنا بشكل عام ، وجغرافية القطر الذي نسكنه تفصيلا، وجغرافية العالم موجزا ، والقانون الذي يحكمنا : ماذا يحرم وماذا يحلل ؟ والحقوق والواجبات المشروعة فيه ! وبهذا يكون كل فرد في المجتمع مؤهلا لأن يحيا حياة واعية وناجحة مهما كان عمله مستقبلا .

أما عند انتهاء المرحلة الابتدائية فيتم الوصول إلى المفترق الرئيسي . مفترق كبير تتشعب منه الطرق . إنه مركز الانطلاق الذي يمكن تشبيهه بمركز الدائرة والطريق إلى محيطها ، فكل الخطوط المستقيمة تصل مركزها بمحيطها وما أكثرها ولا يمكن حصرها .

عند مفترق الطرق هذا يجب التفكير كثيرا قبل سلوك أي طريق ، لأنه من الصعب التراجع من منتصف الطريق لسلوك طريق غيره . هنا يجب على الأهل أن يكونوا أذكياء وواعين للتنبؤ بالطريق المناسب لولدهم ، ويجب أن يشاركوه الاختيار فلا يختارون له وحدهم ، ولا يتركونه يسير كيف يشاء ، لأنه لم يبلغ سن الرشد بعد ، كما انه قليل الخبرة في تدبير شؤونه بنفسه ، ولكنه يعبر عما يحب ، ويبدي ارتياحه وانسجامه لبعض الأعمال ، وبعض التخصصات ، وما على الأهل إلا فهم هذه الأمور وتحقيقها لولدهم . ولكن بعد تشذيبها وتنظيمها بإطارها الجميل الصحيح ، دون النظر إلى نوع اختيار ولدهم ، هل أعجبهم أم لا ، طالما أن عمل ابنهم في المستقبل سيكون ذا فائدة للمجتمع ، ويعينه على كسب قوته . وهذا النوع الهادف من العمل هو الذي يتدخل فيه الآباء لإقناع أولادهم بالعمل والقيمة الاجتماعية . ويجب اقناع الطفل في كل خطوة يخطوها ، فهو إنسان ، والانسان عاقل بالفطرة . الحجة والعقل عنده هما الأساس في كل شيء ، حتى ولو كان صغيرا جدا . فإذا كان للطفل عقله وإدراكه اللذان يأبيان إلا أن يلمس المدفاة الساخنة ، حتى يعرف لماذا يطلب أهله منه الابتعاد عنها ، فكيف بمن هم أكبر عقلا وسنا ؟ لذا أولا : يجب أن يكون العمل مفيدا ، وثانيا : يجب تحقيق النجاح في هذا العمل وتوفير السبل اللازمة لذلك ، وللأهل دور كبير في هذا ، وذلك بحض ولدهم على التفاني والاخلاص في العمل ، وتعليمه تنظيم أوقات عمله وراحته . ويجب ألا يعمل فوق طاقته ، وأن يستفيد من

أوقات الراحة ، ويترك حرا في ممارسة ما يحب من الهوايات خارج أوقات العمل ، إذ يجب أن يكون لكل انسان عمل نافع وهواية يتسل بها في أوقات الفراغ ، وليس من الضروري أن تكون الهواية ذات فائدة للمجتمع ، المهم أن لا تكون ضارة له .أن تسر صاحبها .

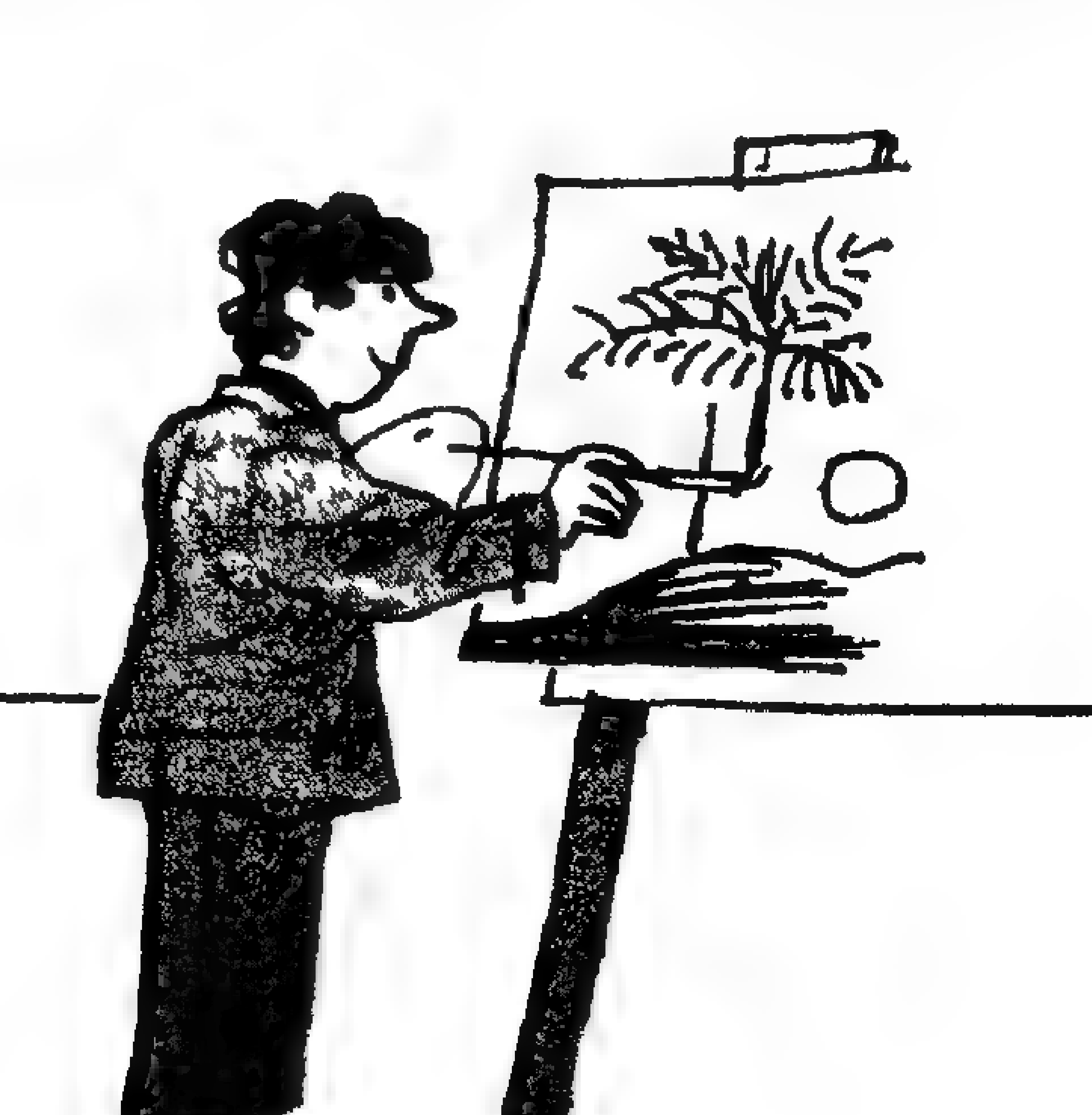
حب العلم وتقديسه

إلى هنا نستطيع القول : إنه مهما كان العمل الذي سيقوم به كل فرد وصل هذه المرحلة في المجتمع ، فإن ما تلقاه من علوم أساسية تكفي لأن يحيا حياة طيبة ولا يحتاج للمزيد من التفاصيل في العلوم ، سواء كانت أدبية أو علمية ، إلا الذين يرغبون بهذا المزيد ويبدون الشغف في حب العلم وزيادة الاطلاع ، هؤلاء يجب تشجيعهم بتوفير الجو الملائم لهم للدراسة ، ومحاولة إجابتهم على اسئلتهم ، وجلب ما يلزمهم من كتب يحبون قراءتها ، ودفاتر يسطرون عليها انطباعاتهم وأفكارهم ، ونحاول تعريفهم على أهل العلم ، ليتبادلوا معهم الآراء والأفكار والكتب ، وهذا لا يوجد عند كل البشر .

حب العلم لا يفهمه إلا المتعلمون بإرادتهم وهوايتهم ، وهم حفنة قليلة من البشر ، ومتطلبات الحياة تقتضي وجود مثل هؤلاء العلماء ، ولكن ليس من الضروري أن يكون كل أفراد المجتمع علماء ، لأنهم أولا : لن يكونوا هكذا نظراً لاختلاف مستوى الأشخاص . وثانيا لأن المجتمع لا يستطيع العيش أبدا إذا كان هذا شأنه ، ولا بد من وجود الاختصاصات جميعها ، لتأمين متطلبات الحياة والعيش الرغيد ، المهندس ، التاجر ، العامل . وأكبر نسبة يحتاجها المجتمع هي نسبة العمال ، لتعدد الأعمال الضرورية التي يجب إنجازها لتأمين المعيشة اللائقة للمجتمع ، من بناء المنازل وتنظيف الطرقات ، وتأمين المأكل والملبس بكل أنواعه ، وتأمين المواصلات المريحة في تنقلاتنا ، وتوفير الماء والدواء الضروري ، وأكبر مثال على ذلك تحضير رغيف الخبز حتى في عصر الآلة . كما يقال : إن كثيراً من العمال يعملون ويتعاونون لإنجاز الخبز فقط فكيف ببقية متطلبات الحياة !

تمايز البشر

ومن الجدير بالذكر هنا ، أنه لا بد من وجود تمايز بين البشر ، ليس تمايزا عرقيا أو دينيا . وإنما تمايز الإنسان المبدع ، والطموح المتقن للعمل عن غيره . ولا بد أن يصبح أعلى شأنا من بعض أفراد المجتمع حوله ، وهذا من سنة الكون وفطرته ، إذ لا بد في المجتمع من وجود الرئيس والمرءوس ، الغني والفقير ، العالم والجاهل ، وخلاصة القول : إن دور الأهل يتحدد في البداية بالإشراف على تعليم أولادهم العلوم الأساسية الضرورية في الحياة العملية ، والتي سبق ذكرها آنفاً ، ثم في تشجيع أولادهم على المضي قدما في العمل الذي يحبون والذي سيحمل الخير لهم وللمجتمع : فإن كانت الاستزادة من التعليم واللحاق بركب العلماء تحقق ذلك بالاختصاص الذي يحب ، وإن كان عملا نافعا للمجتمع بدأه منذ الصغر عند انتهاء تعليمه الأساسي ، لأنه كان في مدرسته أكثر استعدادا لتعلم المهن وأكثر احتمالا وصبرا لتنفيذ متطلبات المهنة ، فإنها تشب وتكبر معه ليطرحها مستقبلا في مجتمعه . □



التشبيهات والألعاب التربوية

تقنية مهملة في التربية العربية

بقلم : الدكتور أنور طاهر رضا

يقدم الكاتب عرضا لتقنية مستخدمة في الغرب بشكل متطور ، هي تقنية استخدام التشبيهات والألعاب في مجال التربية ، ويدعو التربويين العرب إلى الاستفادة من هذه التقنية وتطويرها .

ما تزال التربية والتعليم في الوطن العربي مبنيين على أسس تقليدية قديمة . تمتاز التربية هذه باعتمادها على العنصر الأساسي فيه ، وهو المعلم الذي يلجأ عادة الى إلقاء الدرس مستعينا بالطباشير والكلام ، وببعض الصور البسيطة التي تزول شيئا فشيئا بمرور المراحل الدراسية ، حتى اذا ما وصلنا الى التعليم الجامعي فإنه يقتصر في كثير من الأحيان على المحاضرة المجردة ، التي ربما لا يسمعها أحد ، أما مشاركات الطلبة في هذا النوع من التعليم فتكون على أقلها في العادة .

لقد أثيرت تساؤلات كثيرة حول جدوى تعليم يكون فيه دور الطلبة سلبيا . وقد حصلت تحولات كبيرة في التربية في الغرب ، ولعل أهم هذه التحولات الانتقال من الطرائق التي تتمركز حول المعلم الى تلك الطرائق التي تتمركز حول الطالب . تكون مشاركات الطلبة في مثل هذا النوع من التعليم أساسية ، حتى يساير التعليم ميولهم واتجاهاتهم ، ويتصف بالفردية التي تتماشى مع قابلياتهم الخاصة .

تعريف وتمييز :

إن التقنيات التربوية التي تتعامل مع كل ميدان من ميادين التربية إنما تستهدف أصلا التصميم والتقييم والتطوير للمناهج التعليمية ، وخبرات التعلم ، وحل ما يتصل بهما من

المشكلات التي تنبع من التطبيق . وهي بمحاولاتها هذه تحسن عملية التدريس ، وتتبنى الابتكار ، وتخلص الطلبة من الوتيرة المتكررة التي تسير عليها طريقة الإلقاء . إن التشبيهات والألعاب التربوية ميدان من ميادين التقنيات التربوية التي تعد بحد ذاتها تجديدا في ميدان التربية .

لقد لقيت التشبيهات والألعاب التربوية اهتماما كبيرا في الستينيات والسبعينيات من هذا القرن في البلدان المتقدمة . فماذا يقصد بالتشبيهات والألعاب التربوية ؟ وما أوجه الخلاف والتشابه بينهما ؟ وماذا يمكن أن يحقق بواسطتهما ؟ ولماذا كل هذا التأكيد عليهما ؟

ليس من السهولة أن نرسم حدودا فاصلة ، ونضع قوانين ومباديء للفصل بين التشبيهات والألعاب التربوية ، طالما أن أنواعا كثيرة منهما تشترك في عناصر مهمة وعديدة . تصمم التشبيهات والألعاب التربوية عادة لتدريس مادة يمكن تدريسها بطريقة أخرى ، على أن دوافعها أقل .

الألعاب التربوية :

يعرف « ابت » الألعاب التربوية بالطريقة العامة التالية : « أي نوع من المنافسة ، أو المناقشة ، أو حتى المباراة التي تجري بين الطلبة اللاعبين ، بناء على شروط وقوانين ، من أجل الوصول إلى هدف معين ، وتتقرر نتائجها بمهارات عقلية أو جسمية أو حتى الحظ أحيانا » .

يتبين من التعريف السابق عدد من العناصر التي لا بد من توافرها في اللعب ، لكي يكون لعبا تربويا . فهو يتضمن المنافسة . وعلى الرغم من أن المنافسة يمكن أن تجري بين الفرد ونفسه ، فإنها تتضمن في العادة عددا من الطلبة الذين ربما ينقسمون الى فرق . يسير اللعب حسب شروط محددة أو قوانين تم الاتفاق عليها ، والخروج عن هذه الشروط والقوانين يعد إخلالا باللعب ، ولربما يؤدي الى الخسارة .

إن فكرة التعلم من خلال اللعب في المدرسة الابتدائية قديمة قدم التربية نفسها ، على أن التشبيهات والالعاب التربوية قد بدأتا تستخدمان حديثا ، في كل من المرحلتين الثانوية والجامعية . هذه بعض الألعاب التربوية التي تستخدم في المراحل الدراسية المختلفة في البلدان المتقدمة ، نستعرضها كنماذج من أجل تحويرها أو كتابة ما يماثلها من حيث المبدأ ، أو استحداث غيرها . إن لعبة (مزرعة هيرد فوردشاير) لعبة بسيطة منظمة ، توفر أفكارا



أساسية عن عملية الزراعة ، واتخاذ القرارات التي تتضمنها . يستخدم هذا اللعب على مستوى طلبة المرحلتين الابتدائية والثانوية . (الصفحة الاولى) لجريدة مثال بسيط آخر تستعرض المحددات الاضافية والعمل ضد الوقت . وتستخدم هذه اللعبة في المدارس الثانوية الانكليزية في مواقف متعددة ، لطلبة تتراوح أعمارهم بين ١٤ - ١٨ سنة و (أزمة أزيم) هي مثال آخر عن حرب بين قطرين ، وتركز حول العلاقات الدولية . وتصلح هذه اللعبة لطلبة العلوم السياسية في الجامعة .

التشبيهات التربوية :

يستخدم الكتّاب العرب في ميدان التربية عددا من التعابير ، للدلالة على كلمة Simulation الأجنبية . لقد استخدمت كلمة التمثيليات أو المسرحيات لهذا الغرض . وواقع الحال أن التشبيهات تختلف عن التمثيليات والمسرحيات ، لأن كل صغيرة وكبيرة محددة في التمثيليات والمسرحيات ، ولا يحق للممثل أن يغير فيها أي تغيير ، فدوره مرسوم مسبقا ، وما سيحدث يكون إعادة ما في التمثيلية أو المسرحية . أما التشبيهات فإن الخطوط الأساسية فيها هي التي تكون عادة مرسومة ، ويواجه الطلبة بمواقف جديدة ، وعليهم أن يسلكوا طريقا محددا ويتخذوا القرارات المناسبة التي تستند على معلوماتهم السابقة . إذ ليس هناك تكرار لأشياء سابقة ، بل ابتكار لقرارات جديدة .

يعرف « برتون » التشبيهات التربوية بأنها « محاولة إعطاء مظهر شيء ، أو إعطاء تأثير شيء آخر » . إن التشبيهات التربوية لا تتضمن بالضرورة المنافسة ، وقد صممت لتزويد الطلبة بخبرات ، لا يمكن تزويدهم بها بأي طريقة أخرى ، أو أن هذه الطرائق ليست ملائمة للتزويد بهذه الخبرات .

يتضمن التشبيه دائما نموذجا يكون صورة مبسطة من الواقع ، إذ أن النموذج يقلل من التعقد الموجود في مواقف الحياة الواقعية . وتؤخذ عادة من الواقع تلك الأجزاء الأساسية فقط لأهداف التعلم .

تمثيل الدور :

يتضمن هذا النوع من التشبيه عنصر التمثيل ، وربما يكون السبب في تسمية التشبيهات التمثيليات ، غير أن لتمثيل الدور أهدافا تربوية مهمة أخرى . والغاية عادة من تصميم هذا النوع من التشبيه ، تزويد المشتركين بالخبرات الشخصية التي يستحيل تزويدهم بها بطريقة أخرى . قد يكون تمثيل الدور ضروريا لتزويد المشارك بالخبرة ، كما يحدث عادة في تمثيل دور أعضاء البرلمان ، أو تكون الأدوار الفردية ثانوية ، ولكن جمعها يخلق خبرة عامة للمشتركين ، كما يحدث في حالة تمثيل دور إقرار الأولويات .

هناك نوع خاص من تمثيل الدور الذي يطلق عليه أوراق في السلة أو الملف . وقد صممت هذه التشبيهات من أجل تطوير مهارات اتخاذ القرارات لدى طلبة كلية الادارة . وهنا يواجه المتدرب بملف يتضمن الرسائل والمذكرات ، والقرارات المالية وغير المالية التي اتخذتها هيئة المؤسسة المذكورة ، والتي يمكن أن تقدم الى مدير المؤسسة في يوم اعتيادي . يتوقع من الطالب الذي يلعب دور المدير أن يدرس جميع هذه الأوراق ، ويصدر أوامره ، ويرسل الرسائل ، ويجري الاتصالات الهاتفية ، ويخطط للاجتماعات القادمة ، كأنه في موقف وظيفة حقيقية .

إن دراسة الحالات عبارة عن تدريبات معقدة من اتخاذ القرارات ، تتضمن عادة درجة عالية من العمل التحليلي والتقييمي . تستخدم هذه الطريقة أكثر من غيرها من طرائق التشبيهات . توصف المواقف في هذه الحالة وصفا حقيقيا أو خياليا . يطلب من المشتركين أن يقرروا ما يجب عليهم أن يقوموا به ، أو يطلب منهم أن يسوقوا الاحتمالات ، من أجل حل الإشكال . إن دراسة الحالة طريقة فعالة في إثارة المناقشة التي تدور حول مشكلة مشتركة ، تركز على الخبرات . وهي تتصف بالسماح للطلبة أن يبقوا بعيدين عن نتائج القيام بعمل . ولهذا السبب فإن بعض المؤلفين يعدونها شيئا يقع خارج التشبيهات التربوية . على أن دراسة الحالة عنصر أساسي من عناصر تمثيل الدور ، ولهذا السبب تعد جزءا من التشبيهات التربوية .

يمكن دراسة حالة جامعة معينة أو قسم معين ، وطرح المشكلات التي تعانيها تلك الجامعة أو القسم ، ويقوم الطلبة بعد الاطلاع على المشاكل والإمكانات برسم الخطة الكفيلة للتغلب على تلك المشكلات .

أهداف التشبيهات والألعاب التربوية :

إن الأهداف التربوية هي نقطة البداية في كل تقنية تربوية ، ولولاها لأصبحت عمليتا التربية والتعليم مبتورتين ، ندرج أدناه بعض الأهداف التربوية التي يمكن أن تحقق بواسطة التشبيهات والألعاب التربوية . ومما هو جدير بالذكر أنه قد لا يمكن تحقيق جميع هذه الأهداف التربوية بواسطة تشبيه أو لعب تربوي واحد ، على أن بعض التشبيهات التي صممت بطريقة جديدة تستطيع أن تحققها جميعا :

١ ـ إثارة الدوافع لدى الطلبة .

٢ ـ خلق موقف تعلم ممتع للطلبة .

٣ ـ ضمان مشاركة الطلبة في نشاط التعلم .

٤ ـ خلق موقف يؤدي إلى تعلم أكثر فاعلية .

٥ ـ ربط التعلم الذهني بالتعلم الانفعالي .

٦ ـ تعليم « ديناميكية » الجماعة .

٧ ـ توفير التعلم بالخبرة .

٨ ـ تعليم الوجوه المختلفة لاتخاذ القرارات .

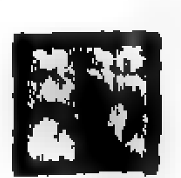
أرجو ألا يفهم من العرض الذي قدمته أن التشبيهات والألعاب التربوية هي الدواء العام الشافي لمشاكل الصف في المدرسة ، ولا يمكن الادعاء بأنها أفضل طريقة تدريس ، يمكن للمدرس أن يستخدمها بأي حال من الأحوال . إن التشبيهات والألعاب التربوية طريقة أخرى ، يمكن للمدرس أن يستخدمها جنبا الى جنب مع الطرائق الأخرى . ولكنه يجب الا يخفى عن البال أن هذه الطريقة الجديدة تثير الحافز لدى الطلبة ، وتشجعهم على المشاركات الجماعية ، وتشكل اتجاهاتهم بطريقة يشعرون أنها هي اتجاهاتهم الشخصية وليست مفروضة عليهم . إنها طريقة ذات أهمية كبيرة ، تستحق العناية والتجريب . إن أفق التشبيهات والألعاب التربوية اتسع بشكل كبير بإيجاد الآلات المبرمجة (الحاسوب الآلي) المصغرة الحديثة . وبشيوع هذه الآلات أضحينا بحاجة الى مزيد من التشبيهات والألعاب التربوية .

إن الكتّاب العرب مدعوون الى تطوير التشبيهات والألعاب التربوية الغربية السابقة ، أو غيرها ، أو إعداد حقائب تعليمية كاملة منها ، تتضمن اعتبارا من الأهداف التربوية الخاصة ، مرورا بأسس تطبيقها الى التقييم والقياس . والأخيرة إذا ما كيفت مع الحاجات الخاصة أصبحت أنسب من غيرها . فهل هناك من يجرؤ على الدخول في هذا الميدان ؟ ولا ننسى أن تطوير التربية العربية بحاجة إلى مزيد من الجرأة . □



مـــرض البقـــع البيضـــاء

الدكتور: حسن فريد أبو غزالة



أصيبت ابنتي الصغيرة عندما كانت في السادسة من عمرها بمرض في منطقة العجان (بين الفخذين) بطفح أبيض اللون يثير حكة شديدة .

وعلى الرغم من مراجعة العديد من الأطباء واستعمال الكثير من الأدوية لم أجد تحسناً . وقد مضت على ذلك أربع سنوات ، ولم أتبين اسمه تماما . وقد قيل لي إنه مجهول السبب .

فهل لكم أن تصفوه لي ، وأن تعرفوني بطبيعته وعلاجه ؟ .

السيدة/ فوزية احمد/ ولنجتون - استراليا

قـد يسميه بعض مـرض الحـزاز الأبيض ، كما يسميه بعض آخر باسم الحـزاز المتصلب . وهـو مرض يشيع أكثر مـا يشيع بين الاناث ، وبخاصة في مرحلة ما قبل البلوغ ، وفي مرحلة ما بعد انقطاع الطمث التي تعرف باسم سن اليأس ، ومع هـذا فهو مرض لا يستثني أحدا ولا عمرا .

أعراض المرض وعلاقاته : يشكو المريض من حكة في موضع الاصابة ، وبخاصة منطقة العجان فيما بين الفخـذين ، حيث فتحة الشرج والأعضاء التناسلية ، إذ ينتشر طفح متفاوت الحجم ، مختلف الأشكال ، على هيئة حبيبات بيضاء عاجية اللون ، تحيط بها دائرة حمراء . هذه الحبيبات المتناثرة في مبدأ الأمر تلتئم وتتماسك ، ثم يصيب المنطقة ضمور ، ثم يصبح في كل حبيبة انخساف تملؤه سدادة قرنية الملمس .

ثم تتطور الحالة ، فتظهر بعض الحويصلات ، ويتلون الجلد ، ويتجعد . ولا يعرف الطب سببا مباشرا للاصابة ، وإن كان بعض ينادي بوجود خلل هرموني عند الانسان المصاب .

على أي حال فالمرض حميد العاقبة على الرغم من طول مدة الاصابة التي تتخذ صورة مزمنة .

وإن الأطباء لم يستقروا على سبب يجمعون عليه ، فالعلاج ما زال اجتهاديا ، إذ يستعمل بعض عقاقير الكورتيزون ، سواء منه الدهانات الرخيصة أو الأقراص التي تؤخذ بالفم ، كما أن بعضا آخر قد يلجأ إلى الهرمونات الأنثوية وفيتامين (سي) ، ولا أحد يميل إلى الاستئصال الجراحي ، إلا إذا داخله الشك في وجود تغيرات سرطانية خبيثة ، ويخشى منها على حياة المريض .



ردود سريعة

■ الأخت / ع . فاطمة ـ المغرب

لماذا لا تستشيرين طبيبا مختصا في أمراض النساء ، ليقوم على فحصك وتقصي سبب معاناتك قبل البحث عن العلاج لعله مجهول الأسباب ؟ ! .

■ الأخ / س . م . ف ـ عمان ـ الأردن

يصعب الحكم على سبب تقصف أظافر القدم وبطء نموها ، فربما كان نقصا في الحديد وحاجة الجسم إليه ، أو ربما كان سببا آخر ، لهذا فأنت بحاجة إلى فحص طبيب مختص في الأمراض الجلدية والعمل بنصيحته بعد استشارته .

■ الأخت / ش . ص ـ حولي ـ الكويت

ربما كان هناك عامل وراثي أثر في تحدب قرنية العين وهو السبب في شيوع لبس النظارة بين أفراد الأسرة كلها ، لكن النظارة لا تشفي من عيوب البصر ولا تزيدها سواء بل هي تريح النظر وتساعد صاحبها على القراءة ، وقضاء حاجاته اليومية دون متاعب ، غير أن اعادة الكشف وتعديل قوة العدسة بين حين وآخر أمر لازم ، وعيوب النظر لا تعتبر مرضا بالمعنى الدقيق بقدر ما هو عيب خلقي أو مكتسب لتحدب القرنية أو حجم العين .

■ السيد / ج . م . ـ المغرب

لماذا لا تعرض نفسك على أخصائي الأمراض الجلدية ليتولى فحصك ويتقصى سبب معاناتك ومن ثم يصف لك ما يراه مناسبا لعلاجك ؟ !

■ الحائر / ص . ب . ف ـ حضر موت ـ المكلا

إن استئصال الخصية اليسرى لا يؤثر على الكفاءة الجنسية ولا يسبب العنة أو الضعف ، كما أنه لا يسبب العقم وعدم الانجاب ما دامت الخصية الأخرى سليمة فلا داعي للقلق ، أما عن طولك ووزنك بالنسبة لعمرك فيبدو أنك تميل إلى البدانة ويا حبذا لو نقص وزن جسمك بضعة كيلو جرامات ، لأن هذا أفضل لمستقبل صحتك .

■ الأخت / س . ص . ـ بانياس ـ سوريا

النحافة ليست مرضا في حد ذاتها ، وإنما هي ظاهرة تصاحب الكثير من الأمراض وليس لها سبب معين محدد ، وإنما أسبابها عديدة وعلاجها يكون بعلاج السبب.ولهذا فلا بد من كشف شامل ، يتولاه طبيب مختص لتقصي الأسباب المسببة للمرض الذي أحد مظاهره النحافة ، ومن ثم علاجه ، فالحميات والأمراض المعدية كالدرن والتيفوئيد على سبيل المثال أو الأمراض النفسية جميعها تسبب الهزال والنحافة ، وهكذا وعلى أية حال فنحن نرجو أن تتاح الفرصة لطرح قضية النحافة موضوعا رئيسيا في باب طبيب الأسرة تعالج فيه شتى جوانب هذه الظاهرة .

■ السيد / ح . غ . ق ـ مراكش ـ المغرب

ان وصفك لمشكلة أذنك لا يكفي لتشخيص مرضك ، بل الأمر يحتاج إلى كشف من أخصائي الأذن وإجراء تحليلات وصور أشعة ، ولهذا قد يكون من الأصوب تزويدنا بتقرير طبي من طبيب مختص فربما نستطيع المشورة عليك برأي صادق ، ولكننا ننصحك بالتزام رأي الطبيب المختص المعالج ، كما أن ضعف السمع في مثل حالتك أمر متوقع فلا داعي للقلق أو الدهشة .

■ السيد / ل . ع . م ـ دمشق ـ سوريا

ننصحك بمراجعة طبيب مختص لفحصك مع طمأنتك مبدئيا بأنه لا خطر عليك أبدا . □

قال المغني

جلس المغني على كرسيه في منتصف المسرح . العود في يده ، ومكبر الصوت « الميكرفون » أمامه ، وخلفه وقف الموسيقيون ، وبدأ الاحتفال . كان صوت المغني عاديا جدا ، لكن كان هناك أكثر من شيء غير عادي في الاحتفال عموما ، فالكلمات التي اختيرت من قصائد لكبار الشعراء العرب لم تكن شيئا عاديا ، والأداء الذي لم يعتمد على الصوت الجميل لم يكن عادياً ، كما لم يكن عاديا تمكن المغني من خلق علاقة مع جمهور الحاضرين ، وتحويلهم من شخصيات سلبية بحكم وجودها في ذلك الجزء من القاعة الذي يفترض فيه التلقي ، إلى جمهور مشارك في أداء الغناء الذي سيطر على جو القاعة من بداية الاحتفال حتى نهايته ، من أول القاعة حتى آخرها .

غنى الجمهور واقفا ، وغنى جالساً ، وضبط بتصفيق الأيدي ودق الأرجل إيقاعا جميلا بلا آلات موسيقية . غنى المغني وصفق الجمهور ، وغنى الجمهور وصفق المغني ، واشترك الجمهور والمغني في غناء استفاد من أصوات أنين المجروحين ، ومن هتافات المتظاهرين ، ومن غناء عمال البحر والصيادين ، ومن ترانيم الأمهات لأطفالهن في الليالي الحزينة .

كان كل شيء في الاحتفال جديداً ، من كلمات الأغنيات إلى ملابس المغني العادية المتواضعة ، إلى العلاقة التي نشأت بين المغني والجمهور ، واستمرت طوال مدة الاحتفال .

كان ما رأيته غناء « وليس طربا » ، وما قام به الجمهور مشاركة في الاحتفال وليس تلقياً .

صورة جديدة للغناء تختلف عما ألفناه منذ سنين ، حين كان يقف « المطرب » على المسرح ببذلته السوداء اللامعة وقميصه الأبيض ذي الأزرار الذهبية ، ويبدأ باستعراض إمكانياته الصوتية أمام جمهور أتى ليستمع ويصفق لمهارات « المطرب » ، حتى ينتهي الاحتفال ، فليس مسموحا ضمن تقسيم الأدوار بين المطرب والجمهور بأكثر من هذا .

وما فعله مارسيل خليفة ، بهذه الطريقة الاحتفالية الغامرة ، فعله فنانون آخرون في مصر والعراق وفلسطين والمغرب ، كل بطريقته الخاصة . أما الهدف فهو إعادة الاعتبار للعلاقة بين المغني والجمهور الذي حضر ليحتفل ، لا ليشاهد حفلا ، وليتحول من متفرج ومستمع سلبي الدور ، إلى مشارك في عرس أو تظاهرة صاخبة ، أو أغنية حب دافئة ، أو أنة حزن دفينة ، فمهمة « المغني » أن يغني مع الحاضرين ولهم ، وليس ليطربهم بإمكاناته الصوتية مهما كانت كبيرة . ◻

صلاح حزين



مجلة الفتيان والفتيات في الوطن العربي
رئيس التحرير: د. محمد الرميحي
يشترك في تحريرها مع الفتيان والفتيات العرب
نخبة من كبار الفنانين والكتاب المتخصصين
في هذا العدد
استطلاع "الفنون الشعبية".
همام .. "قصة بالرسوم".
دعوة لزيارة "سلطنة عمان".
ذات الهمة "الحلقة السادسة".
شجرة الدر "مسلسل تاريخي".
من أيام الطفولة .. بهجت عثمان.
إضافة للأبواب الثابتة
إسلاميات
كمبيوتر
٨ صفحات
لأخيك الصغير وأختك الصغيرة
والمرة معارف العربي الصغير

العربي - العدد ٣٦٧ - يونيو ١٩٨٩ م



□ صفحة لغة

□ هكذا غنى الآباء

بقلم : الدكتور حسن عباس

كلمات نتحاشى استعمالها وهي صحيحة

لا نحسب أن الادعاء القائل بأن الفصحى لغة ، والعامية لغة أخرى يستقيم أمام النظرة الفاحصة المتبصرة ، فنحن إذا نحينا الدخيل من اللهجات أمكننا إرجاع أكثر المفردات الدارجة على ألسنة العامة إلى أصولها العربية الفصيحة . والتحريف الذي يلحق الكلمة حتى تتحول من كلمة فصيحة إلى أخرى عامية لا يجاوز القلب أو التخفيف أو التضعيف أو نحو ذلك ، ولكن الصحيح الثابت هو أن الفصحى والعامية تمثلان مستويين من مستويات الخطاب ، لا لغتين مختلفتين ، فإن بينهما من الوشائج وصلات القربى ، ما لا يغفل .

ولقد أتيحت للفصحى فرصة للظفر بالعامية ، حين عم استعمال ما يمكننا أن نسميه « الفصحى الميسرة » ، أو « الفصحى المعاصرة » ، عن طريق الصحافة العلمية والأدبية والسياسية منذ قرن ونيف ، وقد ساعد ظهور هذا المستوى الميسر من الفصحى على اقتباس أنواع أدبية جديدة ، لعل اقتباسها كان متعذراً في ظل الأساليب التي كان يحلو لأصحابها أن يزينوها بالسجع والبديع والجزل الفخم من الألفاظ ، بل وبالغريب الحوشي منها ، مما لم يعد له وجود إلا في معاجم اللغة . ومن هذه الأنواع التي استحدثت في أدبنا العربي : الرواية والمسرحية والقصة القصيرة . ثم ساعد ظهور الإذاعتين المسموعة والمرئية على شيوع هذه اللغة ، فعم انتشارها ، حتى غدت تطرق أسماع الجماهير صباح مساء ، ومن الجماهير من لم يُقم أي شكل من أشكال العلاقة مع الكتاب أو الكلمة المكتوبة حيثما وجدت .

وهكذا قدر لهذه الفصحى الميسرة أن تغدو لغة الأدب الحديث ، ولغة الصحافة على تعدد ألوانها ، بل ولغة الحديث اليومي لدى الأوساط التي أتيحت لها مستويات مرموقة من التعليم والثقافة . ومن هنا ندرك أن انتشار التعليم ، وازدياد حظ الناس منه ، جديران بإحلال الفصحى المعاصرة محل العامية ، أو التخفيف من غلواء الأخيرة وإغراقها في المحلية على أي حال .

وليس كل كلام العامة حوشيا ، ينفر منه الذوق الأدبي ، ويأباه الحس الفني ، بل إن فيه كلاماً فصيحاً ، حسب الناس أنه عامي لكثرة دورانه على الألسنة ، وجاوزه الذوق العام لطول الإلف والعادة . ولكنه يظل فصيحاً على الرغم من الحلة الشعبية التي يرتديها .

كنا في العدد الماضي (٣٦٦) قد وقفنا على جانب من تلك الألفاظ العامية الفصيحة ، كما

أوردها الدكتور محمد داود التنير ، في كتاب « ألفاظ عامية فصيحة » ، ونقف اليوم على جانب آخر من تلك الألفاظ والصيغ :

* **الطيِّب** : ومن تلك الألفاظ قول الناس : فلان رجل طيّب ، ويحسبها بعض الناس عامية ، وهي عربية فصيحة ، فالطيب من الناس من تخلى عن الرذائل وتحلى بالفضائل .

* **طيِّب** : تستعمل هذه الكلمة كثيراً للتصديق على الكلام ، أو لوصله ، أو لاستحسان بعضه ، أو للتهكم من بعضه الأخر . والكلمة عربية فصيحة ، ومع ذلك نتجنبها في الكتابة ، ونشيح عنها عند ترجمتنا للكلمة المماثلة في اللغات الأجنبية . فكلمة طيب معناها كلام طيّب . وطاب الشيء طيبا وطيبة : جاد وحسن ، ومعناها زَكَا وطَهُرَ . والطيِّب هو ما خلا من الأذى والخبث ، وكل ما تستلذه الحواس والنفس .

* **طهارة المولود** : نتحاشى عبارة « طهّر المولود » أو يوم طهارته ، ونستعمل بدلاً منها ختنه ختانا ، خشية الانزلاق إلى العامية ، ولكن العبارة الأولى صحيحة فصيحة ، شأنها شأن الأخرى .

* **الطقطقة** : يقولون في الكلام : فقرات ظهري تطقطق ، أو أن الأرض الخشبية كانت تطقطق وهو سائر عليها ، وهي فصيحة ، فلفظة طقٌ هي حكاية صوت الحجر أو الحافر ، والطقطقة فِعلَلةٌ مثل الدقدقة ، معناها صَوَّت ، أو كثر صوته ، أو تفرقع ، وهي تكرار طَقٌ .

* **العتب على النظر** : عبارة يقولها الناس حين يعتذرون عن عدم رؤية شيء ، والأصل صحيح ، فالعتب هو النقص والفساد ، وهو أيضاً الشدة والأمر الكريه ، وكأنهم يقولون : عفوا فالنقص في البصر .

* **العَتَمَة** : ويقولون جاء في العَتَمة ، ولم أره في العَتْمة (وينطقها العامة أحياناً بتسكين التاء) وهي فصيحة ، فعتمة الليل ظلام أوله بعد زوال نور الشفق .

* **عجِّزنا وعجِّزت** : يقولون : عجِّزنا ، أو عجِّز فلان ، أو عجِّزت المرأة ، أي صارت عجوزاً . والعجوز هو الهرم للمذكر والمؤنث . وعجِّزت تستعمل في الكلام ، وتجتنب في الكتابة أو في الكلام الفصيح ، مع أنها فصيحة . فعجِّزت المرأة معناها صارت عجوزاً وعجوزة ، وهو الاستعمال الدارج ، وكلها فصيحة .

* **خَرِّيج** : يقولون : هو خَرِّيج كلية كذ، ونتحاشاها في الفصحى ، ونقول خِرِّيج ، مع أن كلتيهما فصيحتان .

* **البيّاع** : يتحاشى الناس استعمال كلمة البيّاع في اللغة الفصيحة ، ويستعملون « البائع » ، مع أن كلتيهما فصيحتان ، ولا حرج في استعمالها .

* **البير** : تسهيل البئر ، وهي فصيحة . فالعرب أبدلوا الهمزة لغير علة للتخفيف (عن شفاء الغليل لابن جني) .

* **بَطَّنَ الثوبَ** : بَطَّنَ الثوبَ وأبطَنَه جعل له بطانة ، وهي فصيحة . والبطانةُ هي ما يُبَطَّنُ به الثوب ، وهي خلاف ظهارته : (بطائنها من استبرق) « قرآن كريم » .

* **الأنِف** : يقولون فلان أنِف ، يعنون أنه متكبر أو متعال ، وهي فصيحة . والأصل أنِفَ ، وأنِفَ منه أَنَفاً وأَنَفَةً معناها استنكف واستكبر . والأَنَفَةُ هي العزة والحمية .

* **أين ؟** : يقولون : من اين ؟ (بتخفيف الهمزة) ، ولا غبار عليها . وينطقونها وكأنها « منين ؟ » . كما يقولون في اين ؟ بالتخفيف أيضاً فينطقونها وكأنها « فين » ؟ .

* **الرَّمْرَمَةُ** : يقولون فلان رمرام ، وأكله رمرمة ، يعنون أنه يقبل على الأكل بلا تمييز أو مراعاة لنوعيته ، وهي فصيحة . فرمرم الرجل وغيرها معناها أكل ما سقط من الطعام ولم يتوَقَّ قَذَرَهُ . وفي حديث الهرة (حبستها فلا أطعمتها ولا أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض) . □



لو أن أرضي حرة!

للشاعر ابن حمديس

تروي كتب الأدب - ويؤكد الشاعر نفسه - أن المعتمد بن عباد لم يأبه بابن حمديس عندما جاء اشبيلية، فقد أقام فيها زمناً قانطاً قنوطاً، أوشك معه أن يعود إلى بلاده. وقد نوه ابن حمديس بذلك في مقدمة القصيدة (٣٤٤) من ديوانه الذي حققه الدكتور إحسان عباس فقال:

«أقمت في أشبيلية لما قدِمتُها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إليّ ولا يعبأ بي، حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي، فإني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لي: أجِب السلطان، فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني، وقال لي: افتح الطاق التي تليك، ففتحتها، فإذا بكور زجاج على بعد، والنار تلوح من بابيه، وواقده يفتحها تارة ويسدهما أخرى، ثم دام سدّ أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتها قال لي أجز:

انظرهما في الظلام قد نجما   فقلت: كما رنا في الدجنة الأسد

فاستحسن ذلك، وأمر لي بجائزة سنية، وألزمني خدمته».

لم تلبث نشوة الأيام الجميلة التي عاشها على مقربة من حاكم أشبيلية أن تتبدد. فبعد سقوط الجزيرة - جزيرة صقلية - وضياع الوطن مات والد ابن حمديس، وقد ضاعف من حزنه وألمه أن يموت والده وهو غريب عن بلده، عاجز عن أداء الواجب. ورثاه بقصيدة مؤثرة أعاد فيها إلى الذاكرة مشاعرهما الفياضة يوم الفراق. ثم مات عدد من أهله وأصدقائه وهم يدافعون عن الجزيرة، وكان أشد ما يؤلمه في فقده لهم أنهم غابوا دون أن يتمكن من إلقاء النظرة الأخيرة عليهم.

وعلى الرغم مما تركته تلك الأحداث من أثر في نفس ابن حمديس - وفي مقدمتها ضياع صقلية - فقد صمد لها، وظل ينعم بالعيش - إلى حين - في ظل المعتمد بن عباد، ويؤكد له في مدائحه أنه متماسك صامد بفضل رعايته له وحدبه عليه. ولم يكن يعلم أن الأيام تتربص بصاحبه وولي نعمته، فما إن انتهت معركة الزلاقة المشهورة التي أبلى فيها حاكم أشبيلية بلاءً حسناً حتى اعتقله المرابطون الذين دخلوا الأندلس بقيادة ابن تاشفين، وانتهت بذلك أسطورة المعتمد بن عباد رجل الدولة والشاعر الأديب، واقتيد إلى «أغمات» في المغرب حيث ظل سجيناً هناك حتى وافاه الأجل.

بسقوط دولة ابن عباد أقفر قصره، وانفض الشعراء والأدباء من حوله، وتفرق جمعهم، إلا قِلّة منهم ظلت على الوفاء، وفي مقدمة هؤلاء يقف ابن حمديس أميناً مخلصاً، فقد دأب على زيارته في

سجنه ، وظل يمدحه أسيراً كما كان يمدحه سلطاناً ، بل إنه رأى في نكبة المعتمد نكبة له ، وفي ضياع ملكه ضياعاً للوطن الثاني الذي كاد ابن حمديس يطمئن إليه . لذلك أمسك عن مدح المرابطين فلم يقترب منهم أثناء ارتحاله في المغرب وانتقاله من مدينة إلى أخرى جوّاباً ضائعاً لما يقرب من أربعين عاماً ، وامتدح ـ لضرورات العيش ـ من كانوا دونهم ، وأقل منهم شأناً . ومن مدائحه هذه القصيدة التي يشكو فيها الزمان وسوء الحال أكثر مما يمدح :

تدرّعتُ صبري جُنّةً للنوائبِ ... فإن لم تُسالِمْ يا زمانُ فحاربِ
عجمتَ حصاةً لا تلين لعاجمٍ ... ورُضْتَ شَمُوساً لا يذلّ لراكبِ
كأنّك لم تقنع لنفسي بغربةٍ ... إذا لم أُنقّب في بلادِ المغاربِ
[بلاد جرى فوق البلادة ماؤها ... فأصبح منه ناهلاً كلُّ شاربِ]
فطِمْتُ بها عن كلّ كأس ولذّةٍ ... وأنفقتُ كنزَ العمرِ في غير واجبِ
يبيت رئاس العضب في ثِني ساعدي ... مُعاوَضَةً من جيد غيداء كاعبِ
أتحسبني أنسى ، وما زلت ذاكراً ، ... خيانةَ دهري أو خيانة صاحبي
تغذّى بأخلاقي صغيراً ولم تكنْ ... ضرائبُه إلاّ خِلافَ ضرائبي
ويا ربّ نَبْتٍ تعتريه مرارةٌ ... وقد كان يُسقى عذبَ ماء السحائبِ
علمتُ بتجريبي أموراً جهلتُها ... وقد تُجهل الأشياء قبل التجاربِ
بصادقِ عزْمٍ في الأماني يحلّني ... على أمَلٍ من همّةِ النفس كاذبِ
ولا سَكَنٌ إلا مناجاة فكرةٍ ... كأني بها مُستحضرٌ كلَّ غائبِ
ولما رأيت الناس يُرْهَب شرهم ... تجنّبْتُهُمْ ، واخترت وَحْدَةَ راهبِ
أحَقّ خيالٍ كنت أحظى بزَوْرِهِ ... له في الكرى عن مضجعي صدُّ عاتبِ
فهل حال من شكلٍ عليه فلم يَزُرْ ... نضافةُ جسمي وابيضاضُ ذوائبي
ولو أنّ أرضي حُرّةٌ لأتيتُها ... بعَزْمٍ يعُدّ السيرَ ضربةَ لازبِ
ولكنّ أرضي كيف لي بفكاكها ... من الأسْر في أيدي العلوج الغواصبِ
أحين تفانى أهلها طوعَ فتنةٍ ... يضرّم فيها نارَه كلُّ حاطبِ
ولم يرحم الأرحامَ منهم أقاربٌ ... تروّي سيوفاً من نجيع أقاربِ
حُماةٌ إذا أبصَرْتَهُمْ في كريهةٍ ... رضيتَ من الآساد عن كلّ غاضبِ
إذا ضاربوا في مأزق الضرب جرّدوا ... صواعقَ من أيديهمُ في سحائبِ
أولئك قومٌ لا يُخاف انحرافُهُمْ ... عن الموت إن خامتْ أسودُ الكتائبِ
إذا ما غزَوْا في الرّوم كان دخولُهُمْ ... بطونَ الخلايا في مُتون السلاهبِ
يموتون موتَ العِزّ في حَوْمةِ الوغى ... إذا مات أهلُ الجبنِ بين الكواعبِ
حَشَوْا من عجاجاتِ الجهادِ وسائداً ... تُعَدّ لهم في الدّفن تحت المناكبِ
فغاروا أفولَ الشهب في حُفَرِ البلى ... وأبقَوْا على الدنيا سوادَ الغياهبِ
ألا في ضمان الله دار بِنُوطُس ... وَدَرّتْ عليها مُعْصِراتُ الهواضبِ
أمَثّلُها في خاطري كلّ ساعةٍ ... وأمري لها قَطْرَ الدموع السواكبِ
أحنّ حنينَ النيبِ للموطنِ الذي ... مغاني غوانيه إليه جواذبي
ومن سار عن أرضٍ ثوى قلبُه بها ... تمنّى له بالجسم أوبةَ آيبِ

تستأثر صقلية بالكثير من شعر ابن حمديس ، وفي هذه القصيدة ـ على وجه التحديد ـ يتحول حب الشاعر لصقلية وحنينه إليها إلى ما يشبه الثورة على الزمان وعلى النّاس ، وهو موقف طبيعي منتظر ، فقد قالها في مدح أمير المهدية في المغرب في أواخر القرن الخامس الهجري (أوائل القرن الثاني عشر الميلادي) وكان قد غادر الأندلس بعد نكبة المعتمد بن عباد،وفي تلك الأثناء سقطت صقلية ودخلها الروم ، فثارت ثائرة الشاعر على النحو الذي تبديه أبيات القصيدة .

في غمرة اليأس والغضب يخاطب الشاعر زمانه قائلاً : « كنت من قبل قد لبست ثوب الصبر لأخفي به المصائب والمحن ، أما الآن فليس أمامك إلا أن تسالم ـ أيها الزمن ـ أو أن تنازلني القتال . فإن شئت أن تقاتل فقد عجمت حصاة صلبة لا تلين ، وركبت حصاناً عنيداً حرونا لا يذل لراكب . ألم تقنع بما أصابني من اغتراب بتّ على أثره أجوب بلاد المغرب ، مبدداً العمر في شقاء بعد أن كنت في وطني أعب من كأس الحياة ولذائذها عباً ؟ هنا يبيت السيف في ثني ساعدي ، وهناك كانت يدي تطوق عنق غادة جميلة » .

ويروق للشاعر أن يسترسل في ذكر السيوف ، ويقول : إن له فيها مآرب كمآرب موسى في عصاه ،ولكنه ينحّي جانباً فكرة حرب الزمان وما يستتبعها، ولعله قد رجح لديه أن تكون هناك خيانة صاحب فضلاً عن غدر الزمان ، فقد علّمتهُ التجربة ما كان يجهله من قبل ، فكثيراً ما يسقي ماء المطر العذب نباتاً ، ولكن ذلك النبات ينمو وفيه مرارة ، وهذا هو شأن بعض الصحاب الذين تمحضهم ولاء وودا ، ولا تجني منهم غير الإساءة .

يقول الشاعر : كنت حين قدمت أمنّي النفس بالآمال ، وقد خابت آمالي بعد أن رأيت الناس يبادرون بشر يثير الرهبة ، فتجنّبتهم واخترت وحدة أشبه بوحدة الراهب ، ليس هذا فحسب ، بل إن طيفاً كان يزورني في المنام صدّعني هو الآخر .

على هذا النحو يصور ابن حمديس حياة الوحدة والوحشة والغربة عن الناس والوطن .

ولو لم تكن أرضه محتلة لما تريث وانتظر ، بل لسار إليها بعزم

ولكن أرضي كيف لي بفكاكها ... من الأسر في أيدي العلوج الغواصب

وهذه الصرخة التي تمتزج بالألم والحسرة تخفي الكثير من الشكوى ، ولكن الشاعر لا يقف طويلاً عند مأساة ضياع بلاده ، بل يؤثر تعداد فضائل قومه ، وذكر بلائهم في قتال العدو ، فذلك أولى بالانصاف وأدعى إلى الطمأنينة .

إنهم على هذا القدر من البأس والاقدام والتضحية والقوة ، فكيف ضاعت صقلية إذن ؟ إذا نحينا جانباً مسئولية أبناء صقلية أنفسهم في ضياع الوطن لأن ابن حمديس لا يقف عندها طويلاً ، فهو يصفها بالتفاني في الفتنة (أحين تفانى أهلها طوع فتنة) فإن سبباً لم يعلنه الشاعر ولم يتطرق إليه ـ أنفة وكبرياء ـ يكمن في تخلي المسلمين عن وطنه عندما دعت دواعي الجهاد كما يرى الدكتور إحسان عباس (العرب في صقلية) : « . . إنه لا يتفجع على وطنه ليستصرخ الناس ويستنجدهم ، ويهيب بهم للعمل من أجل وطنه باسم الدين أو باسم الجهاد . . هو ناقم حقاً ولكن على من ؟ . . كان شعوره الداخلي يحدثه أن هنالك مسئولية أكبر تقع على عاتق المسلمين الذين تخلوا عن صقلية حين كانت في حاجة إلى نصير ، ولكن عوامل نفسية من القوة لم تُخلِ بينه وبين الافصاح عن هذا الشعور ، فذهب ليتحدث عن غدر الصاحب وخيانته . . وهو مندهش مستغرب من السلبية المطلقة التي واجه المسلمون بها ضياع وطنه . . » .

وهذا تأويل صائب لا يسع المرء معه وهو يرى أجزاء من الوطن العربي تسلب وتغتصب إلا أن يقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ! □



ديفيد ثرو

تجربة وفكر مع الطبيعة

بقلم : طارق الحجي

يعد « هنري ديفيد ثرو » امتدادا لمدرسة جان جاك روسو التي كانت تدعو إلى البساطة في الحياة والعلاقات الانسانية ، واستلهام غايات الطبيعة وتأثيراتها في مواجهة التعقيد الشديد الذي شمل مناحي الحياة نتيجة للتقدم المدني والمادي . كان ذلك في القرن الثامن عشر ، ترى ماذا يقول لو شاهد ما وصلت إليه البشرية اليوم ؟

هو أحد أقطاب الفكر الأمريكي في القرن الماضي ، وإن حاول البعض تجاهل آثاره الفكرية ، فان في كل جيل من الأجيال الامريكية فئة من ذوي العقول النيرة الذين يجدون في أفكاره ومبادئه ضالتهم المنشودة .

دخل هنري ثرو عالم الفكر والأدب منذ صباه ، ولكنه بعد اكتمال رجولته لم ينظر إلى هذا الأدب على أنه مجرد شعر وقصائد وروايات ، كما فعل كثيرون غيره فنالوا الشهرة والمكاسب ، بل عده تراثا إنسانيا يتكامل عبر العصور والأجيال فيضيء الطريق إلى المعرفة والعلوم لتتوصل البشرية بفضله إلى حياة فاضلة ترفع مكانة الإنسان ، هكذا عرف ثرو الأدب وهكذا أراده طوال حياته ، فكانت أفكاره ومبادئه التي تمسك بها وطبّقها في حياته اليومية ، تعد غريبة على المجتمع الأمريكي الذي كان في طور النمو والتوسع على أسس رأسمالية تستغل طاقات البشر والطبيعة لمصالح طبقة معينة .

حيـاته :

ولد هنري ثرو في مدينة « كونكورد » القريبة من بوسطن بولاية « ماسشيوستس » الأمـريكية سنة (١٨١٧) في أسرة متوسطة الحال ، وقد نشأ منذ طفولته في تلك البيئة التي تحيط بها الغابات الخضراء ، والأنهار الجارية ، والطبيعة بكل مـا فيهـا من جمـال وتنـاسق ، مما زرع في نفسـه ولعه المبكر بكل ما في الطبيعة من سحـر وجمال ونظام بديع التناسق ، وكائنات متعددة الأنواع ، مكان أسير هذه الطبيعـة ، وما فيهـا من أسرار وألغاز طوال حيـاته والتي تعامل معها بأسلوب العالم والمفكر المتأمل .

أنهى ثـرو المراحـل الأولى من تعليمـه بكـل اجتهاد ، وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بجـامعة « هـارفـرد » في بـوسـطن سنـة (١٨٣٣) التي أنهى دراستـه فيهـا بتفـوق سنـة (١٨٣٧) ، حيث أشبع رغبته وولعه الشديـدين بالاطلاع والقـراءة في مختلف النواحي الفكـرية بكل جد واهتمام ، وقد درس بتعمّق موضوعات مختلفة كثيرة منها الأدب الإنجليزي والكلاسيكي والفلسفة الشرقية واليونانية ، وتـاريخ البشـرية بالإضافة إلى كل من اللغة اللاتينية والإغريقية .

حصـل ثرو عـلى أعـلى درجـات التعليم في زمانه ، فكان من الطبيعي أن يلتحق بعمـل أو وظيفة تؤدي به إلى مركز مرموق في مجتمعه ، بعد أن أثبت تفوقه بكل جدارة ، ولكن تأثره العميق بما اطلع عليه من علوم وآداب تحمل بين طيّاتها أفكـارا فلسفية عميقـة عن الوجـود والـطبيعـة والإنسـان ، هذا بـالإضافـة إلى تعلقه الشـديد فكريا ونفسيا بكل ما في الطبيعة من جمال وجلال جعله يتجه اتجاهـا فريـدا يخرج بـه عن الإطار المألوف في المجتمع .

لقد وجد أن المجتمع الأمريكي يدفع بأفراده إلى الانغماس في كل ما هو مادي ، ويشق مظاهر الترف والإسراف ، بينما يعاني الكثير منهم الفقر والجهل .

كـما لاحظ أن الاتجـاه المـادي للمجتمـع الأمريكي يشكل خـطرا على البيئة وكل مـا في الطبيعة من عناصر وكائنات، وبهذا فهو من أوائل الذين نادوا بالحفاظ على التوازن في الطبيعة وحماية البيئة المحيطة بالإنسان . لهذه الأسباب وغيرها وجـد ثرو نفسـه يبتعد تـدريجيا عن نمط الحيـاة الأمريكية ، ويقف منها موقف الناقد والـرافض لمظاهرها الخادعة .

كان ثرو كثير الاطلاع والقراءة ، واسع الأفق والثقافة ، وضع مبادئه موضع التنفيذ ، والتـزم بهـا ، فعاش حيـاة بسيطة متـواضعة ، وقضى معـظم وقتـه بـالـدراسـة والكتـابـة ، وإلقـاء المحاضرات داعيا الناس إلى إصلاح مجتمعهم ، وأسلوب حياتهم ، والعناية بالبيئة من حولهم ، والتقرب إلى الطبيعة ، وعدم مساس عناصرها ، ومواردها بأي ضرر لأنها مصدر مقومـات الحياة البشرية .

قضى ثـرو سنوات حيـاتـه يـدعـو إلى هـذه المبادىء بكل وسيلة ، وقد شارك بنشاط في حركة فكرية كانت تدعو إلى الإصلاح الاجتمـاعي ، كان من بين أفرادها خيرة أدباء عصره ، وكان أحد زعمـائهـا الأديب الأمـريكي « رالف والـدو إمرسون » الذي كان جارا لثرو وصديقا مقـربا منه . وكان إمرسون الذي ذاع صيته ، وله مكانة رفيعة في المجتمع الأمريكي أكبر سنا من ثرو ، فكانت علاقتهما علاقة أخوية صادقـة ، وكانت هذه الحركة تدعو لبناء مجتمع أمريكي على أسس إنسانية عادلة تشمل مختلف النظم الاجتمـاعية والاقتصادية والسياسية .

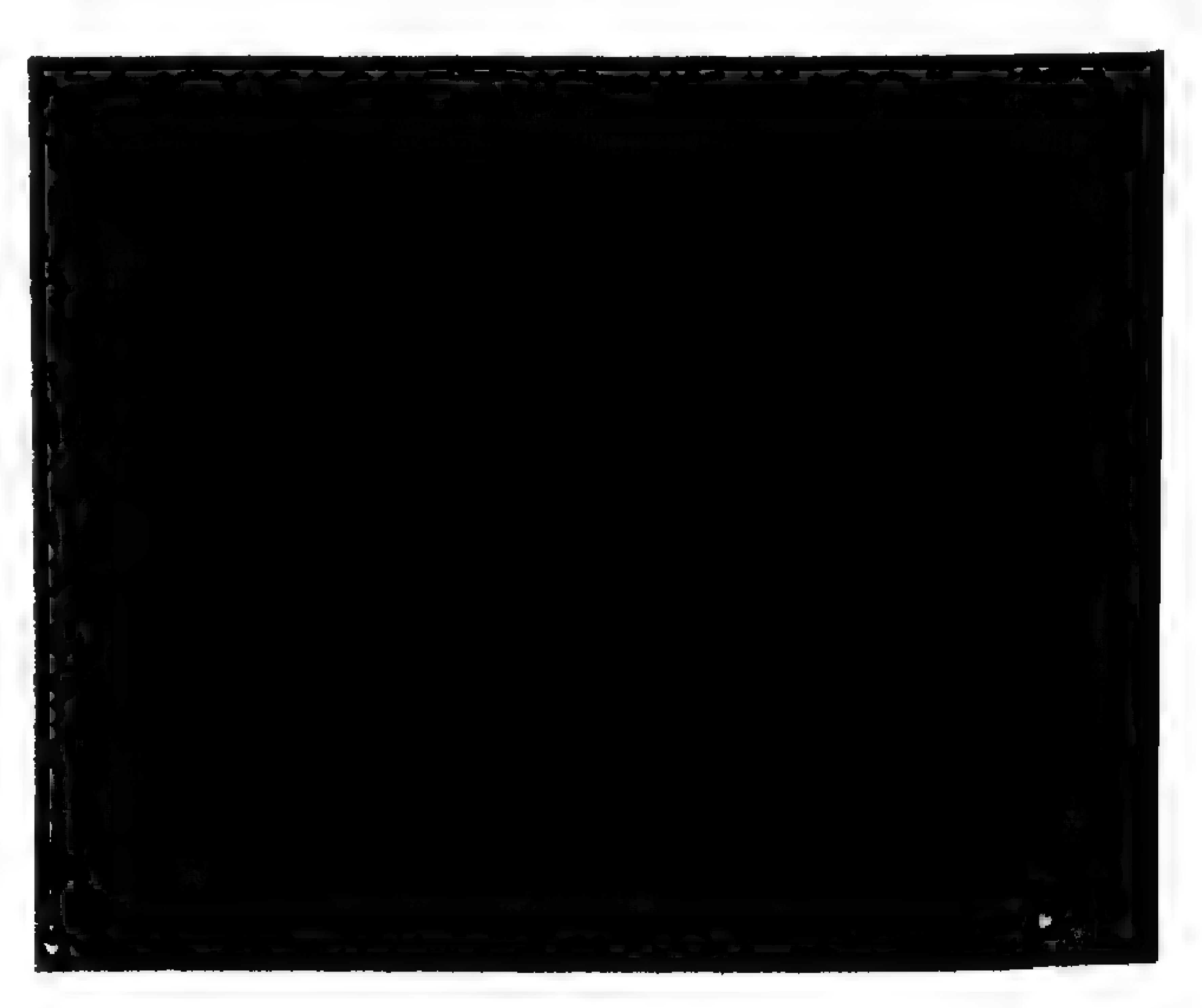
ولقد كان لثرو مواقف مشرفة كثيرة ، خاصة خلال الفترة الأخيرة من حياته القصيرة ، وأهمها موقفه الجريء من مسألة الرق في أمريكا ، إذ كان من أوائل الدعاة المخلصين لتحـرير السـود من عبوديتهم في المجتمع الأمريكي ، هذا بالإضافة إلى مـوقفه من حـرب الـولايـات المتحـدة مـع

المكسيك التي عدها ثرو عدوانا آثما على دولة مستقلة .

تجربته مع الطبيعة :

أراد ثرو أن يقوم بتجربة يضع فيها بعض أفكاره موضع التطبيق ، فعزم عام ١٨٤٥ على الاعتزال بمفرده على ضفاف بحيرة تسمى « والدن » ، تحيط بها الغابات بالقرب من بلدته التي كان يتردد عليها في خلواته ونزهاته منذ صباه ، فقرر بناء كوخ صغير بيديه ، واتخذ بجانبه مساحة صغيرة من الأرض ، ليزرع بعض ما يحتاجه من غذاء ، وهكذا عاش قريبا من الطبيعة التي طالما أعجب بها . وقد سجّل ثرو الكثير من أفكاره وآرائه خلال هذه الفترة التي دامت أكثر من عامين،وقد قضاها بالدراسة والتأمل والكتابة .

وقد ذكر في سجلاته أن تكاليف بناء كوخه بلغت أقل من ثلاثين دولار ! وهو مبلغ بسيط مع أن قيمة الدولار في زمنه أكبر بكثير مما هي عليه اليوم ، كما ذكر تكاليف حياته اليومية ومصاريفه القليلة ، لكي يبرهن أنه من الممكن نبذ حياة التبذير



كوخ ثرو

والاسراف ، والاكتفاء بحياة البساطة والكفاف . وقد أكدّ مرارا أن هذه الفترة التي قضاها بعيدا عن المدينة نسبيا ، هي أسعد سنوات حياته ، كما أكد أن المدينة أو المجتمع في كثير من الحالات أكثر وحشية من الغاب .

أنهى ثرو عزلته سنة (١٨٤٧) ، بعد أن وضع أفكاره ومبادئه تحت التجربة الفعلية ، واقتنع بنتائجها ، وقد خرج منها بكتابه الشهير الذي سماه « والدن » على اسم تلك البحيرة التي عاش على ضفافها ، وشهد ما في الطبيعة من روائع عبر فصولها المتوالية ، وسجل فيه بأسلوبه الرائع ، مختلف أفكاره وتأملاته لكل ما يتعلق بالانسان والوجود والطبيعة ، وآراءه بما يتعلق بالنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تسيطر على المجتمع .

نظم سيئة وفاشلة :

يعد ثرو من أوائل المفكرين الذين رفعوا أصواتهم ضد كل ما في الحياة الأمريكية ، من مظاهر الاسراف والمدنية الزائفة ، وأكد دائما على رفضه لجميع مظاهر الترف والاستغلال التي تؤدي إلى انحلال كل من الفرد والمجتمع ، وقد سجّل ثرو أغلب آرائه في كتابه « والدن » الذي يعد مشعلا للرأي الحر الهادف في الولايات المتحدة .

كان يرى أن الولايات المتحدة عبارة عن أرض عذراء ، تفيض بالخيرات والثروات بما يكفي كل فرد فيها ، فلا تعاني الطبقات الدنيا في المجتمع من الفقر والجهل ، ولكن طمع الانسان وسوء الاستغلال سيؤدي بالبلاد إلى الخراب ، وعد أن الشعار المرفوع منذ القرن الماضي الداعي إلى الحياة المترفة ، ورفع مستوى الحياة مجرد شعار زائف يحمل بين طياته أضرارا بالغة لكل من الفرد والمجتمع .

لقد انتقد ثرو الأوضاع الاجتماعية ، وأسلوب الحياة الأمريكية دون هوادة ، وشمل

نقده النظم السياسية والاقتصادية المتبعة ، وعدها نظماً سيئة وفاشلة يتم تطبيقها لصالح فئة معينة من أصحاب النفوذ وليس للصالح العام . وقد عارض الحكومة في عدة مناسبات مما أدى إلى إدخاله السجن في إحدى المرات .

وله خطبة شهيرة يحض فيها الناس على الاحتجاج ضد السلطة عندما تسيء استعمال قوانين البلاد .

ومن أهم آرائه أن إصلاح المجتمع يبدأ بإصلاح الفرد ، وتنمية وعيه وادراكه ورفع مستواه الفكري والروحي ، وهذا من مسئولية وواجب كل فرد في المجتمع . وكان يحث الناس دائما على الرقي فكريا وروحيا والترفع عن الماديات وكل ما هو مبتذل ، فقد كان يرى حياة الناس من حوله مشبعة بصور الرياء والتكلف ، بينما تخلو من الابداع والتأمل والتآخي ، وتؤكد أن الفرد في المجتمع الأمريكي ، يعيش حياة لا معنى لها ولا هدف ، يتحول فيها الانسان إلى مجرد آلة ، أو دمية تتحرك لا وعي لها ولا إدراك .

وقد وصف ثرو الحكومة الأمريكية بأنها آلة كذلك ، وبأنها منظمة سياسية لا ضمير لها ، وذلك عند مطالبته بتحرير السود من العبودية ومناداته بايقاف الحرب مع المكسيك .

العصيان المدني واجب :

نفر ثرو من مجتمعه وما فيه من رياء وتناقضات ، فآثر الاطلاع والكتابة والتقرب إلى الطبيعة ، والقيام برحلات إلى مناطق نائية ، وقد حالت أفكاره ومبادئه التي تمسك بها طوال حياته من الالتزام بعمل أو وظيفة ما ، فكرس وقته للكتابة التي عدها عمله الخاص ، وإن لم يجن منها ما يكفي لسد حاجته ، إذ لم تشتهر كتبه ، ويبرز اسمه إلا بعد وفاته وهو في الخامسة والأربعين .

وقد بلغت كتاباته ستة آلاف صفحة بعد طباعتها ، وتم نشرها بعد وفاته في أربعة عشر مجلدا تضم كل ما كتبه ، بالإضافة إلى محاضراته وخطبه التي ألقاها في الأندية الثقافية والمناسبات المختلفة .

ويعد كتابه « والدن » الذي ترجم إلى عدة لغات خلاصة لأفكاره ومبادئه ، كما يعكس شخصيته النادرة بكل وضوح ، وهو كتاب ممتع يحض القارىء على التفكير والتأمل ، صاغه ثرو صياغة بديعة بأسلوب سلس مميز ، واختار فصوله من مجمل ما كتب أثناء عزلته على ضفاف بحيرة « والدن » ، واستعرض على صفحاته آراءه الخاصة المتعلقة بمختلف نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وعلاقة الانسان بالبيئة والطبيعة ، وأوضح فيه أن حياة الانسان مطمورة تحت أثقال التقاليد والمجتمع والحكومة والكنيسة ، بكل ما فيها من تناقضات ومساوىء . وأن الانسان لا يجرؤ على الإفلات من هذه القيود ، ولا يمكنه الخلاص والارتقاء إلى عالم أو مجتمع أفضل .

ولثرو خطبة شهيرة بعنوان « العصيان المدني » وقد تم نشرها ضمن مؤلفاته بعد وفاته ، وفيها يدعو إلى الاحتجاج بدون عنف ضد السلطة ، عند ارتكابها أي خطأ ، ومقاومة أي اضطهاد أو سلطة غير عادلة ، وإحدى وسائل هذه المقاومة التي دعا إليها وطبقها ، هي رفض دفع الضرائب الحكومية التي من أجلها أدخل السجن ، لكن أطلق سراحه بعد أن دفع أحد أقربائه ما عليه من ضرائب في اليوم التالي دون علمه ، ويقال : إن كلاً من المفكر الروسي الكبير تولستوي والمهاتما غاندي تأثرا بأفكار ثرو التحررية ، وعملا بها .

وفاته :

توفي ثرو سنة ١٨٦٢ عن عمر يناهز الخامسة والأربعين ، بعد أن قضى حوالي سنتين على فراش المرض ، وفي جنازته ألقى إمرسون خطبة لتكريمه أثنى فيها على مبادئه الإنسانية ، وأفكاره المتحررة ومواقفه الشجاعة ودعوته المستمرة إلى حياة فاضلة كريمة . □



مختارات من الشعر العربي الحديث

تأليف : الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي
عرض وتعليق : جمال وردة

قد يعرف القارىء الغربي بعض شعرائنا المشهورين ، وربما يعرف بعض المختصين تطور شعرنا الحديث منذ قرن من الزمان . لكن القارىء الغربي لم يعرف هذا التطور من خلال نصوص شعرية ، تمثل أهم التيارات وأبرز الأسماء قبل صدور هذا الكتاب .

كتاب الشهر

في عام ١٩٨١ تحقق الحلم الذي طالما راود الشاعرة الدكتورة « سلمى الخضراء الجيوسي » ، وذلك بتدشين مشروع مؤسسة « بروتا » الذي يهدف الى نشر ترجمات لمختارات من الإبداع العربي الى الانجليزية . وتشرف على هذا المشروع الدكتورة الجيوسي التي عرفناها شاعرة وناقدة وأستاذة في أكثر من جامعة عربية وأمريكية .

وكانت السيدة الجيوسي قد سبقت هذا المشروع بسنوات ، حيث ترجمت عديداً من القصائد العربية الى الانجليزية ، وترجمت بعض القصائد الانجليزية الى العربية . أما المؤسسة نفسها فقد أصدرت من خلال منشوراتها الدورية عديداً من الأعمال الثقافية العربية المترجمة ، كان من ضمنها رواية إميل حبيبي « الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل » ، ورواية « الصبار » لسحر خليفة ، ورواية « الحرب في بر مصر » ليوسف القعيد .

من الخليج لما قبل المحيط :

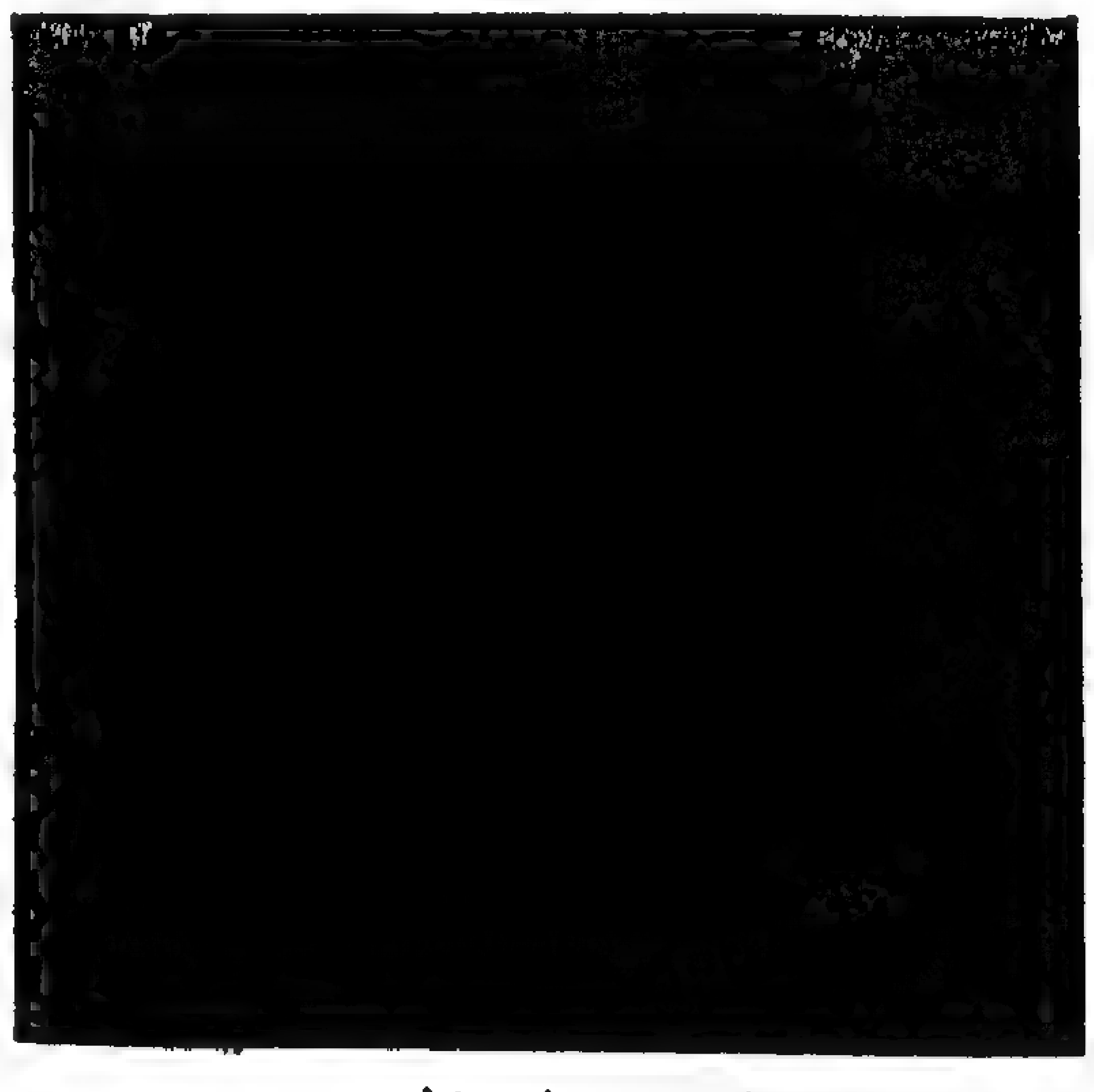
أما هذا المجلد الشعري الذي تقدمه لنا اليوم ، فقد اشتمل على عشرات الأسماء من شعرائنا المعاصرين ، وقد تم إعداده والتحضير له مع دار المأمون العراقية للطباعة والنشر . وقد أرادت من خلاله أن يكون سجلا حافلا لشعراء العربية في القرن العشرين ، مع التركيز على شعراء الخمسينيات حتى السبعينيات . وهي الحقبة الزمنية التي رصدتها الدكتورة الجيوسي . فإذا كان النصف الأول من القرن العشرين هو فترة البذور ، فلا شك أن النصف الثاني هو فترة الحصاد والنضج . لقد كان الهدف من هذا الكتاب أيضا رصد الجديد الواعد الذي ترى فيه نجوما جديدة سوف تشع في سماء الشعر العربي الجديد مستقبلا ، ولعل هذه المهمة المزدوجة قد لاقت كثيرا من الصعوبات في عملية الانتقاء والاختيار والرصد . فليست هي مجرد تسجيل لأسماء مشهورة عرفها تاريخ الأدب ، بقدر ما كانت إعادة تقييم فني ونقدي لهؤلاء الرواد الطلائع في الشعر العربي المعاصر . أما بالنسبة للشعراء الشبان فقد كانت العملية أكثر تعقيدا . إن العدد الكبير من الشعراء في الساحة العربية قد جعل عملية الانتقاء مريرة وصعبة ، لأن الدكتورة الجيوسي أرادت أن يكون الاختيار شاملا ، يغطي كل الاتجاهات والمشارب والأساليب شكلا ومضمونا وايديولوجيا . ولكننا نلاحظ أن رقعة الاختيار قد امتدت من الخليج حتى وسط الشمال الافريقي فقط ، من خليفة الوقيان ، والعدواني ، وسعاد الصباح ، وعلي الشرقاوي ، وقاسم حداد ، إلى شاعرين أو ثلاثة من تونس ، وكأن الشعر العربي قد توقف على أسوار تونس لا يقوى على صعود ذرا الأطلس وشواطئه . فليس هناك سوى شاعر واحد من المغرب ، أما الجزائر أو ليبيا فلم يترجم لأي من شعرائهما . قد يكون العذر هو ندرة النصوص العربية أصلا ، ولكن المجلد نفسه كان سبقا أدبيا للنصوص العربية نفسها ، فليس هناك كتاب عربي واحد ضم هذه النخبة الكبيرة من الشعراء العرب من قبل .

لقد اجتهدت الدكتورة الجيوسي بالنسبة

لشعراء ما قبل الخمسينيات ، لتكون التغطية شاملة لكل المدارس الشعرية المعروفة آنذاك من الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية إلى المدرسة الرمزية .

ثم تأتي الصعوبات الفنية التي تلاقيها الترجمة لمثل هذه الأعمال الفذة ، فشاعر مثل شوقي تعتمد قصائده على قواعد البلاغة والبيان وجزالة اللفظ ، فكيف ستكون قصائده إذا جردت من هذا ؟ كذلك القصائد الجديدة التي تعتمد البساطة اللغوية المتناهية ، كيف سيتم نقلها بنفس الشحنة العاطفية أو التوتر الشعري المصاحب ؟ لا شك أن الترجمة الشعرية معقدة وحساسة جدا ، وقد اتبعت الدكتورة الجيوسي اسلوبا جديدا يعتمد على مرحلتين - حيث يقوم في المرحلة الأولى شاعر عربي بترجمة القصيدة العربية إلى الانجليزية ، ثم يقوم شاعر انجليزي بصياغة النص المنقول مرة أخرى - لقد توصلت الكاتبة إلى الحقيقة القائلة : بأنه لا يجوز أن يترجم الشعر إلا الشعراء أنفسهم .

فالشعر كالموسيقا له لغة واحدة مهما تعددت اللهجات . ولعل الدكتورة الجيوسي قد استفادت من التجربة السويدية في نقل شعرها وأدبها الى اللغة الانجليزية بنفس الطريقة !! .



الدكتورة سلمى الجيوسي

مع بداية القرن العشرين كان الشعر العربي متخلفا عن مواكبة الشعر العالمي ، وبعيدا عن أمجاد العصور الذهبية القديمة ، لا شك أن أربعة قرون من السبات والركود قد أثرت على انطلاقه ، ولقد بدأت معركة التحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر . ولا شك أن الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت تتطلب جهدا أكبر للتغيير والتحديث .

لقد بدأت بواكير النهضة الأدبية العربية في لبنان نثرا ثم في مصر شعرا . بعد حملة « نابليون » وادخال الطباعة ثم البعثات التي كانت تذهب إلى أوربا أيام محمد علي باشا ، لقد نشطت الصحافة والطباعة ، وبدأ القاريء العربي يتعرف على تراثه الأدبي القديم ، فنشأت الكلاسيكية الجديدة مع ماصاحبها من جزالة اللفظ وقوة التعبير والمحسنات اللفظية التي أصبحت فيها بعد قيدا على حرية التعبير للجيل اللاحق .

فجاء الرد عن طريق أدباء المهجر بزعامة جبران ، وايليا أبي ماضي ، وميخائيل نعيمة، لقد ثاروا ضد صرامة وتقليدية المدرسة الكلاسيكية فاتحين الطريق أمام المدرسة الرومانسية التي انضم إليها ابراهيم ناجي وعلي محمود طه في مصر ، والبشير التيجاني في السودان ، وأبو القاسم الشابي في تونس ، والياس أبو شبكة في لبنان .

لقد أثرت هذه المدرسة في الشعر العربي بالصور المبتكرة ، والمفردات الجديدة مع قضايا شعرية جديدة كالحلم والحرية ورفض القيود . لقد كانت المدرسة الرومانسية ثورة على القيم القديمة البالية ، وعلى التخلف بكافة أشكاله وصوره . وعلى الرغم من عمرها القصير في الأدب العربي المعاصر إلا أنها استطاعت أن تهز المفاهيم الاجتماعية والسياسية من الأعماق ، وأن تخوض معركة التحديث بنجاح أكيد . وعلى الرغم من أن كثيرا من النقاد يربطون الحركة

الرومانسية أصلا بالفشل السياسي لثورة ١٩١٩ الوطنية المصرية ، إلا أن الشعر السياسي في العشرينيات والثلاثينيات كان كلاسيكيا ، في حين كان الرومانسيون يتناولون في أسفارهم الهموم والأشجان الفردية البحتة . وحين أفلست الرومانسية عن التعبير عن المتغيرات الطارئة ، وتاهت في أروقة الخيال والحلم والطبيعة بعيدا عن هموم الواقع واشكالاته ، استدعت الظروف استنباط أساليب جديدة للتعبير الشعري ، خصوصا بعد أن عرفت الثقافة الغربية طريقها الى القاريء العربي عن طريق الترجمة والصحافة ، وبهذا فتحت الطريق أمام المدرسة الرمزية في الثلاثينيات التي سعت الى تطهير الشعر من النزعة الخطابية المباشرة ، والعقلانية الباردة ، والتراثية الكلاسيكية التي تجاوزتها الأيام ، وكذلك من هشاشة وخياليّة المدرسة الرومانسية .

لقد كان « سعيد عقل » استاذا للمدرسة الرمزية الجديدة حيث قدم قصيدته « المجدلية » عام ١٩٣٧ يصور خلالها لقاء بين السيد المسيح ومريم المجدلية ، وقد بدا تأثره واضحا بالشاعر الفرنسي « بول فاليري » ، ثم جاءت النكبة الفلسطينية لتفجّر كل شيء . إن الجمالية الرمزية لم تعد كافية ، فكان لابد من البحث عن صور شعرية أكثر التصاقا بالواقع المأساوي ، فكان الالتزام والواقعية من عناصر القصيدة العربية الجديدة .

لقد استطاع الشعر العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين ، أن يواكب العصر ويتطور معه ويحقق الكثير من الانجازات الفنية .

بعد النكبة

لقد تجاوزت عملية التحديث الشكل الشعري التقليدي - فلم يعد البيت الواحد حكرا على الصدر والعجز ، كذلك الوزن والقافية - لقد بدأت بالفعل ثورة في شكل القصيدة العربية فظهر الشعر الحر ، والقصيدة النثرية ، وقصيدة التفعيلة الواحدة ، وأصبح الشعر أكثر سلاسة وبساطة معتمدا بالدرجة الأولى على الصورة الشعرية والموسيقا الداخلية للقصيدة نفسها .

لقد بدأ الشعر الحر تاريخيا عام ١٩٤٩ حين نشرت « نازك الملائكة » ديوانها « شظايا ورماد » ثم بدأ الشعر المنثور بالظهور ، ومع أن هذا الأسلوب كان قد بدأ سابقا أيام جبران وأمين الريحاني ، إلا أنه لم يسلك طريقه بشكل رسمي إلا في الخمسينيات والستينيات ، ومن رواد هذه المدرسة كان الشعراء توفيق صايغ ، أنسي الحاج ، محمد الماغوط ، وشوقي أبو شقرة .

ثم أصبح هذا الأسلوب أكثر تطورا وتعقيدا حين دخل الحلبة الشاعران ادونيس ويوسف الخال .

لقد قلنا إن النكبة الفلسطينية باعتبارها القضية المركزية الأولى للشعب العربي ، قد لعبت الدور الأكبر في تثوير وتغيير المنهج الشعري العربي .

لقد بدأ الشعراء ينظرون للحياة واللغة نظرة جديدةً مغايرة ، لقد اتخذ الشعر العربي بعد النكبة بعدا جديدا أكثر حدة وعنفا وهجوما على الماضي بكل أعمدته التقليدية البارزة ، لقد تركوا التراث جانبا وأخذوا يستلهمون الشعر

الشوري العالمي من أمثال : لوركا - نيرودا - اراجوان - ناظم حكمت - ايلوار ، وكذلك فرسان التجديد في الشعر الانجليزي من أمثال « إليوت » ، و « اديث سيتويل » . إن روح التغيير قد سادت الفترة المذكورة كلها . إن هذه التجربة قد أثرت الشعر العربي وجعلته أكثر نضجا ، إن شعراء الخمسينيات قد اجتازوا بنجاح معركة التحديث بكل ما فيها من تحديات وجراحات وانتصارات .

ودخلت الاسطورة شعرنا العربي الجديد تأثرا « بإليوت » و « سيتويل » في تموزيات السياب ، وبعليات خليل حاوي ، وطائر الفينيق عند أدونيس وبروميثيوس عند البياتي .

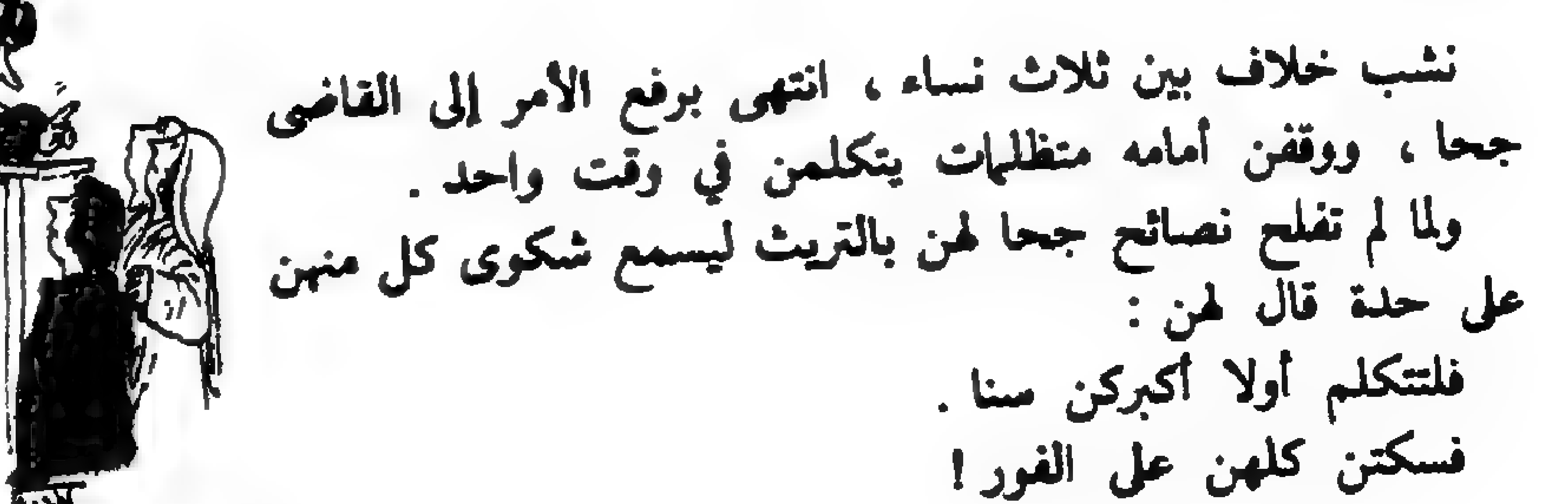
أساطير ترمز جميعا إلى تجدد الحياة بعد اقتحام الموت .

لقد لاحظنا أن الكتاب قد خلا من ترجمة بعض القصائد التي لعبت دورا مهما في حياة صاحبها ، واكتفى بترجمة قصائد أخرى قد تكون أقل أهمية ، فقد اكتفى ببعض مقاطع من قصيدة « مهيار الدمشقي » لأدونيس ، ولم تترجم قصيدته « صقر قريش » التي تصور انسلاخا وجدانيا وايديولوجيا للشاعر نفسه ، في المكان والجغرافيا من الشام إلى الأندلس ، كما في القصيدة ، أو من الشام إلى بيروت ، كما هو حال الشاعر آنذاك ، وخلت الترجمة من بعض مقاطع « مجدلية » سعيد عقل و« جسر » خليل حاوي .

كما خلا المجلد تماما من أسماء مرموقة في عالم الشعر في فلسطين ولبنان ومصر والعراق ، فقد أهمل واحد من أبرز الشعراء الفلسطينيين ، هو « معين بسيسو » ، بينما ترجمت قصائد لشعراء لا أهمية لهم ، وترجمت قصائد أجيال الخمسينيات والستينيات في العراق ، واستثني شاعر مهم ينتمي لجيل السبعينيات مثل « هاشم شفيق » .

لكن الدكتورة الجيوسي وعدت بجزء ثانٍ من هذا المجلد ، يضم البقية الباقية من فرسان الشعر العربي المعاصر .

وأخيرا أعترف بأنني لم أستطع التعرف على هوية بعض القصائد الشهيرة حين طالعتها بثوبها الانجليزي المزركش ، وبنكهتها الأمريكية العصرية . لعل عملية التحلية المكررة للمياه تفقدها بعض عناصرها ، وبعض ملوحتها مثلا ! فتخرج إلينا زجاجات المياه عذبة نقية ، لكنها ليست معدنية من باطن الأرض ، ولكن العزاء أن هذه القصائد ليست لنا ، بل لقارىء أجنبي ، يتلهف لمعرفة أي شيء عن ثقافتنا وشعرنا ، ولعل هذه النافذة من خلال مشروع الترجمة هي خير موصل لهؤلاء القراء العَطاشى . فهنيئا مريئا لهم شرابنا الزلال غير المملّح . □



الطريقة الوحيدة

نشب خلاف بين ثلاث نساء ، انتهى برفع الأمر إلى القاضي جحا ، ووقفن أمامه متظلمات يتكلمن في وقت واحد .

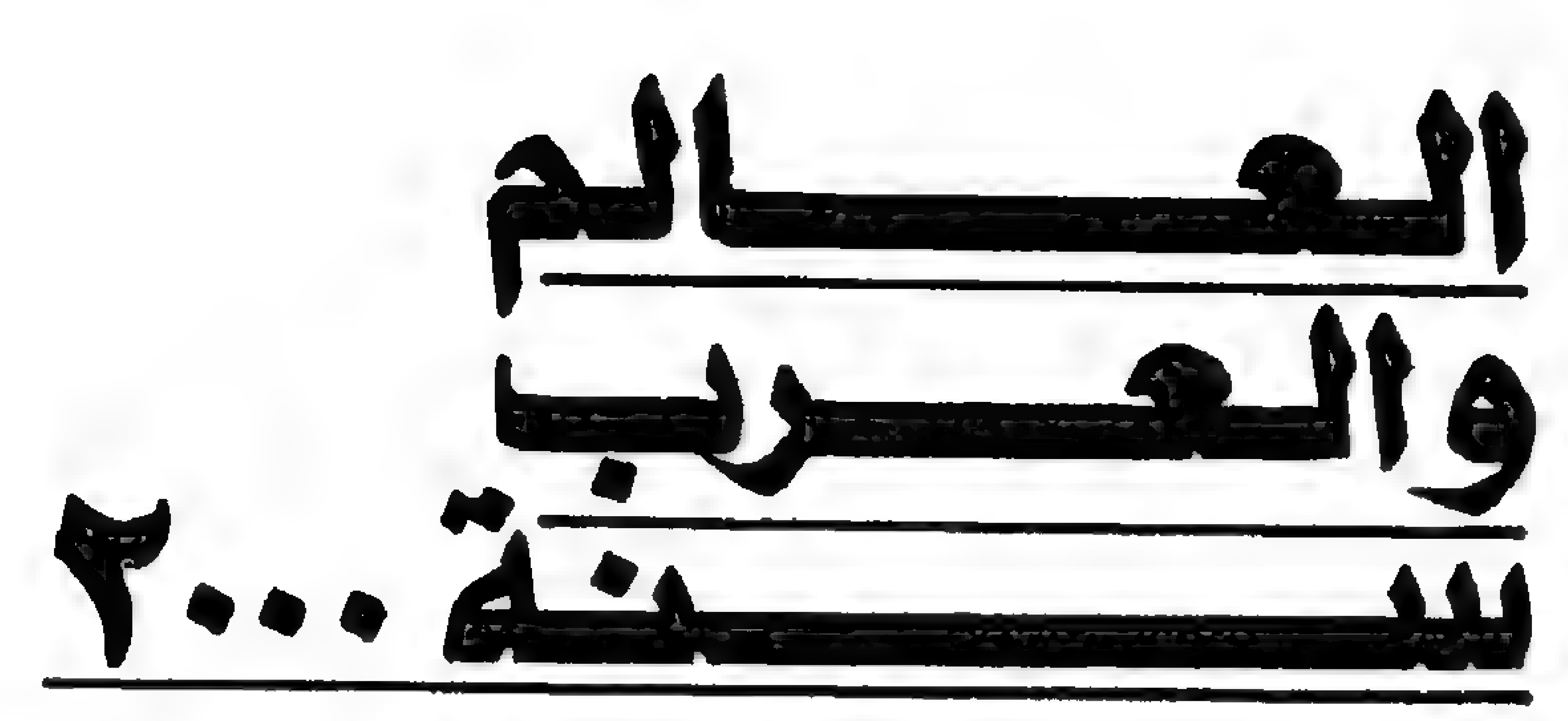
ولما لم تفلح نصائح جحا لهن بالتريث ليسمع شكوى كل منهن على حدة قال لهن :

فلتتكلم أولا أكبركن سنا .

فسكتن كلهن على الفور !







تأليف : الدكتور محمد جابر الأنصاري

عرض : رافع عبد الرحمن

هل ستكون صورة العالم في القرن المقبل هي نفس صورته الحالية ؟ !

يجيب المؤلف بالنفي ، ويمضي خطوة أبعد في محاولة لرسم ملامح هذه الصورة على المستويين العربي والعالمي .

يلقي المؤلف في الفصل الأول من الكتاب نظرة شاملة على المشهد العالمي المستقبلي ، من موقع الطائر المحلق في الجو ، وتخبرنا « نظرة الطائر في آفاق القرن الحادي والعشرين » أن القوتين العظميين ـ أمريكا وروسيا ـ بحكم أزماتها الاقتصادية والاجتماعية الداخلية تضطران إلى التقليل من تدخلها في الشؤون العالمية ، وهذا يخفف ضغطها على شعوب العالم الأخرى ، ويترك لهذه الشعوب شيئا من الحرية في التحرك والتحكم في المصير .

وتبرز أوروبا كقوة محايدة ، وتصبح أكثر قربا من شعوب العالم الثالث ، وأكثر تفهما لها ، وتفاهما معها .

غير أن القوة الدولية المهمة ـ قوة المستقبل ـ ستكون القوة الصفراء (اليابان ، الصين ، كوريا ، فيتنام) التي ستتولى قيادة الحضارة في وقت غير بعيد .

أما المنطقة العربية الإسلامية ، فتوشك أن تحسم أمرها في صيغة حضارية ، واستراتيجية جديدة ، تؤكد خصوصيتها واستقلالها بين القوى ، وبإمكانها التحالف مع قوة الشرق الجديدة لضرب النفوذ الغربي الجاثم عليها .

وتحت عنوان « آلام نهاية القرن العشرين ، ميلاد جديد ؟ » ، يشير الدكتور محمد جابر الأنصاري إلى شريط المجاعة الأفريقية ، والتسمم الآسيوي الهندي ، والمذبحة اللاتينية في السلفادور وأمريكا الوسطى ، ومشاهد خطف الطائرات وغير ذلك متسائلا : « من الغاب البدائي إلى الغاب الإلكتروني » ؟ « ماذا حدث ويحدث في هذا العالم ؟ ويقول : إن الأزمة اليوم في الغايات ، أو في القيم النهائية العليا السائدة التي تحدد لعالمنا غاياته ، وان النظام العالمي السائد بقيمه ومنطلقاته وركائزه الأساسية وروحيته وذهنيته الحاضرة ، إن لم يكن قد أفلس ، فهو في طريقه إلى الإفلاس .

ويرى المؤلف أن الخروج الصيني على الماركسية سيؤدى في النهاية إلى قيام نوع من التحالف الأصفر بين القوة التقنية اليابانية ، والقوة البشرية الصينية الكثيفة ، بشكل سيقلب الموازين في عالم اليوم المضطرب ، وسيقف هذا التحالف على قدم المساواة مع السوق الأوروبية المشتركة ، والحلف الأطلسي وحلف وارسو ، وينقل العصب الاستراتيجي للعالم إلى المحيط الباسيفيكي ، ثم يرث تدريجيا قسطا مهما ، مما لتلك الأحلاف الغربية البيضاء من نفوذ في العالم .

ويشير إلى أن انتقال مركز الجذب العالمي من قوة بيضاء إلى قوة صفراء ، لن يغير في حد ذاته مما تعاني البشرية من ويلات ، ولن يحقق بالضرورة ما تتطلع إليه من خلاص .

قرن التفوق الأصفر

في القسم الأول من الفصل الثالث رسالة وجهها المؤلف لمثقفي اليابان ، يشير فيها إلى أن المعاناة متشابهة بين اليابانيين والعرب من حيث إغفال دورهم الحضاري والفني والإنساني ، ومحاولة تحويل صورتهم في مرآة الغرب -المهتم أساسا بالنزعة المادية الاستهلاكية - إلى مجرد ظاهرة من ظواهر الاقتصاد والمال ، وأن هذه المعاناة المتشابهة بيننا لهي مدعاة لتوجهنا معا إلى إحياء صلاتنا الثقافية والانسانية ، وبعثها لأنها الأساس الجوهري في التعاون بين الأمم قبل تبادل البضائع والمنافع المادية .

وهو يدعو اليابانيين إلى أن يصل صوتهم الياباني الصميم والأصيل - في الابداعات الفنية والثقافية الخاصة بهم - إلى بلادنا مع أجهزة « الكمبيوتر والحاسبات والفيديو » .

وبالمقابل يدعوهم إلى طرب الغوص الخليجي وحداء الصحراء ، ومشاهدة فولكلور البحر والبادية والتعرف على مالدينا من أدب جديد وثقافة جديدة .

وفي القسم الثاني يتناول المؤلف ما يجرى في اليابان والصين وكوريا والهند مشيرا إلى أن الاعتبارات التي تدعو الوعي العربي الاستراتيجي والحضاري إلى تفهم القوة البشرية الصاعدة وتدارسها ، هي أن هذه القوة تقدم بديلا آخر للعرب في التعامل الدولي ، بديلا متخففا من الانحيازات الدينية والتاريخية والأيديولوجية التي يعاني منها العرب في تعاملهم مع قوى الحضارة الغربية ، كما أن التجارب اليابانية والصينية والكورية والهندية على اختلافها وتباينها ، تمثل في نهاية الأمر محاولات ناجحة لأمم شرقية ، للحفاظ على خصوصيتها وشخصيتها الحضارية الذاتية مع استيعاب مقومات القوة الحقيقية في الحضارة الحديثة . ويشير الدكتور الأنصاري إلى أن عرب الخليج والجزيرة العربية هم المعنيون بالدرجة الأولى بدراسة هذه الظواهر بحكم مالهم من علاقات تاريخية وتجارية مع الشرق الآسيوي .

ويدعو إلى إقامة مركز علمي للدراسات الأسيوية محددا الملامح العامة للتجارب الآسيوية التي لابد أن يتعمقها المركز المأمول وهى : أن تلك الأمم الشرقية قد انطلقت من مبدأ وحدتها القومية ، وأنها متمسكة بأصالتها وتقاليدها

وشخصياتها التاريخية المتميزة ، وقد تمكنت تلك الأمم من استيعاب القدر الجوهري من التحديث وامتلاك زمام القوة التقنية والعلمية والاقتصادية منذ أن باشرت عملية التوحيد ، كما أن كل أمة حققت النهضة والتحديث حسب طريقتها الخاصة ، وباكتشاف قوانين خصوصيتها التاريخية والحضارية .

ثم ينتقل المؤلف إلى « **العرب أمام التجربة اليابانية والقوة الصفراء** » ، فيلخص أسباب صعود النهضة في اليابان ، وتعثر النهضة عند العرب . فالأمة اليابانية أقبلت على التحديث بوحدة قومية متماسكة ، بينما واجهت الأمة العربية التحدي منفصلة متصارعة ، والأمة اليابانية دخلت مسيرة النهضة بأقل قدر من الصراع بين المجددين والمحافظين ، بل اندمج مجددوها ومحافظوها في نفس شخصيات الرجال الذين قادوا النهضة ، بينما انقسم المجددون والمحافظون إلى معسكرين متصارعين في مراحل النهضة العربية ، ثم انقسم كل معسكر إلى معسكرات متنازعة . واليابان وقفت من الغرب موقف التلميذ ، بينما وقف العرب منه موقف الزبون . كما أن التقاليد اليابانية تقدس العمل ، بينما ورثت المجتمعات العربية نظرة غير إيجابية وخاصة إلى العمل المهني والصناعي الذي هو أساس النهضات الحديثة .

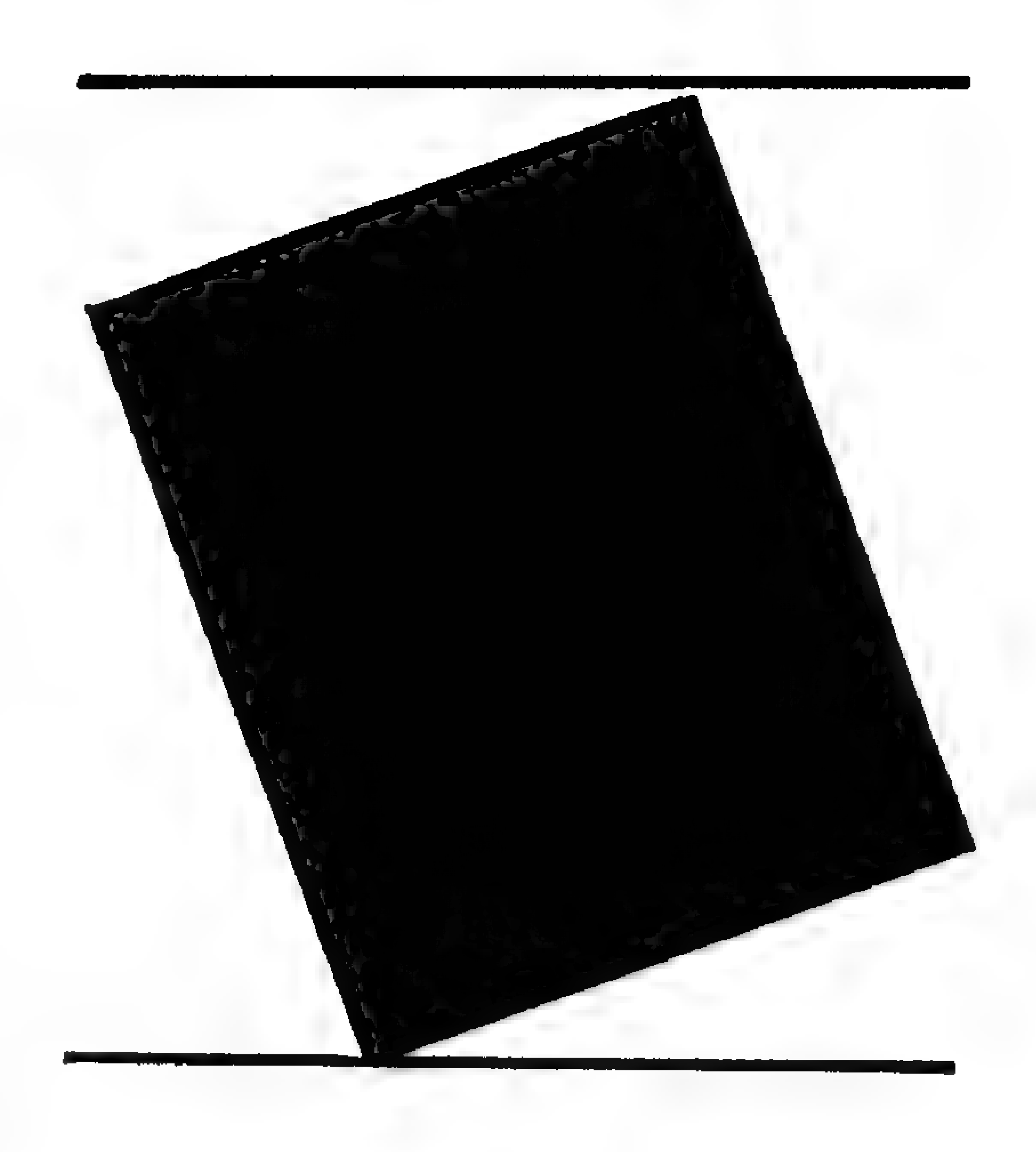
ويرى المؤلف أن القول : بأن تعرض العرب لمؤامرات الاستعمار « واسرائيل » قد يفسر تخلفهم ، قول غير مقنع مشيرا إلى أن اليابان تعرضت لضربة نووية نهضت بعدها أقوى مما كانت .

ثم يقدم المؤلف في الفصل التالي دراسة تلقي الضوء على جذور التربية اليابانية وخصائصها المميزة ، ويخلص إلى أن أبرز خصائص النظام التربوى الياباني هي : أن ذلك النظام يستمد أهم مقوماته من طبيعة مجتمعه وروح أمته واحتياجات وطنه ، وأنه استمد انطلاقته من جذوره ومؤسساته وتقاليده المتأصلة والقائمة ، وأن التعليم في اليابان يعد خدمة وطنية عامة ، وواجبا قوميا ، يتجاوز أي جهد فردي أو فئوي خاص ، وأنه يمثل عامل التوحيد المهم لعقل الأمة وضميرها ، وأن اليابان لم تأخذ بالنزعات الليبرالية والسيكولوجية الغربية المتساهلة في التوجيه الفكري للأجيال وفي ضبط سلوكها العملي والأخلاقي ، ولم تأخذ ببريق الدراسات النظرية الغربية من فلسفات وحقوق وإنسانيات ، وأنها استطاعت أن تجمع بين شعبية التعليم ،وأستقراطيه العلمية والفكرية ، ولم تؤخذ باللغات الأجنبية المتقدمة ولم تنبهر بها ، وعلى الرغم من مركزية التوجيه في النظام التربوي ، فإنه يقوم على مرونة ، ولا مركزية ملحوظة في تنظيم وزارة التربية والعلوم والثقافة . ومهنة التدريس في اليابان مهنة مربحة اقتصاديا حتى بالقياس إلى القطاع الخاص ، كما ان اليابان لم تندفع وراء نزعة تحويل الثقافة العامة إلى مُنَشَط من مناشط الإعلام .

آخر المستجدات

في بداية فصل الختام يشير الكاتب إلى ظهور كتابين سيرمزان إلى طبيعة مناخ التفكير الحضاري الاستراتيجي المستقبلي الذي يسود الآن نهاية القرن العشرين ، وسيمتد بأثره وإرهاصاته إلى عقود عديدة من القرن المقبل . هذان الكتابان هما « قيام القوى العظمى وسقوطها بين ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ » للبرفيسور بول كنيدى و « إعادة البناء » للرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف .

ويقول : إن الكتابين يحاولان معا - كل بطريقته - إنقاذ ما يمكن انقاذه من القوى العظمى ، التي يتوجه كل منهما إلى مخاطبتها أملا في إعادة الحيوية إليها ، بعد أن أخذت تتضح للعيان بوادر فقدان القوتين معا مكانة الصدارة الفريدة التي تمتعتا بها حتى وقت قريب .



وهذه التحولات التي يشهدها الاتحاد السوفيتي في عهد غورباتشوف ستؤثر على أوربا الشرقية ، كما سيؤثر فيها توجه دول أوربا الغربية نحو الوحدة . فحركة الوحدة الأوربية يمكن أن ينجم عنها مزيد من استقلال أوربا الشرقية عن « الشقيق » الروسي مع البحث عن صيغة ايديولوجية معتدلة . . « وسيبقى في صلب التفاعل بين أوربا الشرقية وأوربا الغربية محور انبعاث الوحدة الألمانية . إن مسألة إعادة توحيد ألمانيا ستكون من أدق القضايا وأكثرها حرارة وإثارة في العقد الأخير من هذا القرن ، والعقود التالية من القرن الحادي والعشرين » .

مؤشرات المستقبل العربي :

ما هي أبرز مؤشرات المستقبل العربي كما يراها د . الأنصاري ؟ إنها الانتفاضة الفلسطينية « الإبداع » الاستراتيجي الفلسطيني في الوطن العربي الذى قد لا يقل أهمية في ضوء المستقبل عن الإبداع الياباني والصيني « فالانتفاضة وعد مفتوح للمستقبل العربي . وكما كانت بدايتها مدهشة ، فإنها تحمل البذور لأن تكون تطوراتها ونتائجها جيدة مدهشة » .

والمؤشر الثاني هو تحرك « منحنى » الأوضاع العربية الى « موضع ما » . فوق قعر الهاوية التي انحدرت إليها الأوضاع العربية في السبعينيات والثمانينيات ، لقد بدأت حركة الواقع العربي في الصعود إلى أعلى في مجالات عديدة ، وعلى المسؤولين والمثقفين والمواطنين العرب التكاتف والعمل لدفع المؤشر إلى فوق .

وضمن « نظرة الطائر » يوجز المؤلف المشكلات الجدية التي تنتظر العرب على طريق المستقبل : انخفاض أسعار النفط وتأثيرات ذلك ، ازدياد الاعتماد على الاستيراد من الخارج في مجال توفير الغذاء ، وأزمة الأمن المائي العربي .

وهناك ثلاث مهام مستقبلية عربية ، أولها : الاتحاد قوميا ، والوحدة ليست مجرد مطلب سياسي ، بل مطلب حضاري وشرط ضروري لاستيعاب حضارة العصر .

وثانيها تجديد الإسلام مع الحفاظ على جوهره ليستوعب روح العصر ، وكلمة السر هي « الإسلام - العروبة - العصر » في مندمج عضوي واحد . وثالثها تحول التوجه العام إلى مشروع حضاري عربي إسلامي بمعالم واضحة وبرامج محددة ، ومواقف متبلورة تجاه مختلف تحديات العصر وقضايا الحياة .

وفي نهاية الكتاب نجد فصولا مختارة عن التجربة اليابانية ترجمها المؤلف عن اللغة الفرنسية ، وهي من كتاب « اليابان » العملاق الثالث « لروبير غيلان » ثم ينبه الدكتور الأنصارى القارىء إلى « أن هذا الحديث ينحصر في التحليل الفكري الحضاري المقارن ، وعلينا أن نجربه بوعي كامل ، لكي نتجنب أي نوع من الترويج للمصالح الاقتصادية والسياسية لليابان أو غيرها » . □



مختارات

اسم الكتاب : كلمة طيبة
المؤلف : د . عبدالعزيز كامل
الناشر : ذات السلاسل - الكويت
عدد الصفحات : ٣١١ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧

لوحات قلمية للكاتب ، يضمها بين دفتي كتاب واحد ، ويوجهها إلى الشباب . والكتابة للشباب تختلف عن الكتابة للكهول التي يترك المرء نفسه فيها على سجيتها ، وهو مدرك أن الكهل يتابعه ، ولديه خلفية عريضة من القراءة والتجربة ، كما يقول المؤلف ، أما للشباب فالأمر يحتاج إلى التبسيط والتحديد .

ولقد تنوعت موضوعات الكتاب ، ففيها الكتابة عن القرآن والسنة وعن القدس الشريف ، وعن الكويت ، وعن الناس البسطاء والأتقياء في مصر ، وعن الشباب ، كل هذه الموضوعات يتناولها الكاتب بعلمه الغزير وثقافته الواسعة وقلمه المميز الرقيق .

□□□

اسم الكتاب : الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية
المؤلف : د . عبدالوهاب المسيري
الناشر : المطبعة الفنية - القاهرة - مصر
عدد الصفحات : ٢٢٦ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩

الكتاب لواحد من أهم الكتّاب العرب في الدراسات الفلسطينية والصهيونية ، وهو يقدم في كتابه الجديد دراسة علمية في الإدراك ، فيبدؤها بفصل كامل ، يناقش فيه منهجيا أهمية النماذج المعرفية في تحديد إدراك الإنسان ، وخطورة التبعية الإدراكية ، ثم يطرح فكرة أن الانتفاضة ليست تعبيرا عن اليأس ، وإنما هي تعبير عن تجلٍّ عربي لامتلاء نفسي ، واكتشاف للذات ، ثم يعرض بعد ذلك لأزمة الصهيونية ، وأهمية دراستها لفهم الانتفاضة ، طارحا فكرة أزمة الشرعيتين : الشرعية الصهيونية أمام يهود العالم وأمام الصهاينة أنفسهم ، وشرعية وجود الصهاينة في أرض العرب ، ثم يعرض لبعض جوانب الأزمة الصهيونية ، وكيفية استجابة الفلسطينيين لها .

□□□

اسم الكتاب : الباراسايكولوجي . ظواهر وتفسيرات
المؤلف : سامي أحمد الموصلي
الناشر : شركة دار السلام للنشر والتوزيع - بغداد
عدد الصفحات : ١٧٧ صفحة من القطع المتوسط
سنة النشر : ١٩٨٨

يتعرض الكتاب لدراسة بعض الظواهر الخارقة وتفسيرها من وجهة نظر علماء « الباراسايكولوجي » . و « الباراسايكولوجي » اصطلاح معناه « ما يجاور علم النفس » ، وهو علم يدرس الظواهر المستغلقة على الفهم ، والخارقة للطبيعة والغريبة وغير المألوفة ، ويحاول أن يجد لها التفسير العلمي والفكري المناسب ، ثم يتعرض الكاتب لبعض الظواهر الخارقة ، مثل التخاطر والتنبؤ والتلباثي ، وغيرها من الظواهر غير المألوفة .

اسم الكتاب : قيامة عبدالقهار عبدالسميع
المؤلف : حسن يوسف
الناشر : الأهالي للطباعة والنشر ـ دمشق
عدد الصفحات : ١٤٠ صفحة من القطع الصغير
سنة النشر : ١٩٨٨

اثنتا عشرة قصة للقاص الكاتب السوري حسن يوسف ، وهي آخر ما أنتجه ، ويعود فيها إلى عالمه الخصيب الخاص جدا ، ليغوص في عمق الواقع الشعبي ، فيلتقط جوهر العلاقات الإنسانية بكل ما فيها . وأبطاله صورة صادقة عن واقع متأزم ، لهم رائحة الأرض ولهجة البيئة . يقدمهم الكاتب بأسلوب رشيق ، مفعم بالبساطة والسخرية والعمق .

□□□

اسم الكتاب : قراءات في حرب الخليج
المؤلف : منذر الموصلي
الناشر : دار العروبة ـ بغداد
عدد الصفحات : ٤٥٦ صفحة من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٧

يقسم الكاتب دراسته على عشرة أبواب ، يناقش فيها أفكاراً وقضايا تتعلق بحرب الخليج ، فيبدؤها بدراسة عن ايران (الجغرافيا والديموغرافيا) ، ثم ايران في تاريخها الفارسي والاسلامي ، ثم ينتقل إلى عرض العلاقات العربية الفارسية في العصر الحديث . وبعد ذلك يناقش الثورة الايرانية ، ويعرض بعد ذلك لمطامع ايران ومصالحها الاقليمية ، ثم يقدم عرضا تاريخيا للخليج العربي ، وقصته في الصراع بين العرب وإيران . ويستعرض الكاتب في الباب الثامن الموقف الدولي من حرب الخليج ، وفي الباب الذي يليه يعرض لسياسة التسلح في حرب الخليج وسوق السلاح الدولية ، وأخيرا يعرض الدور « الاسرائيلي » في الصراع العربي الايراني .

□□□

اسم الكتاب : المغرب العربي الكبير . نداء المستقبل
المؤلف : د . مصطفى الفيلالي
الناشر : مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت
عدد الصفحات : ١٨٤ من القطع الكبير
سنة النشر : ١٩٨٩

يواجه المغرب العربي تحديا كبيرا ، يهدد اقتصادياته ، بعد أن أغلق أمامه سوق أوربا بعد دخول اسبانيا واليونان والبرتغال للسوق الأوربية المشتركة وإجراءات توحيد أوربا . هذا التحدي الذي يواجه المغرب يستلزم مواجهته بالوحدة كسبيل وحيد ، فيقيم في القسم الأول تجربة التعاون المغربي ، وأجهزته ، والدراسات التي تمت ، وأجهزة التعاون المغاربي ، ومستويات القرار ، ويخصص الكاتب القسم الثالث لدراسة التحديات المعاصرة أمام المغرب ، فيناقش التحديات الخارجية والداخلية . وأخيرا يعرض الكاتب للمستقبل البديل ، فيناقش افتراضات التغيير ، والبناء المغاربي المقترح ، وجدلية الأهداف والغاية . □

في خدمة الأمّيين

دخل الكاتب آرثر ميللر ذات يوم إلى مطعم ، لم يكن قد دخله من قبل ، فلما أحضر له الخادم قائمة الطعام ، ردّها إليه وقال : إنني أعتمد على ذوقك فأحضر لى ما تختاره أنت .

وعندما فرغ الأستاذ من تناول الطعام ، أخذ يظهر للخادم إعجابه بحسن اختياره ، فقال الخادم : إنني هنا ياسيدى ، في خدمة الذين لايعرفون القراءة والكتابة .

مسابقة العربي الثقافية

١ - كتاب « القانون في الطب » وكتاب « القانون المسعودي » يعدان في طليعة الكتب التي تركها لنا السلف الصالح ، فقد كان للأول شأن كبير في العلوم الطبية ، وكان للثاني شأن كبير في علم الفلك ، وكان مؤلف الكتاب الأول ابن سينا ، فمن هو مؤلف الكتاب الثاني ؟

* الخوارزمي
* ابن قتيبة الدينوري
* البيروني

٢ - بطليموس عالم فلك يوناني شهير ، في القرن الثاني الميلادي . ترى أين عاش ؟

* في أثينا
* في الاسكندرية
* في اسبارطة

٣ - يتردد اسم « المجسطي » كثيرا في كتب التراث ، لا سيما ما اتصل منها بعلم الفلك . ترى ما المجسطي ؟

* كتاب ألفه العالم اليوناني المعروف بطليموس ، وقد ترجم إلى العربية أكثر من مرة .
* جهاز صنعه علماء الفلك المسلمون لقياس أبعاد النجوم .
* المجسطي اسم أطلقه العلماء المسلمون على أحد بحار القمر .

٤ - من المعروف أن جاليليو تراجع عن الأخذ بالنظام « الكوبرنيكي » ، وقد صرح بذلك علناً . ترى لماذا فعل ذلك ؟

* لاقتناعه بصحة النظام البطليموسي .

ارفق الحل مع هذا الكوبون
كوبون مسابقة العربي
العدد ٣٦٧

* رضوخاً لضغط محاكم التفتيش ، وحفاظاً على حياته .
* جاليليو لم يتراجع عن الأخذ بالنظام « الكوبرنيكي » ، بل ظل متمسكاً به حتى النهاية .

٥ - لم يكن جاليليو مخترع التلسكوب الأول في التاريخ ، فمن الذي ابتكر هذا الجهاز المهم ؟
* نيوتن
* كوبرنيكوس
* هانس ليبرشي ، الهولندي .

٦ - التلسكوبات البصرية نوعان : عاكسة ، وكاسرة . ترى من هو مخترع التلسكوب العاكس ، علماً بأن ليبرشي وجاليليو هما مخترعا التلسكوب الكاسر ؟
* اسحق نيوتن
* كوبرنيكوس
* جوتنبرغ

٧ - نيكولاوس كوبرنيكوس ، عالم فلك شهير ، كان رائداً للانقلاب الذي تعرض له علم الفلك في العصور الحديثة ، والذي حلت الشمس بموجبه محل الكرة الأرضية كمركز ثابت للنظام الشمسي ، وأصبحت الأرض كوكباً سياراً ، يدور حولها . ترى ما العقوبة التي أنزلتها عليه محاكم التفتيش بسبب تعاليمه الفلكية التي خالف بها بطليموس ؟

* كان كوبرنيكوس من رجال الكنيسة ، لذلك أغفلت محاكم التفتيش محاكمته .
* حرص على عدم نشر كتابه أثناء حياته ، تجنباً لانتقام الكنيسة منه .
* نشر كتابه باسم مستعار انطلى على الكنيسة ، وعلى محاكم التفتيش ، إلى ما بعد موته .

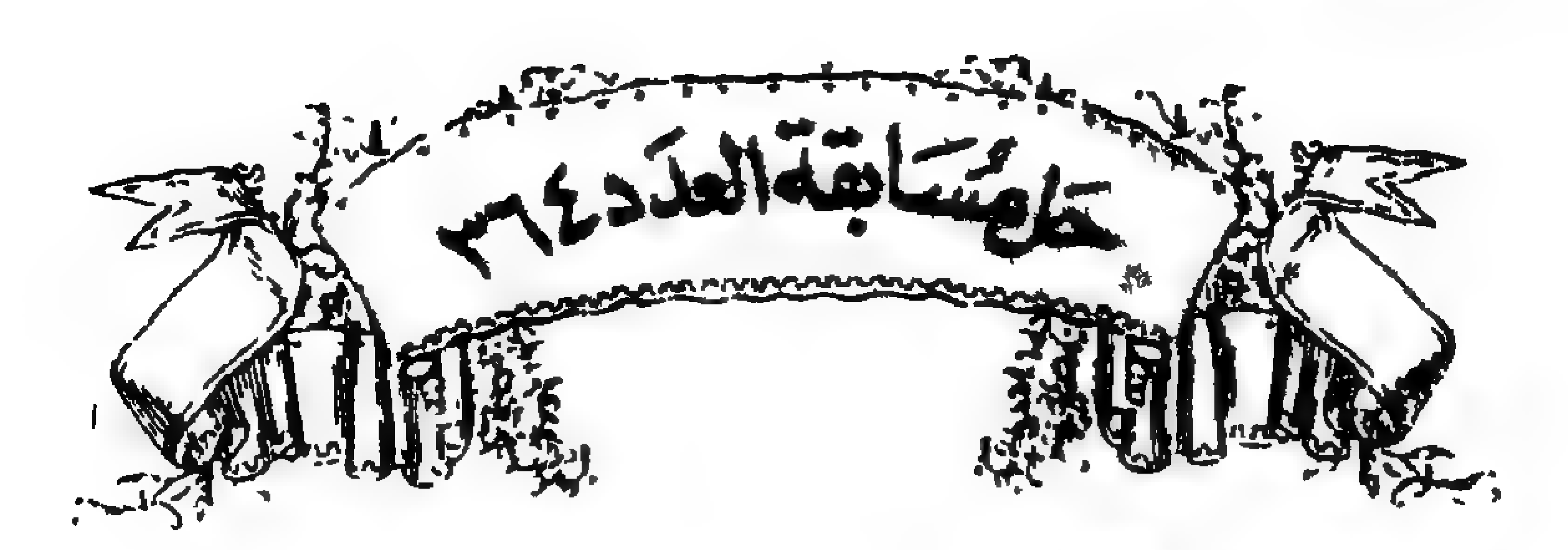
٨ - من هو الفلكي الذي فقد أنفه الطبيعي في مبارزة ، فاستبدله بأنف صناعي مذهب ؟
* بطليموس .
* كوبرنيكوس .
* تيكو براهي .

٩ - أي التلسكوبين أقوى : التلسكوب الروسي المقام على جبال القفقاس أم التلسكوب الأمريكي المقام على جبل بالومار في كاليفورنيا ، علماً بأن التلسكوبين من نوع واحد ، وهو التلسكوبات العاكسة ؟

١٠ - يقال : إن « تلسكوب الراديو » مكبر فوق كونه مقرباً ، أي أنه يمكنك من رؤية أجرام السماء بوضوح فائق . فهل هذا صحيح ؟ وما أكبر « تلسكوب راديو » في العالم ؟
* تلسكوب باركز في استراليا .
* تلسكوب اريكيبو في بورتوريكو .

١١ - ما اسم الجهاز الذي تمكن علماء الفلك المسلمون به من قياس ارتفاع الأجرام السماوية ؟
* الاسطرلاب .
* المنظار المكبّر .
* المقراب .

□



مـــارس ١٩٨٩م

١ - توفالو «Tuvalu» : هي الجزر التي يعتمد اقتصادها الوطني على تصدير الطوابع البريدية ، وعاصمتها فونا فوتي ، ومساحتها ٢٦ كم٢ ، نعم ستة وعشرون كيلومترا مربعا فقط وعدد سكانها (٨١٠٠) نسمة ، وتقع هذه الجزر الصغيرة في المحيط الهادي .

٢ - يوجد في ايسلندة مالايقل عن ٧٠٠ نافورة ماء ساخن وتعتمد البلاد على هذه النوافير الطبيعية لتأمين ٧٥٪ من التدفئة المركزية التي لاغنى عنها في تلك البلاد الباردة ، وقد سميت العاصمة (ريكيافيك) نظرا لكثرة البخار المتصاعد من نوافيرها الطبيعية الساخنة .

٣ - الجزر المقصودة في السؤال هي مجموعة جزر (تونجا) ، وهي جزر بركانية ومرجانية ، لايقل عددها عن ١٥٠ جزيرة ، اكتشفها الهولنديون سنة ١٦١٦ ، وزارها الكابتن كوك سنة ١٧٧٣ ، وقد سماها آنذاك الجزر الصديقة ، وتقع جزر (تونجا) ضمن جزر (بولينيزيا) في جنوب المحيط الهندي ، وهي صغيرة ، تبلغ مساحتها ٧٤٧ كم٢ ، وسكانها (١٠٩,٠٠٠) نسمة ، وعاصمتها (نوكو ألوفا) .

٤ - يبلغ عدد الجمهوريات في العالم ١٢٤ جمهورية ، ومعنى هذا أن ٤٦ دولة من مجموع الدول المستقلة (١٧٠) ليست جمهورية . والجدير بالذكر أن بين هذه الدول غير الجمهورية ١٨ ملكية ، و ١٦ دولة تنعم باستقلال محدود ضمن الكومنولث البريطاني .

٥ - جزيرة هاواي بل جزرها تقع في شمال المحيط الهادي ، على بعد مقداره نحــو ٣٧٠٠ كم إلى الغرب من فرانسيسكو ، وقد اكتشفها كوك سنة ١٧٧٨ ، وسماها جزر ساندويش ، لكن الجزر التي بقيت مستقلة طوال القرن ١٩ مالبثت أن طلبت الانضمام إلى الولايات المتحدة ، والتخلي عن استقلالها .

٦ - سبب ذلك أن الكونجرس الأمريكي أعطى تكساس الحق في أن تجزىء نفسها ، لتصبح خمس ولايات بدلا من ولاية واحدة ، في أي وقت تشاء ، وذلك عندما انشقت عن المكسيك ، وانضمت إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٤٥ .

٧ - هناك مجموعتان يطلق على كل منهما اسم جزر «كريسماس» ، وتقع إحدى المجموعتين في المحيط الهندي ، إلى

الجنوب الغربي من جزيرة جاوة ، وتقع الثانية في المحيط الهادي ، والمجموعة الأولى تحكمها استراليا ، بينما تحكم بريطانيا مجموعة جزر «كريسماس» الثانية التي تقع في المحيط الهادي .

٨ بانجول هي عاصمة غامبيا ، الدولة الافريقية الصغيرة الفقيرة ، المجاورة للسنغال ، تبلغ مساحتها ١١,٢٩٥ كم٢ ، وعدد سكانها (٧٧٧,٠٠٠) نسمة .

٩

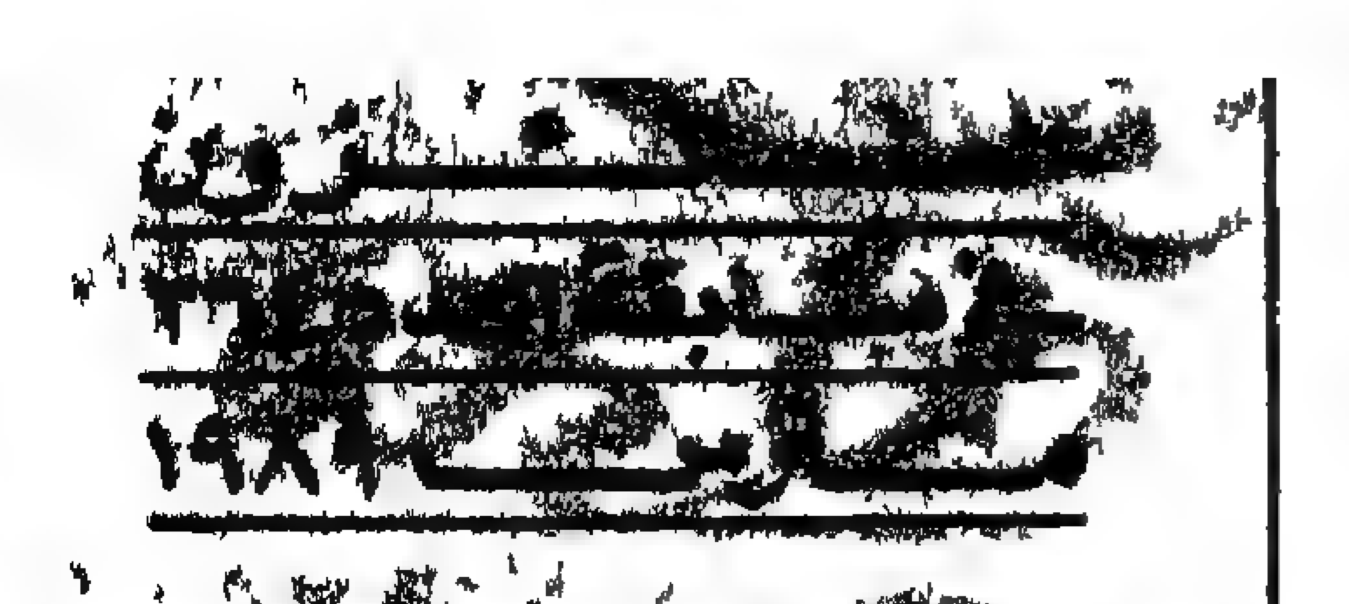
الأسماء القديمة		الأسماء الجديدة
جريتلند	=	كالاليت لونات
داهومى	=	بنين
فولتا العليا	=	بوركينا فاسو
زامبيا	=	روديسيا الشمالية
هندوراس	=	بليز
روديسيا الجنوبية	=	زيمبابوي

١٠ عدد الأقطار غير المستقلة في العالم ٥٩ قطرا ، وهكذا يصبح مجموع الدول المستقلة وغير المستقلة في العالم ٢٢٩ .

١١ بلومان هي عاصمة بليز (هندوراس سابقا) .

ناساو	- البهاما
ثيمفو	- بوتان
فادوز	- ليختنشتاين
أولان باتور	- منغوليا

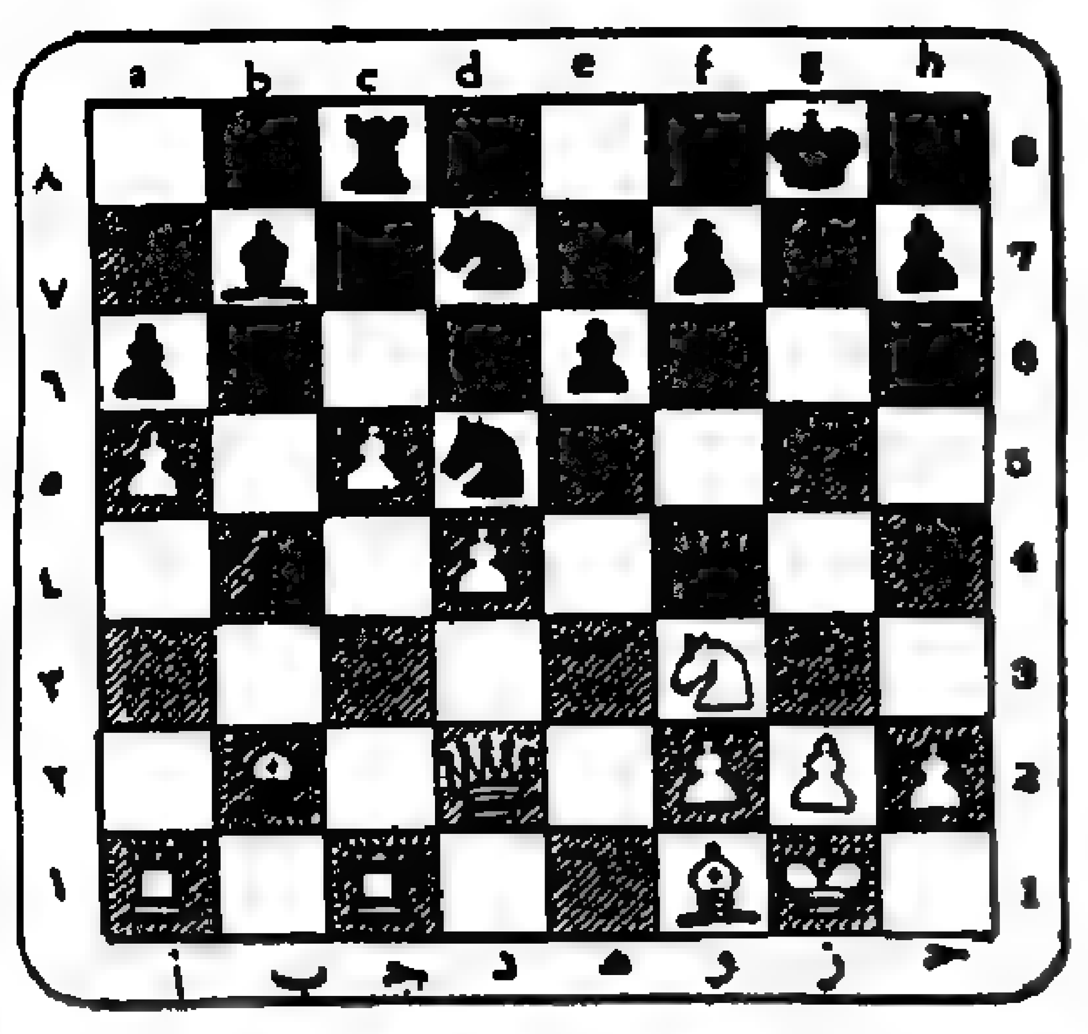
١٢ مقاطعة كولمبيا «District of Columbia» هي التي تتعادل ، وعاصمتها واشنطن دي سي من حيث المساحة التي تبلغ ٦٩ ميلا مربعا ، ومن حيث عدد السكان البالغ عددهم $\frac{٣}{٤}$ مليون نسمة أو أكثر قليلا .



الجائزة الأولى : محمد أحمد حجاج / المحلة الكبرى - جمهورية مصر العربية
الجائزة الثانية : دكتور جودت باسيل دبسيه / الصفاة - الكويت
الجائزة الثالثة : محمد عمر سالم عبد الله / كريتر / عدن - جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - عبد الرحمن محمد هايل الصلوي / صنعاء / الجمهورية العربية اليمنية
٢ - حمودة قاسم حمودة / المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية
٣ - أروى عبد الغني محمود / عمان / المملكة الأردنية الهاشمية
٤ - عمار العموري / مركز بريد توزر / الجمهورية التونسية
٥ - صفاء رفيق آغا / دير الزور / الجمهورية العربية السورية
٦ - رأفت عبد العظيم أبو العز أحمد / الدوحة / دولة قطر
٧ - محمد سليمان الجبوري / بغداد / الجمهورية العراقية
٨ - عبد الغني بوقدة جميجع / حمام الضلعة / الجمهورية الجزائرية





اتسم اللقاء الأخير بين العملاقين السوفيتيين : جاري كاسباروف بطل العالم الحالي ، وأناتولي كاربوف بطل العالم الأسبق ، في نطاق بطولة الاتحاد السوفيتي الخامسة والخمسين ، بكثير من الأثارة والتشويق ، فقد كان محبو اللعبة وهواتها ينتظرونه بلهفة بالغة . لعب كاربوف برصانته وهدوئه المعهودين ، في حين انتهج كاسباروف خط المخاطرة والمغامرة المأثور عنه . وانتهت المباراة بينهما بالتعادل الذي عرضه كاربوف في النقلة الثلاثين وتلقّفه كاسباروف بالترحاب لاقتناعه بصعوبة الفوز .

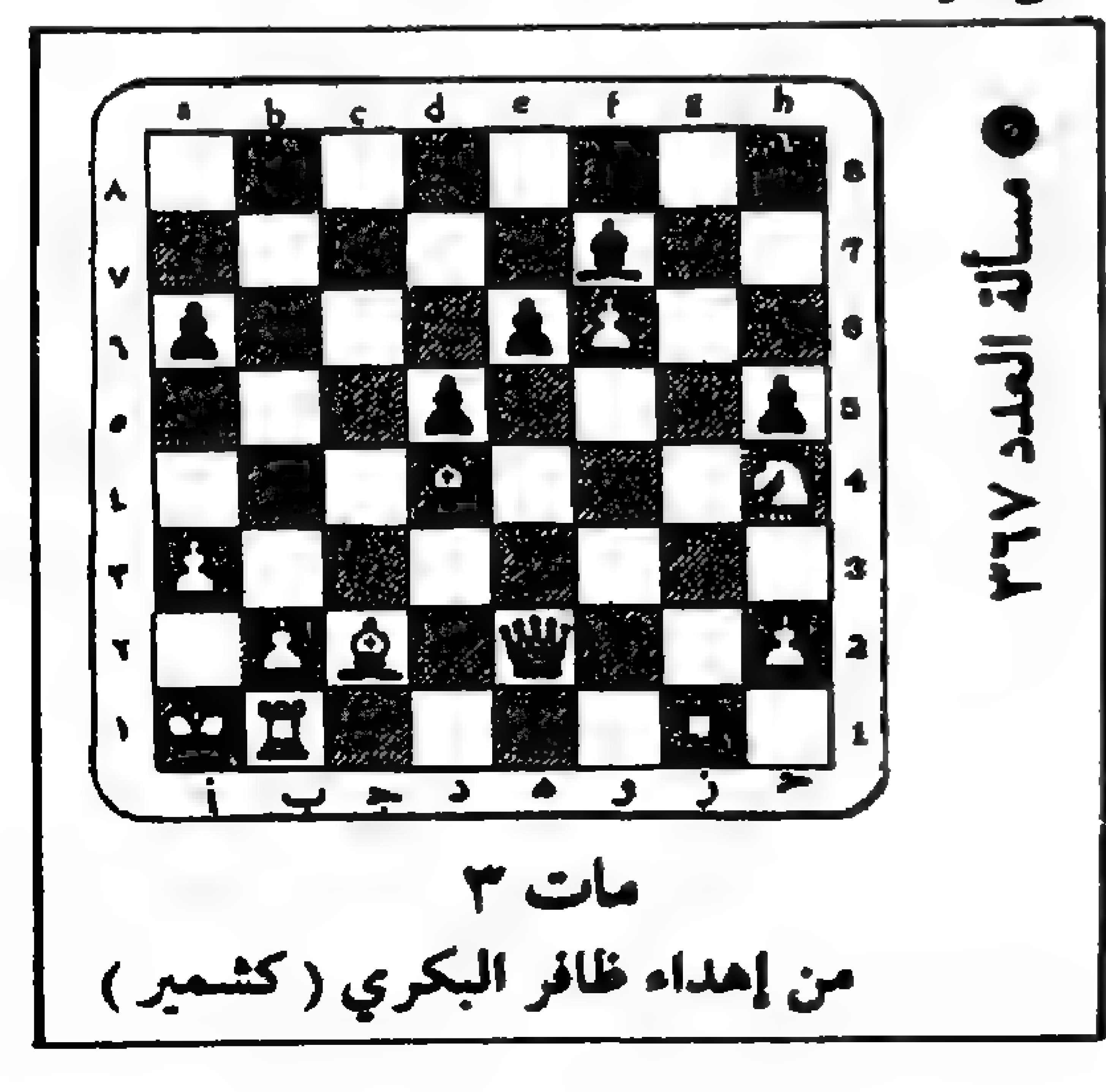
وكانت نقلة كاسباروف الرابعة مخيِّبة لتوقعات جميع المراقبين ، وقد أثارت كثيراً من الجدل والتعليق بين كبار الأساتذة ومنهم نيكيتين مدرب كاسباروف الذي قال : « لم يخطط أي منا لهذه النقلة أثناء التحضير ، بل فاجأنا بها كاسباروف أثناء اللعب ، وهي نقلة مؤثرة ، وإن كانت تجافي قانون المنطق الذي يرجع الى أن كاسباروف يحاول الابتعاد عن اللعب النظامي ، لإبعاد كاربوف عن الطريق الممهد » . أما الأستاذ الدولي يوري أفرباخ فقال : « إن كاسباروف يخرج عن قواعد الافتتاح المعروفة ، وهو مالا أقرّه ، خاناً من أنصار الأسلوب الكلاسيكي . ويبدو أن كاسباروف بنظره الثاقب يرى مالا نراه.، فيبيح ذلك لنفسه » .

ومن أجمل التعليقات ما قاله آرتور يوسوبوف : « إن مهارة كاسباروف وكاربوف تذهلني ، فعلى الرغم من أنهما قد التقيا أربع مرات متتالية حتى الآن ، إلا أنهما يلعبان كل مباراة جديدة بينهما كما لو كانا يلعبان معاً لأول مرة ، وبالحماسة والإبداع المعهودين فيهما ، وهو أمر يدعو لكل إكبار » .

وفي ختام اللقاء التقى الخصمان اللدودان حول الرقعة ، وأخذا يدرسان الدور ، ويحلّلانه ، كما لو كانا صديقين حميمين ، وقد نسيا كل ما كان بينهما من خصومة . وإليكم الدور الذي نحن بصدده .

□ كاربوف	■ كاسباروف
١ . د ٤	ح - و ٦
٢ . جـ ٤	هـ ٦
٣ . ح - جـ ٣	ف - ب ٤
٤ . و - جـ ٢	ت(نقلة مبتكرة)

د ٥ أو جـ ٥ هي المعهودة للحد من سيطرة الأبيض على الوسط



مات ٣

من إهداء ظافر البكري (كشمير)

٥ . أ ٣	ف×جـ٣
٦ . و×جـ٣	ب ٦
٧ . هـ ٣	ف-ب ٧
٨ . ب ٣	د ٥
٩ . ح-و٣	ح ب-د٧

الموقف نظريا في صالح الأبيض

١٠ . ف-هـ ٢	د×جـ٤
١١ . ب×جـ٤	جـ ٥
١٢ . ت	ر-جـ٨
١٣ . ف-ب٢	جـ×د٤
١٤ . هـ×د٤	ب ٥
١٥ . جـ ٥	أ ٦
١٦ . أ ٤	ح-د٥
١٧ . و-د٢	ب ٤

نقلة غير متوقعة ف ـ جـ ٦ أفضل نظرّياً

١٨ . أ ٥	و-جـ٧
١٩ . ر(و)-جـ١	و-و٤
٢٠ ف-و١	ر(و)-د٨
	(الشكل)
٢١ . و×و٤	ح×و٤
٢٢ . ر-أ٤	ح-د٥

٢٣ . ح - د ٢ الدور مايزال في صالح الأبيض

٢٣	ر-جـ٧!
	(رائعة)
٢٤ . ر(أ)-أ١	ح-ب٨!
٢٥ . ح-جـ٤	ف-جـ٦
٢٦ . ح-د٦	ر-أ٧
٢٧ . و ٣	ح-هـ٧
٢٨ . ر-جـ٤	ح-د٥
٢٩ . ر(جـ)-جـ١	ح-هـ٧

٣٠ . ر - جـ ٤ تعادل بتكرار النقل بالاتفاق

□□□

الفائزون في حل مسابقة الشطرنج العدد ٣٦٤ مارس ١٩٨٩

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ صفاء محمد عثمان ـ الجيزة / ج م ع
٢ ـ علي السعدي ـ دمشق / سوريا
٣ ـ توفيق علي العمر ـ شبوة / اليمن الجنوبي
٤ ـ نورس حسام حسين ـ النخيل / رأس الخيمة / الإمارات
٥ ـ أسامة علي قاسم ـ جدة / السعودية

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ حسام عبدالهادي محمد ـ بغداد / العراق
٢ ـ نور الدين الهاشمي ـ طرابلس / ليبيا
٣ ـ المنجي القصير ـ المطرية / تونس
٤ ـ فرسان طه الشهايلة ـ عمان / المملكة الاردنية الهاشمية
٥ ـ وليد سعد الله ـ هوليوود / أمريكا

حل مسألة العدد ٣٦٥ ـ ابريل ١٩٨٩م

١ . و-د٤	ر-ب٢
٢ . م-د٣	أ٣
٣ . م-هـ٣	م-ب١
٤ . و - د ١ (مات)	



العربي - ص. ب : ٧٤٨ الصفاة - الرمز البريدي : 13008 الكويت



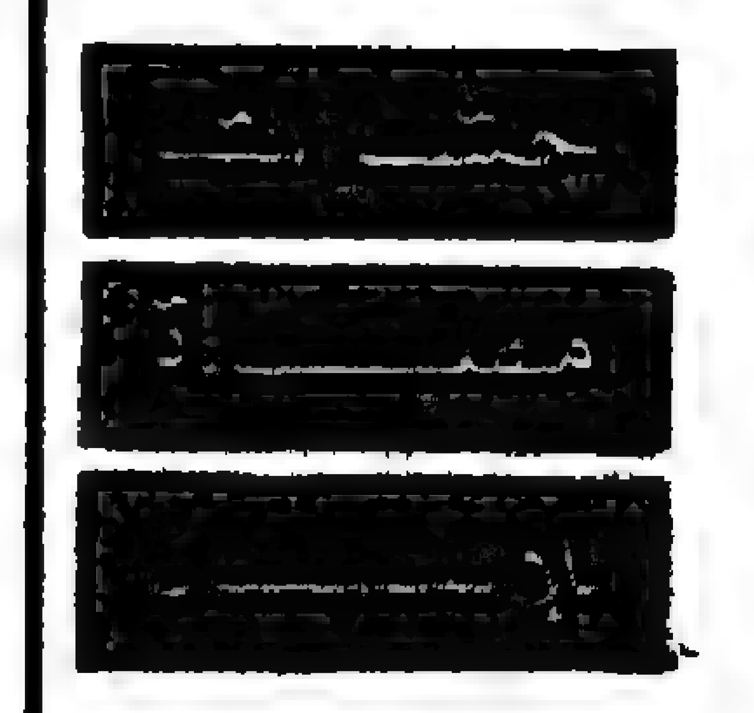
● إخوتي العرب ، بكل ما يعنيه الود من معان سامية أكتب عن وطني الضائع ، عن فردوسنا المسلوب ، عن فلسطين وقضيتنا المصيرية ، عن الانتفاضة وأحداثها المشرفة ، وثورة أهلنا في فلسطين المحتلة ، وهي تقرب من نهاية عامها الثاني ، ولازالت على شدتها ونضالها البطولي. تثير العالم بما فيها من مواجهة وصمود . إن من حق شعبنا الفلسطيني البطل أن يكتب عنه الكثير ، من حق أطفالنا الذين يرمون الحجارة بكل جسارة وصمود أن يظهروا للعالم أبطالا ، من حق أمهاتنا الفلسطينيات وشيوخنا وشبابنا الذين يقفون في وجه الرصاص الغادر الذي يمزق الأحشاء ويقتحم القلوب ،ويصمدون أمام الغاز السام الذي يخترق صدورهم ، من حقهم أن يطلع العالم على حقوقهم الشرعية وقضيتهم ونضالهم . إن الشعب العربي الفلسطيني البطل في الداخل يحتاج إلى مساندة وتوعية من أصحاب الفكر والقلم ، وتسليط الضوء عليهم يعطيهم نوعا من المساندة والدعم المعنوي الذي هم في أمسّ الحاجة إليه .

إخوتي العرب ، إن شعبنا الفلسطيني يفرض وجوده على العالم بما يقوم به من بطولات رائعة ، وملاحم خالدة ، فليس من الممكن أن ننسى أمًّا تجهض بسبب الغازات السامة ، أو الضرب المبرح الذي تتعرض له ، أو طفلا يموت برصاص المحتل ، أو شيخا يهان لدفاعه عن أرضه أو منزله ، فأصحاب الأرض يأبون الذل والإهانة .

القارئة : نسرين طه

حمص / سوريا

□■□



الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● تحية طيبة وبعد ،

لدى اطلاعي على العدد (٣٦٢) يناير ١٩٨٩ من « العربي » ، لفت انتباهي مقال (حشرات تأكل حشرات) ، للدكتور خالد رويشد .

لقد تمكن الدكتور - كاتب المقال - من إيجاز بعض المعلومات ، ورأيت من واجبي أن أضيف على ما ذكره بعض المعلومات ، كي يعم الفائدة والنفع .

يبدأ الحديث عن حشرة أسد المن ، وهي حشرة شرهة ذات جسم هزيل ، ضعيفة القوام ، بطيئة الحركة ، رقيقة الجلد . والطور اليافع منها يطلق عليه اسم

على هذه الصفحات ... ترحب «العربي» بنشر ملاحظات وتعليقات قرائها الأعزاء على ما ينشر فيها من آراء وتحقيقات



(الذباب ذو العيون المذهبة) . نرى في أغلب الأحيان أن الأنثى تضع البيض الأبيض اللون متعلقا بالسيقان النباتية الطويلة ، أو ملتصقاً بأوراق الأشجار والأعشاب ونباتات المحاصيل الحقلية المتنوعة . ويأتي دور هذه الحشرة الكبير المهم للإنسان لتمكنها من تخليصه من أعداد كثيرة من الآفات الزراعية الخطيرة .

(ثانيا) فرس النبي : وهي حشرة ضخمة الحجم ، من فصيلة الحشرات ، مشبكة الأجنحة ، وتضم حوالي ١٨٠٠ نوع .

والملفت للنظر أنها جميعها آكلة لحوم . أما أماكن وجودها ففي جميع الأقاليم الدافئة في العالم . أضف إلى ذلك أن فريستها ليست نوعاً واحداً ، بل أنواع كثيرة .

ثالثا : الرعاشات ، وهي مخلوقات حشرية بنية اللون أو خضراء ، ذات أجسام رقيقة ، وطيران بطيء . لها رأس كبير ، فيه عيون . ولرأسها زوج من قرون الاستشعار القصيرة ، وثلاثة أزواج فمية . وهي من أخطر الكائنات الطاغية في عالم « ما تحت الماء » ، كما أن هناك أنواعا أخرى من الحشرات مثل : الذباب السارق ، والذباب الحائم ، والخنافس .

القاريء : ماجد مصطفى أحمد
ادلب ـ سوريا

□■□

الأقمار الصناعية

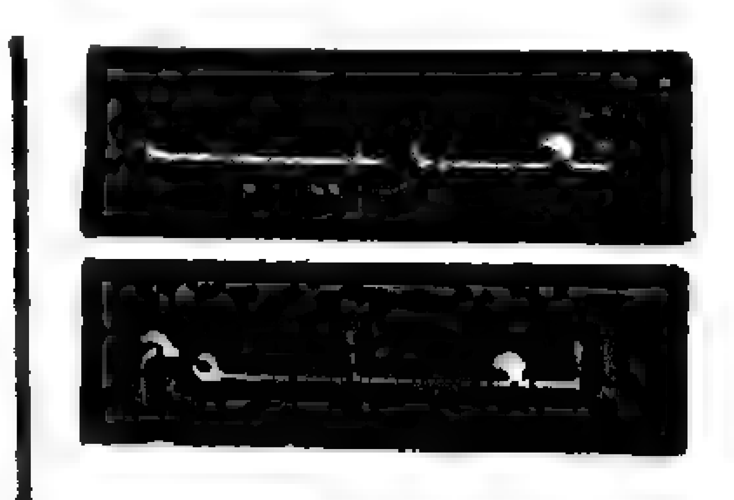
الاستاذ الدكتور رئيس التحرير

● تحية صادقة من تونس الخضراء إلى الكويت بلد العروبة والمجد ، إني من المتكيين على قراءة مجلتكم بانتظام ، لما ألمسه فيها من العمل الجاد لإثراء الثقافة والمعرفة في الوطن العربي ، وإنني معجب جداً بالمستوى الرفيع لمجلتكم ، وهي من المجلات التي لها صدى كبير لدى المثقفين في تونس وكل أقطار المغرب العربي الكبير . وحرصاً مني على شمولية « العربي » وإلمامها بكل المعارف الإنسانية ، فإنني أقترح توسيع الباب الخاص بالعلوم ، ليشمل بعض المواضيع المهمة التي لم تنل حظها من الإعلام ، وعلى الأخص موضوع الاتصالات الفضائية عبر الأقمار الصناعية .

القاريء : محمد بن أحمد الهمامي

كلية العلوم ـ تونس

حوار القراء



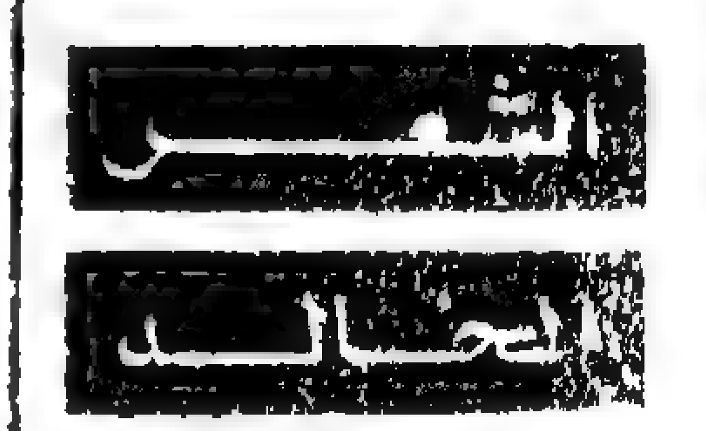
● قرأت في عدد « العربي » ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ مقالا للدكتور عبدالعظيم أنيس ، عن التعليم الفني والتقني . وقضية التقنية التي أثارها الكاتب تصطدم بمعضلة كبيرة ، وهي أن التعليم العلمي والتقني في الجامعات العربية غير معرب ، على الرغم من أننا نملك أرقى لغة وأسمى معانٍ ، تجعل الطالب العربي أقدر على المناقشة بها ، وأسرع إلى استيعاب هذه العلوم المتقدمة ، غير أن اللغة الأجنبية من هذا المنطلق ، تعيق الطالب عن معرفة الكثير من المعلومات أثناء قيامه بترجمتها واستيعابها ذهنيا ، ثم ترجمتها مرة أخرى إلى الأجنبية ذهنيا ، مما يوقع الطالب في كثير من المشاكل ، وخاصة إذا كان غير متمكن من اللغة الأجنبية ، فيضيع معنى الكلمة المطلوبة ، وتقل درجة سرعة استيعابه للمصطلحات العلمية الأجنبية . فالمطلوب أن تقوم حركة ترجمة واسعة للمؤلفات العلمية الأجنبية إلى لغتنا العربية ، فالأجانب قبل ذلك ترجموا الكتب والمؤلفات العربية إلى لغاتهم . ثم إن لغتنا العربية تقوي الروابط بين الجامعات العربية وأبنائها ، وتوصل انتماءهم القومي . وهذه أمنية يتوق كل العرب إلى تحقيقها .

نأمل من مجلة « العربي » أن تتبنى الموضوع وتطرحه على صعيد أوسع للبحث .

القارىء : طارق زاكي الصطوف

حماة / سوريا

□■□



●المقال المنشور في عدد ٣٦٢ يناير ١٩٨٩ عن الشاعر « ابن زيدون » شاعر الحب والحنين ، للدكتورة سلمى الحفار الكزبري ، وردت حوله عدة رسائل نختار منها رسالتين :

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

تحية حب وتقدير لكم ولأسرة المجلة ، لما تبذلونه من جهد ، فهي إنجاز عظيم ، بما تقدمه لأبناء العروبة من معين الثقافة والفكر في كل ما ينفع الإنسان العربي ، ويشده إلى أمته العربية .

لقد قرأت مقال «ابن زيدون» ، وأود أن أتوجه بالشكر لكاتبته د . سلمى الكزبري ، على عرضها له بشكل مشوق مؤثر ، ونظرا للمكانة التي يحتلها الشاعر في تاريخ الأدب العربي فإنني أقترح أن يتم نشر المزيد من المعلومات عن حياة هذا الشاعر ، إضافة إلى بعض أشعاره .

القارىء : محمد احمد حبركين

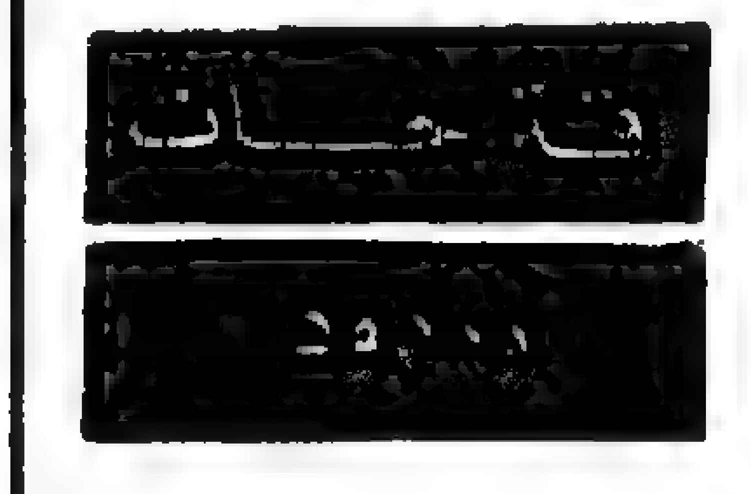
دمشق - سوريا

أما الرسالة الثانية فتقول :

لقد شدني حديث د . سلمى الكزبري عن الشاعر ابن زيدون ، وخاصة أنه يتحدث عن الحب ، والحديث عنه موضوع مشوق ومثير للاهتمام ، لأنه يطرح مسألة وجود ، والحب يعني هذا الوجود ، طالما أن العلاقة بين الجنسين مستمرة ، تحدد كل يوم مصير كل من الطرفين ، لكننا نجد أن علاقة الترابط في عصرنا الحالي أصبحت مسألة تافهة في بعض الأحيان ، وهنا يخطر في بالنا سؤال : لماذا أصبح الحب ذا أسس ضعيفة ، وسريع التفكك ، على عكس ما كان في عصر الأسلاف الذين شاعت قصص حبهم وخلدت في التاريخ ، وأصبحت تردد عنهم الأمثال في العشق ، ومنهم شاعرنا ابن زيدون ؟ وبفضل متانة الأسس أصبحت قصة الحب في ذلك العصر أسطورة عبر الأجيال ، وهي التي خلدها الشاعر ابن زيدون فملأت قلبه ، واعتبرها عاطفة نبيلة ، وتركت الأثر في الشعر العربي الخالد .

القارىء : وضاح بياهو
حلب ـ سوريا

□■□



● القارىء : عمار هواش ـ دمشق ، سوريا ـ يقترح صفحات خاصة بأمور الشباب ، تعالج قضاياهم النفسية والرياضية ، والأمور الخاصة بتعلم الحاسوب «الكمبيوتر» والتقنية ، وكيفية تنشيط القدرات الأدبية الشابة الخلاقة ، ومناقشة بعضها ونقدها ، وبهذا تخلق جيلا عربيا واعيا من الكتاب المبدعين .

● القارئة : هبه الفاصد ـ من عمان ، الأردن ـ تطالب بإجراء استطلاعين علميين ، أولهما يتعلق بثقب الأوزون الموجود في طبقات الجو العليا ، والثاني يتعلق بحقيقة وجود مثلث برمودا ، من أجل التعرف على طبيعتيهما ، وبيان دور الأقمار الصناعية في الكشف عنهما .

● القارىء : عبد المطلب ادريس ـ من اكرا ، غانا ـ يقترح أن تقوم المجلة بزيارة منطقته ، وتسليط الضوء على أحوال المسلمين هناك .

● القارىء : محمد عوض بحاج ـ من محافظة حضرموت ، بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ـ يستفسر عن شروط الاشتراك بمسابقة العربي الثقافية ، وكيفية ذلك . ونقول له : إن المسابقة لها شروط يمكن الاطلاع عليها ضمن العدد ، وكل إجابة لا ترفق بكوبون مسابقة العربي لا يلتفت إليها .

حوار القراء

● القارىء : سليم هاني منصور ـ زحلة ، ملبنان ـ يبدي إعجابه الشديد بصفحة «مساحة ود» . ويقترح أن تعطى الفرصة للقراء لكتابة هذه الصفحة .

● القارىء : غياث جباخنجي ـ من دمشق ، سوريا ـ لديه مشاريع علمية وقصص عن الخيال العلمي ، يرغب في تطويرها .

نقول له : إن هناك جهات علمية كثيرة في الوطن العربي يمكن أن تراسلها ، وتعرض عليها هذه الأفكار ، كما يمكنك مراسلة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي أو معهد الأبحاث العلمية في الكويت . وستجد كل الاهتمام .

● القارىء : الشيخ محمد الأمين حاجب ـ إمام مسجد ماوسل ، في مدينة ساناويس ، بجمهورية السنغال ـ يقترح على المجلة زيارة منطقته ، والقيام باستطلاع مصور ، كي يلتفت المسلمون إلى ظروفهم الصعبة التي يمرون فيها





الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة .

والمطلوب منك الاجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
	■									١
						■				٢
					■					٣
■										٤
						■		■		٥
	■	■		■	■					٦
								■		٧
					■					٨
■			■				■			٩
									■	١٠

كلمات أفقية :

١ - سلسلة جبلية كبرى تمتد من نيومكسيكو الى الاسكا
٢ - قديم أو عتيق ، جبل في اليونان كان يعتبر مقراً للآلهة في القديم .
٣ - لغة ، يُسَوِّف .
٤ - سلسلة جبلية واقعة بين فرنسا واسبانيا .
٥ - سلسلة من الجبال تقع في ايران .
٦ - سلسلة جبلية تمر في مراكش والجزائر .
٧ - بحر واسع يتفرّع من المحيط الأطلسي .
٨ - أباح السرّ ، سلسلة جبلية في جنوب تركيا .
٩ - جبل قليل الارتفاع ، قارب من جذوع الأشجار ، هيئة الملابس .
١٠ - سلسلة جبلية تخترق معظم بلاد أوربا .

كلمات عمودية :

١ - جبل في شرق تركيا يرتبط اسمه بسفينة نوح .
٢ - شجاع ، أصيب بالشلل .
٣ - جبال تمتد من شمال أمريكا الى جنوب كندا .
٤ - غير مطبوخ ، سليط منونة بالنصب .
٥ - تجدها في رأس ، من الحبوب ، لو معكوسة .
٦ - يأوي معطوفة ومبعثرة ، أخذ .
٧ - جبل بركاني في القارة الافريقية كان مسرحاً لرواية أدبية معروفة .
٨ - حرفان متشابهان وكلمة (أرى) مبعثرة ، يصيب بالرزايا .
٩ - مطبوخ ، كيميائي وفيزيائي بريطاني اكتشف قانون ضغط الغازات .
١٠ - أرض مرتفعة كثيراً ، قناة مائية عربية مهمة .

● حل مسابقة العدد الماضي - مايو ١٩٨٩ م

١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
ش	ه	■	د	م	■	ل	ب	و	ن	١
■	ل	ب	و	ن	ة	ز	ث	ا	ج	٢
ن	■	ا	■	ش	■	ن	ر	ن	ي	٣
ك	ل	س	ب	ا	ا	م	■	د	ب	٤
ش	و	ت	ر	■	م	■	م	ر	م	٥
■	ث	ر	ن	■	ن	ا	و	ي	ح	٦
ي	ر	ن	د	ل	ا	■	ص	ع	ف	٧
م	ك	ا	ل	م	■	ة	ل	ج	و	٨
ر	ن	ك	ل	و	ف	■	ل	ى	ظ	٩
ن	ج	■	و	■	ر	ا	ي	د	■	١٠



تأليف

الدكتور حسين فهيم

من المسرح العالمى

سلسلة ثقافية
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٣٧ يونيو ١٩٨٩

افتتاحيات الهادئ

تأليف : جون ويدمان
تقديم : د. عبدالوهاب المسيري
ترجمة : د. عبدالوهاب المسيري ومحمود حلمي
مراجعة : د. عبدالواحد لؤلؤة



سوق قديم - للفنان الكويتي فاضل العبار